

ليس لي ، في ((شهريات)) هذا العدد من ((الآداب))
الا ان اورد وثائق فرض الرقابة على المطبوعات في لبنان ..
سهيل ادريس

المرسوم الاشتراعي رقم ١

« ان رئيس الجمهورية ، بناء على الدستور ، بناء على القانون الرقم ٢-٧٦ تاريخ ٣٠-١٢-١٩٧٦ (منح الحكومة حق اصدار مراسيم اشتراعية) ، بناء على المرسوم الاشتراعي الرقم ٩ تاريخ ٢١ - ١١ - ١٩٣٩ (تعيين الموعد الذي تصبح فيه القوانين والمراسيم نافذة) ، وبعد استشارة مجلس شورى الدولة ، بناء على اقتراح وزير الداخلية ووزير الاعلام ، وبعد موافقة مجلس الوزراء في جلسته المنعقدة في تاريخ ١-١-١٩٧٧ ، يرسم ما يأتي :

المادة الاولى : تخضع جميع المطبوعات للرقابة السابقة للمديرية العامة للامن العام التي يعود اليها ان تلغي كليا او جزئيا ما هو معد للنشر ، كما لها ان تمنع صدور النشرة المعروضة على الرقابة اذا رأت داعيا لذلك .

المادة الثانية : اذا صدرت احدى المطبوعات خلافا للمادة اولالى اعلاه ، تصادر اعدادها بقرار من المدير العام للامن العام وتوقف المطبوعة عن الصدور بقرار منه . يبقى قرار التوقيف ساري المفعول الى ان تفصل محكمة المطبوعات في اساس الدعوى .

يعاقب المسؤولون بالحبس من سنة الى ثلاث سنوات وبالغرامة من خمسة آلاف الى خمسة عشر الف ليرة لبنانية ولا يجوز ان تقل العقوبة عن الحبس لمدة شهر ، وللمحكمة ان تقرر توقيف المطبوعة عن الصدور لمدة تراوح بين شهر وثلاثة اشهر على ان تحسب من ضمنها مدة التوقيف تنفيذا لقرار المدير العام للامن العام .

المادة الثالثة : اذا خالفت احدى المطبوعات المادة الاولى اعلاه مرة ثانية لا يجوز ان تقل العقوبة عن الحبس لمدة شهرين وعلى المحكمة ان تحكم بالغاء الرخصة المعطاة للمطبوعة نهائيا .

المادة الرابعة : في جميع الحالات المبينة اعلاه لا تقبل احكام محكمة المطبوعات اي طريق من طرق المراجعة العادية او غير العادية وعلى المحكمة ان تفصل في الدعوى في جميع الحالات في مهلة اقصاها اسبوعان من تاريخ احالتها عليها .

المادة الخامسة : لا تقبل قرارات المدير العام للامن العام المتخذة بالاستناد الى هذا القانون اي مراجعة تسلسلية او ادارية او قضائية ولا يحق لاصحاب الشأن المطالبة باي تعويض من جرائها .

المادة السادسة : يعمل بهذا المرسوم الاشتراعي ، بعد تعليقه على باب مقر رئاسة الحكومة ، اعتبارا من يوم الاثنين الواقع فيه ٣ كانون الثاني ١٩٧٧ .

بعبدا في ١ كانون الثاني ١٩٧٧

صدر عن رئيس الجمهورية
الامضاء : الياس سركيس
رئيس مجلس الوزراء
الامضاء : سليم الحص
وزير الداخلية
الامضاء : صلاح سلمان
وزير الاعلام
الامضاء : سليم الحص

بيان لوزير الداخلية

وفي ٣ كانون الثاني اصدر وزير الداخلية الدكتور صلاح سلمان البيان الاتي :

« عطفا على المرسوم الاشتراعي الرقم ١ الصادر في تاريخ ١-١-١٩٧٧ الذي يفرض رقابة مديرية الامن العام السابقة على جميع المطبوعات ،فقد تم انشاء المركزين الاتيين لتسلم المطبوعات ومراقبتها :

١ - مبنى مديرية الامن العام في فيلا شقير - الاشرفية ، التلفون ٣٣٩٢٠٠

٢ - مقر قيادة قوات الردع في مبنى وزارة الصحة قرب المتحف ، التلفون ٢٩٢٧٠٠

يستمر المركزان في العمل طوال ٢٤ ساعة .

تخضع للمراقبة جميع المطبوعات من صحف ووكالات انباء واذاعات وشركات التلفزيون المحلية والعالمية .

وزير الداخلية : صلاح سلمان

مذكرة خدمة

وفي التاريخ نفسه اصدر المدير العام للامن العام العقيد انطوان دحداح مذكرة الخدمة الاتية :

« الموضوع : الاسس العامة لمراقبة المواد الاعلامية الصادرة في لبنان والواردة اليه .

المستند : المرسوم الاشتراعي الرقم ١ تاريخ ١-١-١٩٧٧

اولا : تحدد مذكرة الخدمة - المرجع :

١ - المواد المشمولة بالرقابة .
٢ - وسائل الاعلام المشمولة بالرقابة .
٣ - معايير الرقابة .
٤ - الاصول المبدئية للرقابة .

يجري التعداد في البنود اللاحقة على سبيل التحديد لا الحصر ، بحيث يتم التوسع فيه او الاضافة اليه حسب الحاجة .

ثانيا : المواد الاعلامية المشمولة بالرقابة :

(١) الخبر .
(٢) النبأ .
(٣) المقال .
(٤) العرض .
(٥) التحليل .
(٦) المقابلة .
(٧) التحقيق .
(٨) النقل .
(٩) الصورة .
(١٠) الاعلان .
(١١) التسجيل .
(١٢) الفيلم .
(١٣) كل المواد الكتابية او المرسومة او السمعية او البصرية او المؤالفة بينها .

ثالثا : وسائل الاعلام المشمولة بالرقابة .

١ – الامتيازات . :
– السياسية اليومية .
– السياسية الاسبوعية .
– السياسية الشهرية .
– غير السياسية بتعدد الانباء المحلية .

٢ – الاذاعة والتلفزة .

٣ – وسائل التعبير العلنية (المنشورات، المسرحيات، الملصقات ، الاعلان المباشر ، الخ ..)

٤ – كل المراجع الاعلامية المصدرة مواد اعلامية في لبنان

٥ – كل المراجع الاعلامية المصدرة مواد اعلامية من لبنان

٦ – كل المراجع الاعلامية المستوردة مواد اعلامية الى لبنان .

رابعا : معايير الرقابة .

١ – الالتزام بعدم نشر :

– مواد من شأنها الدعوة الى التفرقة بين المواطنين وبث البلبلة والذعر بينهم .
– مواد من شأنها اثارة النعرات الطائفية واضعاف معنويات وحدة الشعب .
– مواد من شأنها التحريض على القيام باعمال تهدد السلامة العامة والامن .
– مواد من شأنها اثارة الجدل المؤدي الى العودة الى الاقتتال .
– مواد من شأنها التأثير على معنويات القوات المسلحة وامنها .
– مواد من شأنها الاساءة الى رئيس الدولة والى الملوك والرؤساء .
– مواد من شأنها التأثير على هيبة الدولة ومؤسساتها
– مواد من شأنها تعريض علاقات لبنان الخارجية بنشر اخبار ماسة بالدول الشقيقة والصديقة .
– مواد تتركز على استغلال حادث معين واعطائه طابعا مثيرا او طائفيا .
– مواد مضخمة او مختلقة او مشبوهة الخلفيات او الاهداف .
– كل المواد المتعلقة بالقوات المسلحة (اسماء ، اخبار ، تحركات ، مواقع ، الخ ..) وغير الصادرة عن السلطات الرسمية المختصة .
– كل المواد المختلفة شكلا او مضمونا عن البيانات الصادرة عن السلطات الرسمية المختصة بشأن وضع او حادث معين .
– كل المواد المسيئة الى الاخلاق العامة .

٢ – الالتزام بنشر :

– البيانات الرسمية الصادرة من السلطات الرسمية المختصة في شأن وضع او حادث معين .
– البيانات الرسمية الصادرة من القيادة العسكرية والمتعلقة بعمل القوات وتحركاتها وعملياتها

خامسا : الاصول المبدئية للرقابة .

١ – المواد الاعلامية وملتزماتها .

– الصادرة في لبنان : موافقة سابقة من المدير العام للامن العام متضمنة اجازة الصدور وشكلياته .
– المصدرة من لبنان : موافقة سابقة من المدير العام للامن العام متضمنة اجازة التصدير وشكلياته .
– الواردة الى لبنان : موافقة من المدير العام للامن العام متضمنة اجازة الادخال وشكلياته .

٢ – الوثائق المطلوبة .

– المواد الكتابية او المرسومة : قبل الموافقة – نسخة عدد ٢ جاهزة (تعاد احداهما مع الموافقة ، ويحتفظ بالاخرى للمقارنة والارشيف) بعد الموافقة – نسخة عدد ٥ منجزة (فور الصدور) .
– المواد السمعية قبل الموافقة نسخة عدد ٢ مسجلة (تعاد احداهما مع الموافقة ويحتفظ بالاخرى للمقارنة والارشيف)
– المواد البصرية قبل الموافقة – نسخة عدد (٢) محمضة (تعاد احداهما مع الموافقة ويحتفظ بالاخرى للمقارنة والارشيف)
– المواد المؤالفة بين الانواع السابقة : قبل الموافقة – نسخة عدد ٢ كاملة التجهيز (تعاد احداهما مع الموافقة ويحتفظ بالاخرى للمقارنة والارشف)

٣ – مركز الرقابة .

المقر الدائم للمدير العام للامن العام .

٤ – التدابير .

استباقية واستلحاقية (طبقا لنص المرسوم الاشتراعي المستند وكل النصوص السارية المفعول) .

المدير العام للامن العام
العقيد الركن انطوان دحداح

محمد علي شمس الدين

الزلزال

الى بيروت

(١)

غنيت على وترين من الزلزال
فتراجع نحو الصفر دمـي
واغرورق بالتعب الموّال .
آه ...
فرحي ، أبتاه ، تراجع نحو الصفر ،
... سأطلق هذي الصرخة ، ثمّ انام
لألوف مناقير الطير تنقر اجفاني .. أطلقها وأنام ..
سبقتنـي الحرب ..
وأعدائي مؤتمرون ، تدور بهم صهـوات الخيـل ،
فيقتنصوني
يأتي ابناء الامراء ، ويقتنصوني
وتفاجئني عجلات البدو الرحّل
تهوي كرياح في الماضي
كرياح ثابتة لا تتحرّك .. او ترحـل
وأنا اتلمّس للثورة احلامـا
واهرّبها في السر اليك .. فتقتل فيها او .. تقتل
اغمس كفيّ بالوحل وأرفعها ..
كالطائر في اعراس الفلاحين
واقول احترقت في الكف خطوط العرّافين
وتشابك في كبد الصحراء دم الفقراء ..
أبـت ...
اشتعلت في الشمس مدينتك الورقيّه
واندكّ عمود الملح
وعرّش فوق الجدران دم الفقراء ، تسرّب فـي
القدران ، وغادر وجه البحر الى منبعه في الارض ،
(عواصم تأخذ زينتها منه ، واخرى تتقاذفـه او
تتعمّد فيه وتغسل فيه ضفيرتها ..
أبتِ ..
ارتحلت في البحر طيور البحر ، وأسلم كل طائرةَ
للموج ، سوى طفل ما انفكّ يلوّح بالكفين ويرسم
اشرعـة ..
ويسافر فوق مياه راكدة في القلب .. واذ ينحسر
الماء ولا يبقى للطفل سوى غثيان البحر ، يحلق في
كفيك خفيفـا كالعصفور . فتحمله كفاك الى جزر
عذراء ، يعمّر فيها قرطاجة .. ثم يدمرها ..
وغداة يفاجئه القرصان غريبا ..
يرفع سبابته للشمس ، ويجذبها ..

فتهرول بيـن يديه مؤاتيـة
فيطوف بهـا الافلاك ويقذفها ما بين الشرق وبين
الغرب ، فلا تسقط الا في وطني ..
أبتاه .. اذن .. وطني .. وطني وطني وطني وطني
وطني .. وطني .. وطني .. وطني .. وطني ..
وطني .. وطني ..

في الريح (صدى) :
(وطني ..) ..
يتردد مثل صراخ في الابدية .. او مثل عويل فـي
اقبيـة الجلادين ، اذن (وطني) المهجور الطفـل
العصفور القارب والنهر النازف دون مياهوالحنجرة
المبتـورة والسمك المتحجر في قاع القلب ..ذهول
فراشات في الضوء وحمحمة المهر المقطوعة منـــه
قوائمه .. وخروج قطارات في الهجرة عن خطيها ..
قدم.. وقطار دم.. وبيارق تخرج من امطار الخوف ..
الخوف الخوف .. الخوف .. الخوف .. الخوف
الخوف .. الخوف .. الخوف ..

اخاف واخرج في الساحات على اكتاف مظاهرة ..
وأوجه نحـو الارهابيين هتافا اسقط في آخره ..
تتوزعني الساحات وتلبسني المدن الحضرية ..
البس جدران مدينتنا ..
واقول اذن وطنـي يتزين بي ..
فتزين .. (هجرتك الوحشة) اني امنحـك الان
وسامـا أبديـا :
جرحا كهلال في الصدر تعلقه بين الكتفين وتخرج
بـي مزهـوا
فرصاصك يلبسنـي
واقول اذن وطني يتزين بـي ..

ورصاصك يخرج منك ويدخل في الاحـــلام .
رصاصك يورق في الاحلام .. تباركت الاحلام ..
تبارك هذا الموت .. تبارك هذا الكأس .. تبارك
هذا الوحل على شفتيك .. تباركت الامطار ..
... اليك اليك وازعم اني الثلج وانك شيء ما ..
كالنـــار ..
أهرول نحوك مثل دموع عاشقة تفلت دون بكاء..
اتلمّس وجهك يا وطني ..

* * *

سبقتني الحرب اليك لتعلن وقت هبوطي فيك ..
يسود الان هدوءك تحت النبض ، واذ يتمزق صدر
الارض وتبقى مبتسمـــا ..
تتسرّب من كفي كما يتسرب رمل يجذبه الموج من
الشطآن ..
فاين أفرّ ؟ ولا يلجئني حجر في الارض ولا سارية
أو علم ؟
أين أواريك من الاعداء ومن نظرات الاهل ومن عطف
للغرباء تجاوز حدّ القتل .. تأهب :
سيخاطبك الوسطاء .. تخاطبك الدول الكبرى ..
ويخاطبك الاعداء .. وأنت همست بأن الاهل هـم
الاعـداء ..
سبقتني الحرب اليـك ..
... سألبس خوذة جندي .. او اذهب مكشوف
الراس ومكشوف الكتفين كجنـدي الاغـوار ..
احاربهم .. وامـوت ..
فهل ترفض موت الشعراء . وموت مغنيك ..؟ اذن :
سأقاتل حتى ترضى :
فاشهـد :
مقتـول فيـك
ومقتول في الازهـار
ومقتول في شفـة الامطـار
ومقتول في الجـوع
ومقتول في عطش الينبوع
ومقتول في الشعـر
ومقتول في الاحلام ..
واشهـد :
سأناديك فتسمعني
وأوزع فوق جبال الارض دمي كالطير .. فتجمعني
اغريب أنـت ؟
لماذا سكت احيانا ؟ واثرثر مثل العصفور .. وأنت
هواء يختزن الاصوات ؟..
ثقيل هذا الصمت .. وعابقـة نظراتـك بالاسرار
كينبوع او شجـره ..
واراني حين اناديك اغمغم اسراري
وأقول كلاما مرتبكا .. أو مشتبكا بالرمز .. وأنت
الواضـح ..
أنت الرمز .. وانت وضوح اللغز .. اتفهمني ؟
اني معترف بالاثم : كتبت الشعر ولم اكتبك ...
وحين قتلت الشعـر وجـدتك فيـه .. فأنت
الضدّ .. اتفهمني ؟
ومزجت رصاصك بالاحلام .. رصاصك يورق في
الاحـلام ..
تباركت الاحلام .. تبارك هذا الموت .. تبارك هذا
الكأس ..تبارك هذا الوحل على شفتيك .. تباركت
الامطار .. اليك اليك ، وازعم انيالثلج ، وانـك
شـيء مـا كالنـار ..
اهرول نحوك مثل دموع عاشقة تفلت دون بكـاء
أتلمّس وجهك يا وطني ..

(٢)

مثل عكاز على الريح اخترقت
جبل الصمت ، احترقت ..
في المساكين ، ومزّقت العويلا
مثل عبّاد الى الشمس ، والشمس طويـلا
وزّعتني ضربة واحدة
بيـن فأسين وبيـن الشجره
دمي المشبوحبين البحروالشمسكنجمحائر اوقبره
دونما نار يضيء
بين جرحين من القلب الى القلب يضيء
أيها النهر الذي يمزج بين القلب والخنجر اقبل
أيهـا النهـر البطيء ..
هذه اغنية للعاشقيـن :
حينما قلت ارجعـي
يتها العذبة في ماء المحيطات ارجعي
اقبلي من وسن الليل ومن غفوة اطراف الشمب
اقبلي من شبك الدمع ومن حجر تحت العيون ..
بدّدتني الطعنـات ..
هذه اغنيـة للطعنـات :
مائلا من تعبـي
مائلا نحـو انكساراتي قليـلا
انحني من ضربة الفأس على الرأس ولا اهوي قتيلا
طلقـة واحدة في القلب لا تكفـي
وجسمي قابل للطعنـات
ان جسمي غابة من طعنـات
وأنا منتظرٌ وجه حبيبي
لابسا خنجره الورديّ في اللحم ، ومحنيا علـى
خمس مرايا
وردة تنبض في خمس مرايا ..
وهو يمضي آخذا شكل السفينة
دمه يلبس قمصاني ..وقمصان المدينة

ربما اخطأ عرّاف الضحايا
غير ان الدم لا يخطيء ..
هذا دمه الساطع في الشارع ينمو
دمه الباسق ينمو
دمه الشاهق حتى نجمة الليل الحزينه ..
دمه الرائب كالثلج على كأس الجبال
دمه الابيض حتى الاشتعال ..
يا بلاد الثلج اني دافيء حتى الجمام
وبقلبي ظمأ للزمهرير
يا بلاد الثلج . ما للثلج لا يسقط من مليون عام ؟
ودمي يقتله لفح الهجير ..
بلبلا .. أم .. سنبله ؟
يا بلاد الثلج اني قابل لمقصله ..
فاستعدي واقطعيني واقطعيني
وا .. و .. ط .. ع .. ي .. ن .. ي
هذه أغنية للمتعبين ..
دائما منتظر شيئا ولا يأتي .. فمن يقرع بابي ؟
ودمي ينفر كالغزلان من غاب لغاب
كان لا يهدر في سمعي سوى القتلى .. ولا يصعد نحوي
غير أقدام الجنود
شرطه تصعد من اقبية الارض وتجتاز حدودي
شرطة في درج السلّم او في خشب الكرسي او في العنق
المنسي بين السيف والنطع وهذا وطني
شرطة تلبسني
أيها الضائع بين الآخرين
أيها الظامىء في صحراء نفط الامراء
انني آخر ينبوع لمجد الفقراء
فاحتضني
وتلمّس خطك الفاصل ما بيني وبين الآخرين .

(٣)

غنيت على وترين من الزلزال
فتقدّم نحو الشمس دمي
واغرورق بالفرح المؤّال ..
آه ...
فرحي يغسل دمع الوحشة اذ يشتعل الجبل الشرقي ويلمع بطن السهل .. فأبصر بين دساكره العمّال ترّن معاولهم في الصخر ، يئن الصخر من اللذّة ، او يتفتّح مثل شعاع الجرح .. هنا وجع لا يعرفه الا العشّاق اذا ملأوا ..
وأراهم يقتحمون النهر ، وينحدرون من الينبوع الى اطراف انامله في البحر .. تواكبهم اسماك النهر واخشاب الغابات واوحال كشرائح لحم بشري او كالحنّاء .. وأسرار تتدحرج من (صنّين) الى عمق الوادي ..
وارى فوق أصابعهم بصمات أرفض .. سيأخذ مجراه من المجرى .. وسيطلع من بين أناملهم بطلان . أرى (شاهين) و (بابك) يلتحمان على فرس واحدة .. فيفر حمار الوحش وتغزل بين الوديان النار وترتجف الاشجار : لقد سبقتني الحرب الى وطني ..
وارى مدنا تطفو او تتراكم كالقادورات على قدم الانهار أرى الانهار تعود مقيده . وتساق وتعرض في الاسواق كجاريه .. يتحسسها التجار .. واذ يتشقق في شفه الفقراء لها عطش .. تعلو بينهما الجدران ويفصل كل محب عن محبوبته ..
واحبب ...
.. حين اتيتك في منتصف الدهر افتش عنك وجدت رصاصا محتفلا .. وشوارع تمضغ وهوهه الدم .. وارصفه خرساء .. وابنيه ترحل او تتهاوى مرهفه ..
ووجدتك في وجهين فلم أعرفك ..
صرخت وعلقت الصرخة فوق سمائك مثل الشلاّل ..
وقلت اذن سبقتني الحرب الى وطني ..
حمراء .. وتحصنك الرايات .. أرتب وجهك ثانية :
وأعيد الانف الى العينين الى الشفتين الى الرئتين الى القدمين الى قلبي ...
واذيب عناصرك الاولى في الشمس .. اغوص الى اعماق خليتك الاولى ..
وانام على عتباتك مرتجفا
كخريف في اول غابته
أتربص بالنجم القطبي متى يأتي
نجم يترمّد في صحن الليل ونجم يورق في صمتي
اتربص بالدب القطبي متى يأتي
سبقتني الاسماء :واعيتني قسماتك حين أجمّعها ..
و .. ي .. ب .. ع .. ث .. تر .. ها الطوفان ..
أمدّ يدي نحو الاصداف : أقول هنا بيروت هنا صيدون هنا بغداد هنا قرطاجة .. ثم يفاجئني سيل .. وتظل فلسطين معلقة تحت الاصداف ..
فاجمع اصدافك واتبعني ..
سأواريك من الاعداء بمذبحة
والم شتاتك من ارحام نساء طافحة بأنوثتها ..
يأتين على أكتاف بعولتهن .. وتسبقهن قباب الشمس ..
واذ يرتسم التبغ على الاحداق ، وتضطرم الصبوات ..
يصعد عرق من اعماق رجولته .. فيلامس اوج النهد .. يلامس اوجك .. اوج القبة .. يبدأ رقصا دمويا لا يهدأ حتى تلتئم الارض وتلتحم الازمان ...
ويبدأ وقتك يا وطني .

لبنان

احمد ع. حجازي

وجهة نظر في
قبول سارتر للدكتوراه الاسرائيلية

يعلم القراء العرب ان المفكر الفرنسي جان بول سارتر قد تلقى في شهر نوفمبر (تشرين الثاني) الماضي درجة الدكتوراه الفخرية في الفلسفة من الجامعة العبرية بالقدس . وقد شاهدنا هنا في باريس مع مشاهدي التيلفزيون الفرنسي صورة من الاحتفال الذي اقيم بهذه المناسبة في السفارة الاسرائيلية بباريس في السابع من الشهر الماضي ، واستمعنا للكلمة التي القاها سارتر بعد ان سلمه السفير الاسرائيلي « جازيت » الدرجة الممنوحة له بحضور عدد من المثقفين الفرنسيين على راسهم الكاتبة سيمون دوبوفوار . والسيدة فرانسواز جيرو وزيرة الثقافة الفرنسية .

ولست اشك في ان الراي العام الثقافي في بلادنا قد استنكر قبول سارتر لهذه الجائزة الاسرائيلية واضاف ذلك الى سلسلة مواقف سارتر في تأيد اسرائيل .وقد قرأت بضعة مقالات وتعقيبات في الصحف العربية تدين كلها سارتر ، بل ان هناك من الفرنسيين من استنكروا كذلك قبول سارتر للدكتوراه الاسرائيلية ، وقد سمعنا عن البيان الذي أصدرته في هذا الشأن مجموعة من المثقفين والصحفيين الفرنسيين الذين حضروا في الشهر الماضي ندوة بغداد حول « الصهيونية كحركة عنصرية » حيث ادانوا سارتر وعدوا عمله تزكية للعنصرية الصهيونية والاحتلال الاسرائيلي للبلاد العربية ، وهم في هذا — هؤلاء المثقفون الفرنسيون — يمثلون جانبا من الرأي العام الفرنسي والاوروبي يزداد يوما بعد يوم تفهما للقضية العربية وتعاطفا مع العرب . ومن المتوقع ان ترتفع بعض الاصوات العربية بالدعوة الى مقاطعة سارتر وكتبه ، فليس من المنطق ان يكون بعض الفرنسيين احرص على فلسطين من العرب انفسهم !

لكني اريد ان ارفع صوتي بالدعوة الى التريث في مقاطعة سارتر ، اذ نحن لن نكسب شيئا ولن يخسر سارتر شيئا من هذه المقاطعة . ولن يكسب منها الا اسرائيل التي ستجدها فرصة للتنديد بالعرب الذين يحرقون الكتب ويقاطعون الافكار ، وفوق هذه الدعوة الى التفكير والتريث ارجو ان اوضح للراي العام الثقافي في بلادنا الجانب الاخر الذي ربما كان غير واضح من واقعة قبول سارتر للدكتوراه الاسرائيلية ، وارجو في النهاية ان يجد القراء العرب في هذا الجانب الاخر — كما أجد — دليلا على موقف ايجابي جديد لسارتر من القضية الفلسطينية ، ان لم يكن من القوة بحيث يوجب علينا تحيته ، فليس اقل من ان يمنعنا بخطأ مقاطعته .

وانا ابدأ فاستنكر انا ايضا قبول سارتر للدكتوراه الاسرائيلية كما استنكرت قبل ذلك مواقفه السابقة في تايد اسرائيل .

ولست اشك في ان اهداء الدكتوراه الفخرية لسارتر عمل خططت له اجهزة الدعاية الاسرائيلية للتغطية على انباء المذابح الفلسطينية اللبنانية ، هذه المذابح التي هي احدى النتائج المنطقية لاغتصاب فلسطين وتشريد الفلسطينيين من ناحية ولتآمر اسرائيليين وامريكيين والرجعيين العرب من ناحية اخرى .

ولست اشك كذلك ان اجهزة الدعاية الاسرائيلية ارادت فيما ارادت ان يغطي نبأ قبول سارتر للجائزة في السابع من نوفمبر الماضي على اصوات عشرات من المثقفين الاوروبيين والعرب الذين كانوا يستعدون لافتتاح ندوتهم ضد الصهيونية في بغداد في اليوم التالي ، الثامن من نوفمبر .

وباختصار . قبول سارتر للدكتوراه الاسرائيلية

ليس هو مسألة الخلاف بيني وبين الذين استنكروا موقفه ودعوا الى مقاطعته ، وانما الخلاف بيني وبينهم في انهم لم يروا من هذه الواقعة الا جانب التأييد لاسرائيل ولم يكلفوا انفسهم رؤية الجانب الاخر في ذات الواقعة الذي يبدو فيه سارتر مدافعا عن الشعب الفلسطيني . وذلك في الكلمة التي القاها في حفلة تسليمه الدكتوراة في السفارة الاسرائيلية . حيث قدم سارتر لاول مرة في حياته الحافلة بتأييد اسرائيل دون قيد او شرط ـ قدم تأييدا مشروطا وذلك حين اعلن انه قلق على مصير الشعب الفلسطيني ، وانه نصير الفلسطينيين بقدر ما هو نصير للاسرائيليين !

واني انقل لكم الحقيقة بكل دقة حين اذكر لكم ان كلمة سارتر قد اربكت السفير الاسرائيلي بقدر ما ادهشت مشاهدي التليفزيون الذين لم يتوقعوا ان يتحدث سارتر عن الفلسطينيين بهذه المناسبة وبهذه اللهجة . وهذا ما جعل احد المذيعين ينتهز الفرصة ويسأل السفير الاسرائيلي عن امكانية قيام حوار اسرائيلي ـ فلسطيني . ثم ان هذه الفقرة في كلمة سارتر حول فلسطين هي التي احتلت موقع البؤرة في الاخبار التي نشرتها الصحف الفرنسية عن قبول سارتر للدكتوراه الاسرائيلية كما فعلت جريدة « الموند » .

لقد قال سارتر بالنص : « ان قبولي لهذه الدرجة العلمية التي اتشرف بها له مدلول سياسي ، فهو يعبر عن الصداقة التي احملها لاسرائيل منذ انشائها كما يعبر عن رغبتي في ان ارى هذه الامة (الاسرائيلية) وقد فازت بالامن والسلام ، هذا السلام الذي لا يتحقق في نظري الا اذا بادر الاسرائيليون الى الحوار مع الفلسطينيين . لانني قلق كذلك على مصير الشعب الفلسطيني ، وانا احس اني نصير للفلسطينيين بقدر ما انا نصير للاسرائيليين »

سارتر يعلن بوضوح شديد انه صديق لاسرائيل ونصير لها منذ انشائها ، واقول انا ان هذه العواطف قديمة تعود الى زمن طفولة سارتر . فجده لأمه يهودي من أعرق العائلات اليهودية في الالزاس ، وفي منزل هذا الجد الذي كان مثقفا دخل سارتر لاول مرة عالم الاسئلة الكبرى كما يحدثنا في « الكلمات » . لكن عواطف سارتر اليهودية ـ والحق يقال ـ عواطف غير صهيونية . ويتضح هذا من تعريفه لليهودي في «المسألة اليهودية» فاليهودي في نظر سارتر هو من يراه الاخرون يهوديا . اذن فاليهودية هي موقف من غير اليهود مفروض على اليهود ، او هي النزعة المعادية لليهود اكثر مما هي حقيقة موضوعية اصيلة كما يزعم الصهيونيون .

اليهودية في نظر سارتر وجود سلبي ، او هي على حد تعبيره « وعي شقي » ، ومن هنا نفهم طبيعة تأييد سارتر لاسرائيل ، ان سارتر في هذا التأييد يتخذ موقفا ضد النزعة اللاسامية اكثر مما يتخذ موقفا مع الحركة الصهيونية .

واذا كانت المنظمات اليهودية والمثقفون اليهود قد اقاموا الدنيا واقعدوها بسبب الاضطهادات التي تعرض لها اليهود في أوروبا الرجعية والفاشية حتى هزوا كل ضمير حر في العالم . فقد فشل العرب للاسف الشديد زمنا طويلا في ان يقدموا قضيتهم العادلة للعالم الذي عرفها من خلال ابشع الصيغ والنداءات المتخلفة التي كان المندوبون الرجعيون العرب يرصعون بها خطبهم ليكسبوا بها التصفيق والسلطة في بلادهم دون التفات جدي للرأي العام في الخارج . ولهذا كان المثقف الاوروبي يناصر اسرائيل المعتدية بضمير مرتاح . ويظن ان مناصرته لها هي استمرار واحياء للتراث النضالي الديموقراطي المقدس ضد الفاشية والنازية . فالمعادلة لم تكن اسرائيل ضد جماهير عربية . وانما كانت جماهير يهودية ضد نظم عربية رجعية متخلفة .

ولقد كان سارتر واحدا من هؤلاء المثقفين الذين اندفعوا في تأييد اسرائيل بهذا التصور السهل .

لقد زار سارتر اسرائيل وكال لها المديح ، ولم يترك سارتر مظاهرة في تأييد اسرائيل الا وشارك فيها ، ولم يفته بيان في الدفاع عنها لم يكن فيه على رأس الموقعين. ولقد اثار سارتر في العام الماضي ضجة كبرى في اسرائيل ضد منظمة اليونسكو عندما حرمت اسرائيل من المشاركة في نشاطها بسبب اعتداءاتها المتكررة على الوجود العربي في الاراضي المحتلة (*)

وها هو سارتر الذي سبق له ان رفض كل الجوائز التي اهديت له بما فيها جائزة نوبل واتهم الهيئة التي تمنحها بالخضوع للنفوذ الامريكي ، يقبل الدكتوراه الفخرية من اسرائيل التي لم تعد طبيعتها العنصرية العدوانية سرا من الاسرار ، وهو يتلقى هذه الجائزة المشبوهة من السفير الاسرائيلي في باريس ، وكان واحدا من المسئولين في اجهزة الامن الاسرائيلية قبل ان يحتل منصبه الاخير ، فهو من الذين يمارسون اضطهاد البشر بأيديهم وليس مجرد خاضع للنفوذ الامبريالي كما هي الحال في اعضاء لجنة التحكيم لجائزة نوبل .

ولا شك ان سارتر في كل هذا واقع في خطيئة كبرى لن يغفرها له تاريخ الفكر ، فسارتر مفكر كبير ، وليس كاتبا طائشا تمكن خديعته ، او صحفيا مأجورا تمكن رشوته . لكن هذه الخطيئة التاريخية ليست هي موضوعنا ، اذ هي موضوع قديم معروف ، ونحن لا نبحث الان كيف سقط سارتر في هذه الخطيئة ، وانما نبحث في قدرته على تجاوزها ومدى اقترابه من فهم القضية العربية في مرحلته الاخيرة ، فسارتر في الحقيقة لبس

(*) كتبت بهذه المناسبة مقالة عنيفة ضد سارتر بعنوان « سارتر يسقط في باريس » ونشرتها في مجلة « الف باء » العراقية .

رجلا واحدا وليس اتجاها جامدا . وسارتر « مودة » سان جرمان في الثلاثينات ليس سارتر نصير العمال والطلاب في الستينات ، وسارتر خصم الماركسية ليس سارتر نصير الماوية ، وسارتر المنغمس في القضايا الاوربية ليس سارتر الجزائر وكوبا وفايتنام .

في عام ١٩٦٧ زار سارتر مصر . وعن طريق مصر زار قطاع غزة ونفقد معسكرات اللاجئين الفلسطينيين في القطاع ، ولم يعبر وقتهـا عن قلقه على مصير « الشعب الفلسطيني » كما عبر في كلمته الاخيرة . ولست اذكر انه تحدث في ذلك الوقت عـن المشكلة الفلسطينية باعتبارها مشكلة وطنية وسياسية بقدر مـا تحدث عـن « مشكلة لاجئين » تكفي لحلها النقود والخيام والدقيـق والسكر . ثم ذهب من فوره لاسرائيل حيث افاض هناك في مدح « المعجزه » الاسرائيلية .

فشتان بين سارتر عام ١٩٦٧ وسارتر عام ١٩٧٦ . سارتر الاسرائيلي ربمـا لـم يتغير ، لكـن سارتر العربي تغير تغيرا واضحا ، وهذه هي مسألتنـا . ومـن هنـا دهشتنا لادانة سارتر الان والدعوة الى مقاطعته الان . فلم يكـن سارتر في اي وقت مضى اقل منه الان تأييـدا لاسرائيل . فلمـاذا لم تظهر هذه الدعوة لادانته ومقاطعته عام ١٩٦٧(*) ؟ولماذا تظهر الانوقد بدأ يتحدث عن قلقه على مصير الشعب الفلسطيني ويقول ان السلام لن يتحقق الا بالحوار مع الفلسطينيين ؟

ان موقف سارتر الاخير هو الجديد وهو الاولى بالتفكير والتقدير ، ومع ذلك فلهذا الموقف سوابق :

— كان سارتر قد قام بزيارتيه العربية والاسرائيلية قبيل حرب ١٩٦٧ ببضعة شهور . وما لبثت نذر الحرب ان بدت في مايـو (ايار) ١٩٦٧ فسارع سارتر هـو ومجموعة من المثقفين الفرنسيين الاخرين الـى اصدار بيـان في تأييد اسرائيل ضد العرب . لكن اسرائيل هي التي بدأت بالهجوم واحتلت ما احتلت وقتلت من قتلت ودمرت ما دمرت . فلم يراجع سارتر نفسه ولم يغيـر موقفه الا بعد ان اشتعل النضال الفلسطيني بعد الهزيمة، هذا النضال الذي امتدت نيرانه الى اوروبا. آنذاك فحسب بدأ سارتر يعدل موقفـه . فنضال الجماهير الفلسطينية هو الذي اضطر سارتر الى ان يعيد صياغـة المعادلـة القديمة . وان يعدل بالتالي موقفه منها . لم تعد القضية هي قضيـة اسرائيل الصغيرة المتمدنة في بحر التخلف والرجعية العربية . وانما صارت اسرائيل القوية المنتصرة في مواجهة الجماهير العربية ، موقف ذكره لا شك بأيام الاحتلال النازي لفرنسا . لكـن سارتر لم يذهب الـى النقيض ، وانمـا اخذ يتحرك ببطء لتعديل موقفه .

أصدر اول ما فعل عددا خاصا من مجلة « الازمنة الحديثة » حول مشكلـة الشرق الاوسط . وكان ذلك بعد الحرب بشهور قليله . لكـن موقفه في هذا الصدد كـان حياديـا أو بالاحرى سلبيا . فقد خصص نصفه لعدد من الكتاب العرب . وخصص النصف الاخر لعدد من الكتاب الصهيونيين اسرائيليين وغير اسرائيليين ، واكتفى هـو وبعض اصحابه الفرنسيين بادارة الحوار . وبالرغم من هذا الموقف السلبي ، فقد وجدها بعض العرب الموجودين فـي فرنسا فرصة سانحة للاتصال بسارتر واطلاعـه علـى تفصيلات القضية الفلسطينية ايمانا منهم بأن من الممكـن كسب هذا المفكر الكبير ، الذي لا شك في اخلاصه لحرية الانسان ايا كانت طبيعة اجتهاداته ،الى جانب القضيـة العربيـة العادلـة .

الم يقف سارتر الى جانب الصين وكوبا وفيتنـام ؟ بل لقد وقف مع الجزائريين نصف الفرنسيين الذين كانوا يعارضـون استقلال الجزائر واصدر كتابه الشهير « عارنا في الجزائر » يدين فيه القمع الفرنسي ويدافع عن الثورة الجزائرية ؟ فلمـاذا لا يقف سارتر مع الفلسطينيين ؟وهل يكون ولاؤه للاسرائيليين وخوفه من غضبهم اكبر من ولائه للفرنسييـن وخوفه منهم ؟

في هذه المرحلة ذهب الكاتب المصري المعروف لطفي الخولي الى باريس واجرى معه حوارا حول القضيـة الفلسطينية نشر في « الاهرام » وفي هذا الحـوار بدأ سارتر يعبر عن موقفه الجديـد (*) تم ما لبث النظام الاردني ان ضاق ذرعا بالثورة الفلسطينية فاقام لهامذابح سبتمبر (ايلول) الشهيرة عام ١٩٧٠ واخذ الفلسطينيون يتعرضون لخطر الابادة في الاردن بعد اسرائيل .. فلماذا لا يعقد سارتر محكمة للملك حسين على غرار المحكمة التي عقدها مـع الفيلسوف رسـل لمحاكمـة السفاح الامريكي جونسون قاتل الفيتناميين ؟

كان الذين يتصلون بسارتـر وقتها مجموعة مـن المناضلين العرب فلسطينيين وغير فلسطينيين على رأسهم الشهيد محمود الهمشري ممثل منظمة التحرير الفلسطينية في باريس الذي اغتالته المخابرات الاسرائيلية قبل ثلاث سنوات ، والشهيد الشاعر كمال ناصر الذي اغتالـه الاسرائيليون في بيروت مع رفاقه من قادة فتح .والمحامي اللبناني جبران مجدلاني وشاب تونسي يعيش في باريس هو محمد الشابي .

وخلال عدة لقاءات امتدت ساعات طويلة بين هؤلاء

(*) تعليق من « الآداب » : تصويبا للوقائع ، نـذكر ان رئيس تحرير هذه المجلة ، وربمـا سواه من الكتاب ، بادر الى ادانة موقف سارتر في تلك الفترة ، وبعثاليه ببرقية استنكـار نشرتهـا بعض الصحف العربية والفرنسيـة ..

(*) اعادت « الاداب » نشر هذا الحوار .

وبين سارتر اقتنع المفكر الفرنسي بعقد المحكمة التي اصبح رئيسها الوحيد بعد وفاة رسل لمحاكمة كل من النظام الاردني والنظام الاسرائيلي على قدم المساواة بتهمة ابادة الشعب الفلسطيني . وبالفعل كتب سارتر خطاب الاستدعاء الى أعضاء المحكمة من مفكري العالم . واقترح ان تعقد جلساتها في الجزائر او في بيروت اذ كان يرى ان الراي العام أوروبي ليس مستعدا لاحتضان محاكمة لاسرائيل ، وكان شرط سارتر الوحيد ان يقدم للمحاكمة في قفص اتهام واحد جولدا مائير والملك حسين . وهكذا بدأ هذا العمل الذي لم يتم للاسف بسبب برقية عاجلة وصلت الى محمود الهمشري من قادة المنظمة يطلبون فيها ضرورة الفصل بين المتهمين ويرفضون ان توضع حكومة الاردن وحكومة اسرائيل في قفص اتهام واحد . وهكذا فشل المشروع الذي لو تحقق لغير كثيرا من مواقف سارتر سواء من اسرائيل او من الفلسطينيين .

ونحن نذكر قصة هذا المشروع الذي لم يتحقق والذي ما زال بعض شهوده احياء لحسن الحظ اطال الله في اعمارهم ، وباستطاعتنا ان نعرف منهم كثيرا من تفصيلاته ـ نذكر قصة هذا المشروع لنستدل منها على ان سارتر قد عدل موقفه من القضية الفلسطينية الى حد كبير في حدود امكانياته ووضعه ومعطيات تاريخه .

يقول لي الصديق عزالدين قلق ممثل منظمة التحرير الفلسطينية في باريس : « لقد كنا على علم بأن سارتر قد قبل الدكتوراه الفخرية فاتصلنا به واتفقنا معه على نص الخطاب الذي سيلقيه في حفلة تسلمه لها في السفارة الاسرائيلية في باريس ، وقد التزم فعلا بالقاء هذا النص وان لم يذع التيلفزيون الفرنسي الا فقرات منه » .

***

أعود فأقول في النهاية ان سارتر لم يعدل عن صداقته الحميمة لاسرائيل ، لكنه يرفع درجة فوق درجة صوته في تأييد الشعب الفلسطيني . وفي هذا ـ كما اعتقد ـ كسب لنا . ربما كان لنا الحق في ان نستصغره بازاء ما يتعرض له وطننا وشعبنا على أيدي الصهيونيين . لكنه بالنسبة لسارتر خطوة واسعة في اتجاه الحق ، خطوة ربما كانت هي الغاية ، فسارتر الان اصبح عجوزا لا يستطيع ان يقدم اكثر مما قدم ولا يستطيع ان يفلت من مواقفه الثابتة اكثر مما افلت ، لكننا نستطيع ان نستثمر موقفه الاخير في الاوساط التي تحترم سارتر . ولن يكون هذا بادانة سارتر ومقاطعته !

باريس

بلند الحيدري

قصيدتان

اتقول : حزيــن انت . . !

حزينة نفسي حتى الموت لهذه المذبحه

كبوجـي

١ ـ من لبنان الى كبوجـي

يا اكبر من كل الحزن
اتقول : بان الاسوار السود
وان الابواب الموصدة امتصَّت
ظلك حتى من باحات السجـن
وبأنـك
رغم الاغـلال
ورغم الابواب المسدودة
لم يوهن قلبك الا حــزني
اتقول : بان عذابـي
يرهفك الآن . .
واني اصبحت كجلاديـك
واني صيرت لياليك طـوالا
معتمـة
كدروب الظـن
اتقول : بأنـك
لن تعرف موتك الا ساعة موتـي
وبأنك
لن تنكر صوتـك
الا حينة يضوى صوتي
وبانك بـي
وبأرضــي
وبشعبـي
وبحبـي
تبقى اكبر من كل المـوت
يا اكبر مــن كل المـوت
لبّيك
أجل . . . لبّيك
فها اني اقرب من كفيك . . اليك
فلا تحزن
سأجيئك في قطرات المزن
سأجيـك
القـا
فرحـا
وستبقى بعض سمائي في عيني . .
لا تحزن
يا الحامل بين ملاءته الدنيا
كل الدنيا
هيهات فمن مسّ باصبعه طرفا من ثوبك
يحيـا
هيهــات
فمثلك . . . ما مــات
ومثلي . . يبقى حيا

٢ ـ سبحانك بيـروت

سبحانكِ بيــروت
فنحــن بنيك الفقراء
ومن لم ننعم بلياليك البيض
ومن لم تحسس شفتانـا
عطيك
ولا خير اراضيك
ومن لم نتبلغ فيـكِ
بغير جلود ايادينا المعروقة كالجوع
المصفرّة كالــداء
سبحانكِ بيــروت
فنحن بنيك الفقراء
نموت من العطش المرّ
من الجوع انصامت كالسرّ
نمــوته
ومن زرقة عينيك تغور بعيدا
ولترويَ الفي بحــر
نمــوت
ومن خضرة كفيك
ومدّ يديـكِ
حقولا وغلالا ومنابع مــاء
والباغــي
والطاغــي
والناهش لحم بنيك . . المالىء دربك بالموت
وبالعار وباللهب
قدمت لهم راسك في صحن من ذهب
سبحانكِ بيــروت
يا موتا اكَبر من تابوت
يا موتا اكبر من ان يدفن او يعفن
تحت صليب من خشب
يا موتـا
لا يعرف كيف يموت

بغـداد

فؤاد كحل

اتولد بيروت وجها جميلا ؟

تقديم

كوني وشما بيروتيـا
يدخل في كل الاعصــاب
ثم يكحّل صدر العشق الصحراوي
ويزهــر في شفتيّ غناء حلـوا
كي لا نقتل حزنـا
أو نساقط فوق جميع العتبات المأسورة
قهـرا وعـذابا

★★★

انها رغبة الوطن الحلم
بيني وبينـك ،
تنمو .. وتنمـو
فتصبح بيروت من حولنا طفلة
هاجمتها البنـادق
تهرب بيروت مذعورة
من دوي القنابل والقصف
والنـار
كونـي رؤى للملامـح
يا زهرة اينعت في خلايـاي
يا رقصة الفرح الشاطيء ،
اسرعي بالتواجــد
ما بيننـا ازدهـر العشق
والرحلـة الموسمية
يا وطـن الامنيـات :
اجيء اليـك مـع السحب النورسيـة
كالرهــج ،
ها وجهنـا غارق بالدمـاء
بيننا عالـم مترع بالبكاء
ثم ها بيننا قصــة الالتحام العظيم
فكيف يلوّن صوتك اغنيتي
ويهاجم ثديك جوعي بكل عطاء ؟
عانقي رحلتـي ..
واصنعي فرحتي مثلمـا تورق النار
في وطـن البرد
او مثلمـا ـ في بلاد التعطش ـ
ينبثق الارتـواء ...
انت لـي وطـن
رسموه على جبهتي جثـة
ووجودا من القتل

قالـوا : خذ الريح ،
عانقتهـا ...
لم اجد بين طياتها غير موت الهواء
انت لـي ....
ـ هل سنفتح درب الفصول ؟
ـ لنفتح !
ـ من اين تشرق شمس البلاد الجديدة ؟
ـ من تربة الفقـراء
انت لـي وطـن
فاتلـوه بعينيّ
ـ من اي صوب يجيء النهار ؟
ـ من البسطاء الذين يموتون سحقا
ـ ومن اين تبتدىء الزرقة السمكية ؟
ـ من لون عين السمـاء
(ولون السماء تكدّر
لون البحار تكدر
لون الزمـان تكـدر
صرت مع الريح منهزمـا
وخلاياي ينزرع الصمت فيها)
اقول : لنفتح درب الفصول
انها الرغبة الوطنية بيني وبينك
تنمـو ...
فتولد بيروت وجها جميل الملامح
تولد بيروت امنيـة
لا يهاجمهـا القتل والموت
لا تستبيها البنادق
والمدفعيـة
لا تستبيهـا عيـون الثعابيـن
يا زهرة في جحيم العذابات
هذي البلاد تطوف عليهـا
سيـول النتانـة
مـن خارج السـور
هذي البلاد تهاجمهـا ...
يا بلاد العذابات والاغنيات الجريحة
ها انت لـي ...
والقيود القريبة منـي
العالم المتفضّض بالجوع والحزن
ايضـا يلاحقنـي ...

آه يا برعمـا لم يعانق نسيم الصباحات !
يا وطـن الامنيـات
هنا جسدي مثل جذع يشيخ به نسفه
فتموت الولادات مقهورة حول افرعه
اشرقي ها هنـا
مـرة واحـده
وليكن وطن الموت فينـا
ابتداء الربيـع المكـوّن
في لحظة تتولد فيها خلاياي
كالبـرق
والرعـد
والدفـق
في لحظة يمطر العشق فيها نجومـا
وزهـرا
ويطفو نجومـا وزهرا
على كل سفح ورابيـة
في المدائـن
يا وطن الجسد المتوجس
للالتحـام الجميـل
كيف ينبجس السلسبيل
كيف يا كتلة من شعـاع
يولد العشق في جسدي دفعة واحدة
موطني مشرق فيـك
او انت مشرقـة فيـه رهّاجـة
فليعانق دمـي سحرك المختفي
تحت هذا الدمـار المريـع
فمن لجة الجوع والألم البربري اجيئك
مزمـلا بالتوجس
والرؤية العربيـة
يـا ....
يا بلادي ينتحر القلب حين تكونين ابعد من جسدي
فلمـاذا أرى السحر فيك قتيـلا
وبيروت بيروت ما بيننـا
أو بنـا
امراة هاجمتهـا السكاكين
بيروت كأس من الدم يشربها المعلنون عليها الولاء..
ما الذي لا يضـاء ؟
انت أم رؤيتـي ،
ربمـا لا يضـاء !
جسد شوهته الرصاصات
او بسمة منك هاجمها الاقتناص
ها اقـول تعطشت
للعشـق
من أين نبدأ بالرحلة الموسميـة
عالمنا مترع بالرصاص ...

★ ★ ★

للبلاد الجميلة فيك اغني
لوجه صغير تدوس عليه السلاسل
للاغنيـات البريئـة
للجثث المتآكلـة الوجه
لشعب فيك يعاند كل الوجوه الغريبة
لامراة فقدت زوجهـا
لزهور تهاجمها حربـة
لعيون من الدمـع
للخوف فيك اغني .. اغني ...
ويزداد صوتي .. ويـزداد ..
أنشج حين أغني
ولكن صوتي يظل جميلا قويـا
واصرخ حينـا
وحينا اعانق كـل النوافذ
فلتشرقي في دمي دفعـة واحدة
مثلمـا يدفق النبـع ،
ها دمعتـي جامدة
فاستتري بهـا مرة واحدة
للوجود الذي أشرقت فيه بعض ملامحك
الصامـدة
سأغنـي واحلم
يا مدنـا واعـده
هل ستبقين ساحة رقص القنابل والمدفعية
والقنص
والخـوف ...
بيني وبينك تنمو البدايات
تبقيـن في الذاكرة
رغم موتـك
انشودة ماطـرة

★ ★ ★

كوني للاشياء حضورا
كي يتفجر فيك الوطن الطفل
وجـودا وعبـورا

دمشـق

جودت فخر الدين

الأرتحال الى الوطن

تهيأت للارتحـــال
حثيث هو السير تحت الدخـــان
سأمضي الى حيث يتسع الوقت للموت
علّمني البحر ان القرار يحدده الموج
خلف امتدادات جرحـــي
حثيث هو السير فوق الرمـــاد
فصول الصقيع احتوتني نهاياتها
سوف امضي ..
ولن انثني نحو هذي المدينة ثانية
غادرتني التواريخ والازمنه .
وانتشرت بكل الجهات
وغادرت ذاكرتـــي
فتوحدت الارض والامكنة
سوف لن انثني للبلاد الشريدة
علمني الحزن ان بلادي
يؤرخها الامتداد على خنجر النوم
(هذا اذن جسدي .. !)
طالعتني شتاءات هذي الفصول
بسحر الرذاذ
(يسرّح شعر الحقول)
تهيأت للارتحـــال
أيـــا وطنـــي
رحلتي باتجاهك تبدأ منـــك
اتيتك في موسم الاحتراق
وكنت (قبيل الرصاص) مسجى
على حافة الانكسار
ومتشحا بابتهاج المقاهي وعربدة الليل
تحترف الارتعاش الذليل
ايا وطنـــي
حين تنداح بين الرصاصة والارتعاشة
او ينضوي الليل في لحظة الخمر أو لحظة الموت
نبدأ بالاتصـــال
وابدأ بالارتحال الى سحر اجفانك الدافئة .
تلك اوردة الماء تمتد في رئة القفر
هل يعلم البحر اني رسمت دمي شاطئه ؟

أنت تعرفني ايها الوطن المتكبر
تعرف اني سليل الندى الطبقي
توارثني عطش الارض منذ ابتداء الخليقة
لكنني كنت اشرب دمعـــي
وتعرف اني تقيأت في آخر الليـــل
حين تناثرت بين الكؤوس
توزعني الخمر مزقني كالشتات
تطايرت فوق صحاري الجزيرة الهبني رملها
فتقيأت ثم تقيأت (حتى الثمالة !)
عاقرت في آخر الليل اوجاعي المستثيرة
حتى تناسل ذائبها الشفقي دمـــاء
قرات بها بضعة من حروف وبعض تواريخ
ثم تناسلت في وجعـــي ...
او تساقطت ...
لكنني كنت ابكـــي ...
... وتعرفني انت يا ايها الوطن المستجدّ
أنا أحد (الفقراء الى الله)
أو أحد الاغنيـــاء
تشوقت للارتحـــال
حثيث هو السير فوق الرمـــاد
ففي لحظـة الاشتعال
يجدد وجه المدينة أشياءه
يفقد الشيء اجزاءه
والعناصر تخلع اشكالهـــا
وعلى قمة الموت
بين اشتعال المدى وارتعاش الينابيع
يبدأ وجه المدينة تكوينه
تخرج الارض في حلة البحـــر
تترك ابعادهـــا
يأخذ الليـــل ابعاده
يرحل الموج نحو القرار الذي ينثني
كالسماء على صفحـــة الدّم
أحزم اشجاني المستباحة كالشمس
ألقي الى النار امتعتي
ثم ابدأ بالارتحـــال .

فريدة الشوباشي

رساله إلى انشتاين

ألقت نظرة على قطعة الصابون الموضوعة فوق الحوض .. ترددت في رفعها .. تطلعت الى المرآة .. زادت الشعيرات البيضاء في رأسها .. واحدة .. اثنتان .. ثلاث .. عشر .. عشرون .. الف .. اتى اليها صوت الآلة الحاسبة التي تعمل عليها بسرعة هائلة.. جاء صوتا .. ثم طنينا .. ثم هديرا .. كل التروس تعمل معا .. وحوش صغيرة ضارية .. لا يمنعها صغر حجمها من الفتك بقوة هائلة .. صرخت الوحوش « عدد الشعر يقدر بالملايين » .. فلتحص الشعيرات البيضاء نسبة الى شعرها الاسود .. كفى .. لا تريد أن تعرف عدد شعيراتها البيضاء .. ولا عدد السنوات التي حملتها الى رأسها .. أمسكت بقطعة الصابون تخرس بها صوت الماكينة الحاسبة .. أدارت قطعة الصابون بين كفيها تصنع بها رغاوي .. فقاعات كبيرة .. ومتوسطة .. وصغيرة الحجم . الفقاعات الصغيرة اكثر عددا .. عشرة .. مائة .. مليون .. عاد الطنين يصم أذنيها .. مدت يديها سريعا تحت خيط الماء المنساب .. قطع تيار الكهرباء عن الماكينة لحظات .. هدأت الوحوش الضارية..

أو .. جبنت .. عادت تملأ كفيها بالصابون وهي مغمضة العينين ، حتى لا تعود الى عد الفقاعات .. أخذت تملس على وجهها وعيناها لا تزالان مغمضتين .. لحم بجنيه .. طماطم بعشرة قروش .. بطاطس بستة . علا صوت الماكينة .. دمدم في خلايا مخها وهي تلهث وراءه .. زبد بعشرة قروش .. بصل بسبعة قروش .. ثوم ب ... فتحت عينيها والصابون يملأهما .. سالت دموعها بغزارة .. توقف صوت الماكينة الحاسبة فجأة .. تدفقت دموعها وكأنها تأتي من نبع بحر لا قرار له .. اغرقت وجهها بالماء الذي اختلط بقطرات دموعها الساخنة .. مدت يدها تسحب منشفة - في حقيبة ابنتها ورقة تطالبها بدفع جنيه .. رسم اشتراك في رحلة مدرسية .. ارتعدت وصوت أمها يأتيها حاسما ، مخترقا سنوات وسنوات مضت : « من أين لي عشرون قرشا رسم اشتراك الرحلة ؟ » .. ابتسمت في سخرية .. كانت الرحلة ثلاثة أيام .. رحلة ابنتها يوم واحد لزيارة الاهرام والآثار .. لم يتصور صانعو حضارتنا القديمة ان بضاعتهم ستدر الملايين عبر القرون .. قد يكفي ما تحقق دخله من زيارة الآثار لبناء حضارة جديدة .. عشرة ملايين .. مليون مليون .. بدأت الحاسبة تعوي عواء مفزعا .. فهذه اول مرة تسألها في ملايين الملايين .. اندفعت مهرولة تحتمي من هول الرعد بالارتماء على مقعد قديم .. تزلزلت في جلستها واخذت أنفاسها تتلاحق .. هدأ الزلزال والرعد .. أصبح صوتهما يأتي من بعيد .. لو أصيبت بالصمم ! خفت حدة صوت الماكينة لكنه لا يزال مسموعا.. تطلعت الى جدران الغرفة الصماء .. تشير ساعة الحائط الى لحظة المغادرة للعمل .. لم تقو على النهوض .. مقدمة برامج تيلفزيونية قدمت منذ أيام نموذجا لميزانية تيلفزيونية .. أسرة من أربعة أشخاص دخلها عشرون جنيها .. قهقهت بصوت عال ووجهها لا يزال عابسا .. زوجها وهي دخلهما سبعون جنيها .. ايجار عشرة جنيهات .. كهرباء ثلاثة .. تليفون اربعة .. انبوبة الغاز جنيه .. بواب نصف جنيه .. هجمت تروس الماكينة لتفتك بأذنيها أولا .. رفعت يديها تحميهما في ذعر هستيري .. تطايرت الارقام من الماكينة في كل اتجاه .. أخذت تصيب كل قطعة من حواسها .. الايجار عشرة جنيهات .. الكهرباء خمسون .. تليفون مئة .. مقدمة التليفزيون تصدر حفيفا أشد كرها من صوت الارقام واشد ايلاما .. وتصوب اليها نظرة جامدة ، خالية من اي تعبير .. الكهرباء مليون جنيه .. الايجار خمسة قروش .. جنت الارقام فجأة .. الشعيرات البيضاء مليون .. فقاعات الصابون مليار .. خرجت الارقام تتراشق في جسدها المنهك .. خرجت كالنمل المفترس تقرض خلاياها .. تنخر فيها بشدة .. تأكل حتى نخاعها ..

باريس في أول يونيو ١٩٧٦

محمد حسين الاعرجي

الحزن في [تنهدات الامير العربي] منطلقا

« تنهدات الامير العربي » هو الديوان الثـالث للشاعر شفيق الكمالي ، بعد ديوانيه : « رحيل الامطار » و « هموم مروان وحبيبته الفارعة » . ولأحد أن يلاحظ على هـذه الدواوين ، بل الديوانين الاخيرين – على وجه خاص – أن نبرة حزن شفاف تطغى على قصائدهما . وله أن يزيد في ملاحظته انهما – والشاعر ملتزم – يخلوان حتى مـن قصيدة واحدة تتغنى بانتصارات العراق بعد ثورة السابع عشر من تموز التقدمية . ويمكن أن يعلل ذلك بأن الاستاذ الكمالي – وقد شهد جزءا من هذه الانتصارات مسؤولا مسهما في تحقيقها – لا يريد أن يتغنى بها فيحمل تغنيه محمل التبجح ... ولآخر أن يرى غير هـذا التعليل .. ولكني أزعم ان قولا واحدا يبقى صحيحا – الى حد ما – مع كل الاقوال ، ذلك هو : ان الاستاذ الكمالي – فيما يبدو – مطبـوع على الحزن ، مجبول على تمجيد الالم لسبب وآخر ، مما يقربـه من الرومانسية ، ولكنها الرومانسية الثورية التي لا تعشق الالم من حيث هو قيمة مطلقة تنقي النفس ، وانما من حيث هو معبر للفرح الآتي .

هذه الملاحظة تقودنا الى عالم « تنهدات الامير العربـي » ، وهو يحتوي على أربع قصائد طويلة هي على التوالي : تنهدات الامير العربي ، سيدة الاحزان ، عراقية كانت الريح ، ثم ، تعود الهوادج ؟ لا .

ولا بد أن يلفت طول القصائد نظر القارىء ، فيسأل عن مبررات القصيدة الطويلة ومقوماتها ، ولعل أول ما يتبادر الى الذهن أن توفر القصيدة الطويلة على بناء درامي متماسك لا يحذف منه بيت أو مقطع دون أن يخل ذلك بالقصيدة . فهل فعلت قصائد الاستاذ الكمالي شيئا من هذا ؟ ان لنبرة الحزن التي ألمحنا اليها قبل قليل علاقـه بهـذا السـؤال .

فالشاعر – وهو يعلن هموم أمته ، ويستشرف مستقبلها من خلال ماضيها المجيد – يترك لقصيدته أن تستذكر هذه الهموم دونما هندسة واضحة تتحكم في البناء ، بل ان القصيدة تتنداح في رقعة من الهموم ، حتى اذا اكتملت حلقة ، جاءت حلقة أخرى بعدها ، وهكذا ... الا ان الذي يجمع بين هذه الحلقات هو تشابك هذه الهموم وتلاحمها ، إذ هي من منبع واحد . ولكننا – رغم ذلك – لا نستطيع الادعاء بأن حـذف أي شيء من هذه القصيدة أو تلك يخل ببنائها . ومن جملة أسبـاب ذلك ان الشاعر يأخذه الشعر – كما يبدو – في بعض الاحيان فينساق معه دون النظر الى هدفه الاساسي من القصيدة . ولنا أن نمثل عـلى ذلك بقصيدته « سيدة الاحزان » هذه السيـدة التي هي – في وجه من وجوهها – رمز الامة ، فنرى انسياقه مع الشعر بعيدا عن الرمز ، في قوله :

« أمد يدي
يتلوى
تنتفض الحلمة
أسمع همسا
يتعالى
تعكسه الجدران ... » (ص ٨٤) .

أقول : انسياقه مع الشعر ، لان مثل هذه التفصيـلات يمكن أن ترد حين تكون المرأة حقيقة لا رمزا . فانتفاض حلمـه نهد هذه المرأة لا يضيف الى الرمز شيئا ، ولكنه قد يعني استذكار حالة شعورية ذات قيمة حين يكون هدف الشاعر استرجاع ذكرياته مع هذه المعشوقـة لا الرمز . ومن هذه الزاوية – أعني الانسياق مع الشعر – يمكـن ان نفهم شيوع التلميحات والصور الجنسية في بعض القصائد حين يكون الحديث عن المرأة الرمز .

ومما جعل قصيدة الاستاذ الكمالي تتخذ هذا المنحى في البنـاء الذي ألمحنا اليه ، هو اهتمامه – حين يتقرى مواضع الحزن – بتهيئة مناخ عربي يستمد أصوله من التراث . ووظيفة هذا المناخ هي وظيفـة المؤثرات الصوتية التي يستعملها السينمائي . ومن هنا نستطيع أن نفهم تركيب اسمي موقعتين في اسم واحد ، كقوله :

« ... وفي مرج بلاط الشهداء
اختنقت روحي » (ص ٤٢)

فـ « المرج » يصرف الذهن الى معركة « مرج راهط » التـي خاضها مروان بن محمد ، على حين ينصرف الذهن لدى ذكر « بلاط الشهداء » الى الاندلس . مما يدلنا دلالة واضحـة على ان الشاعر لم يكن يقصد – في ذكر المعركتين – الى أن يستخلص شيئا تاريخيـا معينا ، قدر ما يهمه مناخ الهزيمة الذي يشيعه ذكر هذه الموقعة منهما أو تلك . وعلى هذا ، ينبغي ألا يؤخذ ذكر : « معشر شيبان ، وأرض السمينة ، وبني عامر ، وبصرى ، ورمال النفـوذ ، والبصرة ، والكوفة » وعشرات الاسماء غيرها ، أقول : ينبغي الا تؤخذ هذه الاسماء باطارها التاريخي المحدد ، لان الشاعر لم يقصد – في طائفـة كبيرة منها – الى اكثر من اثارة ما يمكن اثارته من موحياتها .

وقد ترتب على هذا – اعني انسياب القصيـدة في حلقات ، وتهيئة المناخ العربي لها – أن كانت هناك صور – قد تبدو منفصلة – تنتظم القصيدة ، ووظيفة هذه الصور هي – أيضا – الايحاء بجـو الازمة وليس بالازمة ذاتها ، كقوله :

« انحسر الثوب
فغامت غابات الهند
بعطر الرند
على شطآن البحر العربي
تحج عرائس بحر الروم
يموت الليل ، وتبقى الشمس أتونا
يا ثلج القطبين ارحل ... » (ص ٨)

فصورة انحسار الثوب وعلاقته بعطر الرند وغابات الهند تكاد تكون منفصلة ـ ان لم تكن فعلا ـ عن حج عرائس بحر الروم على شطآن البحر العربي ، وهذه منفصلة عن موت الليل وبقاء الشمس ، ولكن هذه الصور ـ على ما يبدو بينها من انفصال ـ توحي بجو واحد هو مزيج من العشق ، والامل ، والحزن .

واذ نقرر هذا عن تعامله مع الاسماء والاشارات التاريخية في التراث العربي وأثرهما في بناء القصيدة ، لنا أن نقرر أن تعامله مع التراث الشعري كان سهلا آخر يجعل هذا البيت الذي يشير اليه أو ذاك يتأرجح بين معنيين متناقضين هما : معناه الاصلي ، والمعنى الآخر المعاصر الذي يعطيه الشاعر اليه ، عن طريق الحذف والاضافة كقوله في قصيدة « عراقية كانت الريح » :

« بكى صاحبي
غير اني ...
لويت عنان جوادي ... » (ص ١٠٨)

فجملة « بكى صاحبي » تومىء الى قوله امرىء القيس ، وقصة امرىء القيس ولحاقه بقيصر ، ونتيجة هذا اللحاق معروفة ، ولكن الاستاذ الكمالي حين بكى صاحبه ـ ويريد به هنا دمشق ـ لوى عنان جواده وتركه . وهكذا يكون استثمار البيت الجاهلي يومىء الى معنيين متناقضين ، أو حادثتين لم تنتهيا بالنتيجة نفسها. وعلى هذا يمكننا أن نقول : ان الشاعر وظف التراث الشعري توظيفا مغايرا للاحداث التاريخية ، والمواضع ، والاسماء .

ويجدر بنا هنا أن نؤكد ان التراث العربي حين يوظفه الشاعر يخرج عن كونه ماضيا الى كونه حاضرا ماثلا في ذهنه ، حتى لكأنه واقع يومي ، مما هيأ له أن يخرج عن نبرة الوعظ حين يستذكر ماضي الامة ، بحيث استحالت بعض معطيات هذا الماضي الى رمز لمجد الامة، كما فعل في تعامله مع غرناطة في قوله :

« غرناطة تبحث عن وجه
غادرها منذ قرون
وأنا أبحث عنها
أسال عنها
يتضور في عيني
عطش
جوع
ماذا تطلب مني سوداء العينين ؟ » (ص ٦٤)

اما أزمة الشاعر فهي أزمة العربي الذي يرى تمزق امته ونكوصها عن النضال في سبيل تحقيق اهدافها ، على ان هذه الازمة تتفرع في القصيدة الواحدة الى هموم تتشابك تشابكا لا يتيح للشاعر ـ لو شاء ـ ان يأخذ كلا منهما على حدة ، لانه لا يريد تعدادها ، فهو ملتحم بها ، همه أن يبث آثارها في نفسه للاخرين .

واذا شئنا أن نقف عند أزمة كل قصيدة من القصائد رأينا ان هناك خيطا يوحد بين هذه القصائد جميعا رغم احتفاظ كل قصيدة بنبرتها الخاصة . ففي « تنهدات الامير العربي » صوتان رئيسيان هما : صوت العراف الذي يتنبأ بالحدث ، وصوت الشاعر الذي ينقل عنه هذه النبوءة فيفصلها ، وهي نبوءة متفائلة ـ في الغالب ـ بمستقبل الامة . بل أن صوت العراف مما يعيد التوازن الى صوت الشاعر الموزع بين الهم ، والحنين ، والغضب :

« أبكي
أستسلم للهم
تحاصرني لعنات الناس
فما بين الزيف الغامر
والصدق المذبوح
تعيش الذكرى سعلاة
يتشطر الانسان
الى قلب ينزف حزنا
وفم يرغي
والعاقل من يطلب عند العرافين خلاصا » (ص ٢٤)

واذ يكون العراف خلاصا يحق لنا أن نقول : ان العراف يمكن أن يفهم منه (١) انه رمز للانسان السياسي الذي من شأنه منح الرؤية الواضحة للاشياء في عصر تضطرب فيه المقاييس ، وتضيع الحقيقة ضياعا يمكن ان يبعث ـ بدون عراف ـ على اليأس .

اما « سيدة الاحزان » فهي تمزق الشاعر في انتظار خلاص الامة ، فالقصيدة تبدأ وهي تحمل نقيضين يظلان ينظمانها هما : الظلمة والضوء ، الحزن والفرح ، الخيبة والامل :

« سنسلم لليل عناقيد النور
فتبدو حبات الفرح المدحور
على شفتيك عويلا
ينكسر أضواء خافتة عند حفافي عينيك
فينمو الحزن
كما تنمو أشجار الصفصاف على جرف الماء
أرى خلف الهرب قناديلا
تومض في وهن ... » (ص ٧٤)

ويظل الشاعر يتابع هذين النقيضين بحس الثوري المؤمن بانتصار قضيته :

« أرى عروة رمحا
يفقأ عين الوحش
ورجع صهيل الخيل حبالا
تلتف على عنق التنين الجاثم عند عيون الماء
فيجري الماء ... » (ص ٨٩)

ويتم ما يظنه الشاعر بداية الخلاص في « عراقية كانت الريح » التي تتحدث عن حرب تشرين المجيدة ، ولكن هذه البداية تجهض في بدايتها غدرا :

« ولكن ريح السموم
استباحت قرانا
فلا فارس يشرع الرمح
عند الخيام
ولا خالد كان يوم الوغى

---

(١) يختلف الاستاذ الكمالي معي في فهم شخصية العراف ، فهو يقصد منه شخصية حقيقية وليس رمزا ، ولكني لم افهم هذا من القصيدة، ولا ادري انكان القصور بي او بها.

نحن في الاشهر الحرم
لكنهم قتلوا مصعبا
فافترقنا ... » (ص ١١٦)

وخيبة أمل كهذه لا يمكن أن تمر دون أن تخلف جرحا عميقا ، ويأسا مريرا ، وهذا ما حدث في قصيدة « تعود الهوادج ؟ لا » :

« وانتهت لعبة اتعبتنا
غسلت فؤادي
بماء القطيعة
بيتي على الدرب
قلب نما فوق جدرانه اليأس » (ص ١٣٦)

ولكن هذا اليأس وليد لحظة ألم ، وخيبة أمل ، ولم يكن موقفا، فامل الشاعر ما يزال قويا في أن تختفي الطحالب عن وجه دمشق ، فيبرز ناصعا :

« وشيئا
فشيئا تغيبين
أمحولة
افتح صدري
لعل الرياح النفية تسري
رخاء على صفحة الماء
حيث الطحالب أخفت
بريق المياه التي تشتهينا » (ص ١٤٠)

ولعل هذه الازمة المفتوحة ـ اذا جاز التعبير ـ هي التي تفسر لنا انفتاح نهايات القصائد بحيث يفاجأ القارىء ـ في بعض الاحيان ـ بأن القصيدة التي يغرق في عالمها قد انتهت .

وبعد ، فلنا أن نقول : ان الاستاذ الكمالي وجد في « تنهدات الامير العربي » صوته الذي يمكن تمييزه من الآخرين ، ونظرة واحدة الى « رحيل الامطار » و « هموم مروان وحبيبته الفارعة » على ما بينهما من فارق في المستوى الفني ، أقول : نظرة واحدة الى ذينك الديوانين مشفوعة بأخرى الى هذا الديوان الاخير تشهد لنا على ما نزعم .

بغداد

حسين جليل

وردة الصمت

١ ـ الليل :

على قمة الليل
يقترب العاشق من جرحه المتألق ،
فوق ذرى الصمت
فيما تورق الصخرة ـ السر ،
وفي لحظة البدء ،
يتحد الماء والنار ،
الخوف والرغبة النافره .
وبين الينابيع والبحر ،
تجري رياح المسافة ،
تجتاز « أسوار بابل » ،
فيما يظل الدم المتوهج في القلب ،
ينتظر الغيمة العابره .

٢ ـ الوردة :

العاشق في ليل الحزن الاموي .
ما زالت عيناه تسأل :
عن وردة حب ... هجرت بستان براءتها .
يقول جريح :
ـ الوردة ما زالت تنزف بقياها .
يقول أسير :
ـ الوردة ما زالت صامتة تترنح بين الاسرى .
يقول قتيل :
ـ الوردة في قلبك ... يا من تسأل عنها .

٣ ـ الجمرة :

« الى سعدي يوسف »
لو كانت في كفي
سقطت ،
فلقد جاء « زمان »
تؤكل فيه الاكباد
وتقطع أعناق الصديقين
بسيف من صنع المقتولين
فيما تتشابك أشجار اللعنة في الدرب
وعلى غسق الماء ،
تتألق عينا ذئب .
لو كانت في كفي ،
سقطت
لكن الجمرة في القلب .

بغداد

ملف خاص

المؤتمر الفكري حول الصهيونية

بدعوة من جامعة بغداد . عقد في العاصمة العراقية من ٨ الى ١٢ تشرين الثاني الماضي « المؤتمر الفكري حول الصهيونية » الذي شارك فيه عدد كبير من المفكرين العرب والاجانب بابحاث ودراسات ومناقشات بلغت مستوى رفيعا من الجدية والمسؤولية .

من كلمة رئيس الجمهورية

وقد افتتح السيد رئيس الجمهورية العراقية، المؤتمر بكلمة تحدث فيها عن اهمية هذه الندوة العالمية التي تعقد بمناسبة انقضاء عام على قرار الامم المتحدة بادانة الصهيونية كحركة عنصرية .

وقد جاء في كلمته :

« ان تاريخ العرب مليء بالدروس والعبر . فقد شهد الوطن العربي موجات من الغزوات ، كانت جميعها قائمة على العنصرية ، الدينية او القومية ، أو كلاهما ، فضلا عن الموجة الاستعمارية التقليدية . الا ان الفشل كان مصيرها جميعا ، لسبب واحد . وهو ان الامة العربية كانت تشعر ، وهي تناضل ضد تلك الغزوات ، بمسئولية تاريخية انسانية هي جزء من رسالتها الحضارية . فلم تقابل العنصرية بعنصرية مماثلة ولم تحارب الشر بادواته، بل انتصرت على العنصرية بالصمود الذي حافظت به على مصيرها ، وبالقضاء على نقاط الضعف الداخلية التي كان يستغلها العدو ، وبتجديد ذاتها من خلال القيم الثورية التقدمية التي التزمتها خلال كفاحها ضد عنصرية الغزاة .

« ونحن في هذا القطر العربي المناضل . ندرك بوعي اهمية الفكر في الثورات ، واهمية الالتزام بالقيم الانسانية كجزء لا يتجزأ من عمل الفكر المناضل . لذلك عمدنا منذ مطلع ثورتنا الى اجتثاث كل رواسب المرحلة الاستعمارية التي كانت تسمح بانتعاش العنصريات . فحققنا على ارض هذا الوطن السلام والوئام بين ابناء الشعب من العرب والاكراد والاقليات كافة . لقد طبقنا سياستنا هذه من خلال افق حضاري ونظرة الى المستقبل تحقق ارضية مشتركة للنضال المشترك بين هذه التكوينات البشرية ومن اجل انقاذ العراق من ايدي العابثين العنصريين .

« كما اتخذ مجلس قيادة الثورة قرارا بدعوة اليهود العراقيين الذين هجروا العراق تحت ضغط الحركة الصهيونية ومكائدها والظروف الشاذة التي وضعت فيها المنطقة منذ اصبح للصهيونية موطيء قدم في فلسطين .

« وكان هذا القرار تعبيرا عن الدوافع الانسانية والحضارية التي تشدنا الى تاريخ امتنا ، والتي لا تكتفي بالتميز بين الصهيونية واليهودية ، بل تعتبر اليهود العرب وجميع اليهود غير الملتزمين بالايديولوجية الصهيونية ، هم ضحية الصهيونية » .

واضاف الرئيس العراقي يقول :

« وما نشاهده اليوم في لبنان من انعاش مصطنع للعنصريات الطائفيه والشعوبية الحاقدة على العروبة ، ومن محاولات دائبة لزرع العنصرية والفتنة والانقسام وتعزيز التجزئة في الوطن العربي، ليس الاوسيلة لتسوية اوضاع المنطقة بشكل يبرر الوجود العنصري في فلسطين على اساس تعميم العنصرية وجعلها قاعدة الحياة وصيغة العلاقة بين البشر ، اي بشكل يناقض طبيعة الحياة والتطور نحو الوحدة والحريه والاشتراكية في هذه . ويهدم المعنى الحضاري للنهضة العربية المعاصرة » .

تعليق د . سهيل ادريس

وفي المناقشات ، علق الدكتور سهيل ادريس على المقطع الذي تحدث فيه السيد رئيس الجمهورية العراقية عن احداث لبنان . فقال ان حكمه تحليل صائب لاهم جذور المعركة في لبنان . واضاف يقول :

« ان النضال المشترك والقتال الذي اجبرت القوى الوطنية اللبنانية والمقاومة الفلسطينية على خوضه ، انما كان يقصد في تخطيط من ارادوه الى اقامة عنصرية جديدة تكرس واقع التمييز والامتيازات القائمة في لبنان منذ استقلاله . وهذه العنصرية كانت ولا تزال تتلبس في اذهان القوى الانعزالية في لبنان نوعا من التعالي

والتشامخ يرفض أن يكون لبنان ذا حضارة عربية ويرفض ان يكون الفريق الاخر في لبنان مساويا في الحقـــوق لحملة الايديولوجيــة الانعزاليــة . من اجل هذا ، قــام منذ عشرات السنين ذلك التمييز الذي قسم اللبنانييــن الى فرقاء ، فريق منهم مواطنون من الدرجــة الاولــى ، وفريق اخر مواطنون من الدرجة الثانيــة . وربمــا كان ثمة فريق من الدرجة الثالثة ..

وحين نشاهد اليوم فريقا من اللبنانيين ، هــو بالتحديد فريق مواطني الدرجة الاولى علــى اختــلاف طوائفهم ، يتعاونون اوثق التعاون في جنوب لبنان مــع قوات الاسرائيلية ، فيتدربون على ايديهم ويتسلحــون بسلاحهم ويمارســون كــل اساليبهم في القتل والتعذيب والوحشية ، حيــن نشاهدهم اليوم يفعلون ذلك ، نفهم جيدا ان تتعاون العنصرية الصهيونيــة التي جعلت من الاسرائيلي مواطنا من الدرجة الاولى ، ومن العربي فــي فلسطين المحتلة مواطنا من الدرجة الثانية ـ نفهم جيــدا ان تتعاون هذهالعنصرية الصهيونية مع العنصريةالانعزالية في لبنــان !

ولذلك ، فان المعركة المشتركة التي تخوضها الثورة الفلسطينية والقوى الوطنية اللبنانية انما هي بالدرجــة الاولى معركة ضد العنصرية الصهيونية المتحالفــة مــع العنصريــة الانعزاليــة ..

اجل ايها الاصدقاء ، اعضاء المؤتمر الفكري حــول الصهيونية .. ان وطننا الصغير لبنان يعاني هو ايضــا من العنصرية الصهيونيه .. بل ان اسرائيل العنصرية هي اصبع الفتنه التي دمرته ومزقته . ومن الخداع والتضليل ان يستشهد حكام اسرائيل بما يجري في لبنان ليرفضوا او يــردوا فكرة التعايش بيــن اليهود والعرب في دولــة ديموقراطيــه علمــانية .. فالحقيقة انهم كانوا يطمحون دائمــا ، ومنذ زمن بعيد ، الى اشعال الفتنة بين المواطنين اللبنانيين . والى اذكاء روح العنصرية والتمييز لدى فريق منهم ليبرروا رفضهم للتعايش .

وأود هنا ان اضيف ملاحظة على ما ورد في كــلام السناتور الاميركي جيمس ابو رزق . فبالرغم من ايماننا بانه على حق في ضعف الدعاية العربية ، فاننا لا نقره على عجــزه في الرد على من يقول ان العربي يقتل العربي في لبنان . فالواقع ان الفريق الذي يقاتــل الفلسطينيين واللبنانيين العرب ليس عربيا ، وهو يرفض ان يــكون عربيــا . انه في حقيقــة الامر يتعامل مع اسرائيل ،ومن الممكــن بالتالي ان يكون عميلا اسرائيليا .. واخرالاحداث في جنوب لبنان ربمــا كانت شاهدا دامغــا على ذلك !

★★★

هذا ، ويسر « الآداب » ان تنشر في صفحاتهــا التاليــة قسما من الابحاث التي قدمت لهذه الندوة .

فنسان مونتاي

شواهد على عنصرية اسرائيل

في العاشر من نوفمبر ١٩٧٥ تبنت الجمعية العمومية للامم المتحدة قرارا يدين الصهيونية ويعتبرها شكلا من اشكال العنصرية والتمييز العنصري . وكلنا يذكر ان الولايات المتحدة الامريكية عارضت القرار الذي وصفه مندوبها في الامم المتحده بالقرار « المشين » ،وهددت امريكا بقطع مساعداتها المالية عن هذه المنظمةالدوليه :

واني لاشعر بالاسف الشديد ان تكون فرنسا (الرسميه) قد وقفت الى جانب الولايات المتحدة والاورغواي وساحل العاج ضد ذلك القرار التاريخي الذي وصفه المندوب الفرنسي تحديدا ب « المظاهر الكريهة » لان ذلك القرار ، على حد قوله ، كان موجها ضد اناس طالما قاسوا من ابغض عنصرية . الا وهي النازيه ،وكانوا من اول ضحاياها . وكلنا يذكر ان من بين الاثنين والثلاثين دوله التي قاطعت التصويت نظام « بينوشيه » في التشيلي ولا يخفى على احد عمق علاقة ذاك الفاشي بقضيه حقوق الانسان العادلة ومدى التزامه بها .

لقد كتبت صحيفة « لوموند » الفرنسية في الثاني عشر من نوفمبر ٧٥ :«كان شرفا لفرنسا ان تصوت ضد ذلك القرار المخزي والمؤسف معا » .

طبيعي ان يكرروا كذبتهم المعتادة ، وطبيعي ان ارفض انا ايضا اكاذيبهم تلك . انني كفرنسي حر ومحارب ضد النازية والاحتلال النازي لوطنه وقاسى السجن تحت الاحتلال عامي ٤١ و٤٠ ، وكمراقب للامم المتحدة في القدس عام ١٩٤٨ في فترة المذابح الصهيونية لاهالي « دير ياسين » بمجموعهم وما قبل الجريمة الصهيونية ، التي نفذت بدم بارد ، واعني اغتيال الوسيط الدولي الاعزل من السلاح « الكونت برنادوت » ، والذي اشهد جازما بانه لم ينحز الى الجانب العربي ،بل حاول ان يكون منصفا ومنصفا فقط .

ليس هناك في الواقع من ينكر حقيقة ان اسرائيل دولة عنصرية ، ودليل على ذلك « قانون العودة » ذلك القانون الذي يعطي الحق لليهود بالعودة الى ما يسمى ب « ارض الميعاد » ، مع حرمان الشعب الفلسطيني من ممارسة هذا الحق والعودة الى ارضه وبيوته . ان اسرائيل كيان ديني زائف بسبب ذلك القانون«الموسوي». والكل يعرف بان اسرائيل ما هي الا دولة يهودية بحيث لا مجال للعيش ضمن قوانينها لغير اليهودي كمواطن عادي له كامل حقوق المواطنية .

انني لست الوحيد الذي يقول هذا الكلام . انني اعرف اسرائيليا يقول نفس ما اقول ويكتبه . انه«اسرائيل شاحاك » الاستاذ في الجامعة العبرية في القدس . لقد ملك شاحاك الشجاعة الكافية لان ينشر كتابا بعنوان « العنصرية ودولة اسرائيل » وضع فيه اصبعه على الخصائص الثلاث المميزة لما يسمى بدولة اسرائيل ، الا وهي :

١ ـ العنصرية .
٢ ـ الارهاب .
٣ ـ النازية .

لقد صرح شاحاك ،رئيس الجمعية الاسرائيليةللدفاع عن حقوق الانسان ، بهذه الادانة المثلثة الصريحة امامي في مؤتمر صحفي عقده في باريس ، حزيران ٧٥ . وقد نشرت « لوموند » تلك الادانة بدون تعليق .

هنا اطرح سؤالا : لم قصر صفة مجرمي الحرب على النازيين الالمان ؟ ان هذه الصفة يجب ان تمتد لتشمل الجلاد الامريكي في فيتنام وكمبوديا ولتشمل القتلة السفاكين امثال « مناحيم بيغن » .

لقد كتبت « فيليتسيا لانغر » المحامية اليهودية ،

كتابا شجاعا بالعبرية (ترجم الى الفرنسية) ، وهو بعنوان « كمحامية اسرائيلية .. اني اشهد » ، وفيه الكثير الكثير عن الجرائم الوحشية للصهيونية .

واسرائيل لا تجرؤ على اسكات صوت شاحاك . انهم يقولون بعدم ضرورة اسكاته لان ذلك سيدفعه الى الجنون . ولكن اذا كان ذلك صحيحا ، فمتى نسمع بان البروفسور شاحاك هو نزيل احد المصحات العقلية ؟

انني واحد من كثيرين قاتلوا لتحرير فرنسا وناضلوا من اجل حرية المستعمرات الفرنسية سابقا . اننا مقاتلي التحرير لا نقبل ان تنسى حكومتنا او ان تغض الطرف عن استقلالنا الوطني ، في عصر يقظـة الامبريالية الامريكية .

طبيعي ان يعرف الجميع بان هناك تفرقة عنصرية داخل الدولة اليهودية ضد الجماعات الدينية الاخرى من مسلمين ومسيحيين عرب ، ولكن هناك تفرقة عنصريـة اشـد داخل تلك الدوله ، وهي موجهـة ضد (يهـود اليهود) واعني من يعتبرون في اسرائيل «ما دون الكلاب» . من هم ما « دون الكلاب » اولئك ؟ على سبيل المثال هناك اغلبيـة ما بيـن ٦٠ و ٧٠ بالمئة من مجموع اليهود فـي فلسطين من اليهود الشرقيين « السفارديم » واليهـود العرب . وهؤلاء يحدق بهم من اعلى ، والذين يمارسون هذه الفوقية والتفرقة فهم « الاشكنازي » اي اليهـود الغربيـون . ويعتبر الاشكنازي « السفارديم » اناسا أميين غير متحضرين ومزواجين قـذرين ، ولذا يجب حرمانهم من الكثير من امتيازات الاشكنازي واحتقارهم . هذا جانب ، اما الجانب الاخر فالواقع يرينا بان يهـود الاتحاد السوفييتي الذين بكوا او تباكوا لسنوات لاجـل السماح لهم بالهجرة الى اسرائيل ، يهجـرون الان ذاك « البلد الذهبي » الى اوروبا وامريكا وحتى الى الاتحاد السوفييتي ، لسبب بسيط هو انه ليس بمقدورهم التكيف مع مـا يسمى بـ « ارض الميعاد » وقوانين دولة اسرائيل العنصريـة . لقد تزايد لديهم الاحساس وهم في اسرائيل بانهم اجسام غريبة ، عديمة الانسجام ضمـن حلقـة عنصرية مكتملة ، ان على صعيد القوانيـن او الممارسة العملية . وباختصار تزايد احساسهم بانهم اشياء فـي غير محلهـا .

واسأل هنا ماذا عن يهود امريكا السود ، او يهـود اثيوبيا « الفلاشـا » ؟

كل الدلائل تشير الى انهم ليس من المرحب بهم ، بل ان هناك شواهد على عدم قبولهم في الدولة .

الا تفوح من كل هذا نكهة العنصرية ؟ ولن نقف طويلا امام العلاقات الخاصة « جدا » والتي تربط اسرائيـل بالنظام العنصري في جنوب افريقيا .

فيلم كفر قاسم للمخرج « برهان علوية » يصـوّر المذبحـة التي ارتكبتهـا احـدى وحـدات الجيش الاسرائيلي بتاريخ ٢٩ اكتوبر ١٩٥٦ ، ضد السكان الابرياء للقريـة الفلسطينية « كفر قاسم » .

لقد كتب احد الصحفيين الفرنسيين في صحيفه « لوموند » بتاريخ ٢٥ ايار ١٩٧٥ « هل يعقل ان يتكلم اسرائيلي بمثل هذا الحقد على العرب ؟ وهل يصدق ان يرتكب الذين بقوا احياء من اليهود ، بعد مذابح البربرية النازية تلـك الجريمة بقتل ذاك العدد من الفلسطينيين ؟»

يبدو لي ان الجذور الحقيقية للمشكلة تكمن هنا . ان من المفترض ان يكون اليهود اخر من يفكرون بـان يصبحوا فوه محتلة او جيش احتلال ، ولكـن يبدو ان الكثيرين ينسون بان ضحايا الاضطهاد قد استبدلـوا المعسكرات وتحولوا الى جلادين . وكما قال المرحـوم « الجنرال ديغول » ، ذاك الرجل الكبير في عمق رؤيته وبعدها ، قال في مؤتمره الصحفي الذي عقده في ديسمبر ١٩٦٧ « كثيرا ما ينسى النـاس ان الاضطهاد ينسل الارهـاب » .

لقد كان قرار الامم المتحدة بادانة واقع الصهيونية قـرارا صحيحا ، ولدي اعتقاد جازم بان الصهيونية هي حركة عنصريـة من الطراز الاول وبـدون منازع . ولا يحتاج المرء الى اكثر من نظرة فاحصة ليجد ان الصهيونية تملـك كل مقومـات العنصريـة ، وهي لا تعدم شيئـا في هذا المجـال :

فهي لا تعدم « المهيرين فولك » واعني العنـاصر المختارة المسيطرة ، ولا تعدم النظرية التوسعية القائمة على فرضيـة المدى الحيوي « ليبنسراوم » ، هذا بالاضافة الى مبدأ حق الاقوى .

ان علينا مواصلة النضال ضد العنصرية والصهيونية اينمـا وحيثمـا وجدنا ، طامحين الى الافضل ، ومعدين انفسنـا لاحتمـال الاسوأ . انني لاتذكر دائمـا كلمـات كتبهـا « عبدالرحمن بن خلدون » في نهايـة القرن الرابع عشر : « الحقيقـة لا تقاوم » .

وانا اخترت معسكر الفقراء الذي لا يقاوم !

فنسان مونتاي

استاذ في الكوليج دو فرنسا

د. الياس فرح

كيف نواجه الصهينية كحركة عنصرية ؟

يصعب دون شك في عالم كعالمنا الراهن ، الاعتماد على المقاييس والمعايير المتعلقة بمفاهيم الزمان والمكان والتطور والمراحل التاريخية ، التي كانت سائدة قبل ان تخضع بنية المجتمعات البشرية لعمليــــة التبدل الاساسية والتغيير المتصارع والشامل . واصبح لا بد في مثل هذا العالم ، من رؤية جديدة وفهم أعمق لطبيعـــــة التطور التاريخي ومتابعة مسيرته . كما لا بد من بصيرة تاريخية ثاقبة من أجل اكتشاف المنعطفات والمراحل الحقيقية لهذا التطور ، التي تؤشر ملامح المستقبل القريب والبعيد .

فلم تعد النظرة البسيطية المقرنة بتفاؤلية تاريخية ساذجة ، تكفي لاستيعاب تطور تاريخي لم يعد ايقاعه بطيئا ، بل ان كميـــــة المفاجآت في سياق هذا التطور باتت تشكل تحديا أمام جميع مناهــج الفكر القديمة وأصبحت تتطلب نباهة تاريخية من مستـــــوى جديد ، وقدرة على تركيب المعطيات الجديدة في عالم اليوم ، ونظرة عميقة من الداخل الى المشكلات والقضايا المعقدة في هذا العالم ، وقدرة عــلى التجرد والنظر الى المستقبل بعين الانسانية بكاملها .

بهذا كله ، وبهذا وحده ، يمكن أن نتعامل مع المستقبل تعاملا مستنيرا مستندا الى فهم للمرحلـــــة التاريخية في سياقها العـــام والخاص ـ يجلو سماتها ويسمــح بالتنبؤ بما يكمن في داخلها مـــن مؤشرات واعدة أو منذرة . ان التـــــفاؤلية التاريخية المعتمدة على الاستسلامية الحتمية تهبط في تبسيطيتها الى درجة العجز عن ادراك الطبيعة المعقدة للصراعات القائمة في عالم اليوم . كما ان التشاؤميــة تعكس ، من طرف آخر ، الى جانب التجاهل للحصيلة الايجابية للتطور البشري والجهل بطبيعة المرحلة الراهنة من هذا التطور ، هبوطا فــي التوتر النضالي وفي الاستعداد للكفاح ، ونوعا آخر من الاستسلاميــة الحتمية للامر الواقع ولمنطق القوة الغاشمة .

صحيح أنه في عالم الثورات العلمية والتقنية والاعلامية وثورات الشعوب والجماهير الكادحة ، اصبحت الحقـــوق اهدافا للنضـــال اليومي ، الا انه صحيح ايضا ان حصيلة التطور الفكري والمـــادي للبشرية اليوم ، تستخدم بحذق ودهاء من القوى المعادية لهذا التطور . وان الاحتلال والغزو والطغيان والتعصب والكراهية ، وبكلمة واحدة (العنصرية) ، تقترن في عالم اليوم بظواهر وأسلحة جديدة ومتطـورة أيضا . ان جدلية عملية التطور تتشابك وتتعقد وتتعدد تناقضاتها وسط محاولات التزييف والتخدير والتضليل والتآمر ، باشكالها المتشحــة احيانا بايديولوجيات ذات بريق خادع ، والسافرة في تحديها لقيـــم التطور البشري احيانا اخرى .

ونحن العرب ، لا نستطيع أن ننظر الى العنصرية والى (الصهيونية العنصرية) كشكل خاص من اشكالها الا على ضوء هذه الحقيقة .
فالصهيونية كظاهرة عنصرية لا يمكن فهمها وتحليلها الا على ضوء سياق التطور التاريخي للعالم الراهن ، الذي يشهد يقظات شعوب وانبعاث حضارات وتحولات حاسمة في اتجاه التقدم والتحرر والسلام. كما لا يمكن ادراك خطورتها الا على ضوء التناقض القائم في المسعى التاريخي والحضاري ، بين اليقظة العربية والمشروع الصهيوني .

فما هي أبعاد هذا المشروع ؟ وما هي أبعاد المواجهة المصيرية معه كوجود وكحركة عنصرية ؟

الصهيونية واليهودية

قد يقال بأن الصهيونية « فكرة أوروبية واميركية » (١) . الا انها بالقدر نفسه ايضا « يهودية » . فاذا كان الوجود الصهيوني في فلسطين يدين للمصالح الاستعمارية والامبريالية الاوروبية والاميركية ، التـــي ساهمت في تحقيقه ودعمه .. فان ذلك لا يمكن أن يحجب حقيقة كونه تعبيرا عن ايديولوجية ، وعن تطلعات ، بعيدة الغور في الحيـــاة اليهودية نفسها . وحتى لا تكون نظرتنا الى الصهيونية نظرة جزئية ، ينبغي بالقدر الذي تؤكد فيـــــه صلة الايديولوجيات والممارســـات الصهيونية بالمخططات الاستعمارية القديمة ـ والامبريالية الحديثة ، أن لا نكتفي بأن ننظر الى الصهيونية والوجود الصهيوني بأنها مجرد أداة وامتداد لتلك المصالح والمخططات الامبريالية الطامعة بثروات الوطـن العربي وموقعه الجغرافي الستراتيجي والخائفة على مصير مصالحها من يقظة الامة العربية ومن نضال الشعب العربي من اجل استعـــادة وحدته وحريته وتقدمه .

وبالمقابل فان تأكيد الارتباط والصلة القائمة بين الصهيونيـــة وبين التاريخ والقيم والحياة اليهودية ، ينبغي ألا تكون على حســاب التمييز بين حقيقتين رئيسيتين :

١ ـ ان الصهيونية بحكم طرحها مشكلة الثنائية أمام اليهودية قد جعلت المعادلة بين الصهيونية واليهودية تصطدم بروح العـــالم الراهن وتركيبه وعلاقاته . وبالتالي جعلت الانفصال واقعا بين طرفـي المعادلة . لان الصهيوني وحده هو الذي يقبل وضع هويته (الفرنسيــة أو الاميركية أو الالمانية) في خدمة (هويته الصهيونية) بشكل مطلق.

٢ ـ ان الصهيونية بالرغم من انها صرخة نابعة من آلام اليهود عبر التاريخ ومحاولة لانقاذ التاريخ اليهودي من مسلسل الاضطهاد ، الا انها بحكم تجاهلها لكل سلاسل الآلام الاخرى في حياة الشعـــوب وخاصة المعاصرة ، وبحكم ارتباط المشروع الصهيـــوني ارتباطا مباشرا باستراتيجيات الدول المستعمرة ، واصطدامه مباشرة بمصالح النضال

---

(١) ارجع الى كلمة الجامعي النروجي (نيلس ونشون) فـي ندوة ليبيا عن « الصهيونية والعنصرية » ٢٤ ـ ٢٨ تموز ١٩٧٦ .

العربي وبنهضة الشعب العربي للتحرر من التخلف ومن الاستعمار ومن التجزئة ... كل ذلك قد جعل من الصهيونية عمليــــة أستغلال للمشكلة اليهودية أكثر منها عملية حل لها ، وعملية ربط لهذه المشكلة بالمخططات والمصالح الامبريالية ، وعملية قطع طريق على تيار التحرر العربـي .

ومن هنا كان لا بد للطبيعة العنصرية المتأصلة في الايديولوجية الصهيونية أن تعبر عن نفسها بممارسات عنصرية لم يكن ثمة مقدمات تاريخية لها في علاقة الامة العربية باليهودية . فقد خلقت الصهيونية أزمة مصطنعة بين اليهود والعرب ، واستعانت بكل رواسب العنصرية في الحياة الاوروبية ضد العرب ، وكان نهجها الثابت ان تتمكن من خلق عصبيات عنصرية متأججة تمتد داخل الوطن العربي ، كما نشاهد في احداث لبنان .

وبكلمة واحدة كانت الصهيونية على صعيد العلاقة بين العرب واليهود خطيئة تاريخية انقلبت الى مسلسل من الجرائم والمآسي ، لا بد من أجل مواجهة شروره من استيعابه بأكبر قدر ممكن من التجرد والصدق والاخلاص لمصالح الشعوب والاحترام للقيم الانسانية . ومن هذه الزاوية ندرك لماذا استدعى قرار الامم المتحدة حول « عنصرية الصهيونية » بصورة آلية ، الصلة بقرار « تقسيم فلسطين » ، أي بأساس منشأ الكيان الصهيوني .

قرار الامم المتحـــدة

في حديثه مع صحيفة «وروبا» اللندنية بتاريخ ١٤ - ١١ - ١٩٧٥ يقول (ايغال آلون) تعليقا على قرار الامم المتحدة باعتبار (الصهيونية شكلا من العنصرية والتمييز العنصري) :

« وان المتطرفين العرب ارادوا في الامم المتحـــدة تمرير قرار يزودهم بقاعدة اساسية ودعائية لانهاء وجود اسرائيل » . ثم اردف قائلا : « انه من السخرية ان الصهيونية التي كانت اساسا تعبيرا عن الثورة ضد اللاسامية وضد التمييز العنصري ، وتمثل شعبا كان اكبر ضحية للتمييز العنصري في العالم ، تدان بنفس المستوى بالنسبـة للتمييز العنصري والاستعمار » . وهكذا يبدو القرار بالمنطق الشكلي متناقضا ، لان النتيجة المترتبة على القياس الارسطي (غير المباشر) الذي يستخدمه آلون تقول :

الصهيونية حركة مضادة للاسامية ، اللاسامية حركة عنصرية ، اذن الصهيونية حركة مضادة للعنصرية .

كما ان القياس المباشر يقول : الصهيونية تمثل شعبا كان ضحيـة التمييز العنصري ، اذن الصهيونية مضادة للتمييز العنصري .

ومن الطبيعي ان يكون هذا التناقض الظاهري الذي يبدو او ما يزال يبدو تناقضا حقيقيا بالنسبة للاوساط المشبعـــة بالتأثير الصهيوني والبعيدة عن ملامسة الحقائق الموضوعية التي تجري على مسرح فلسطين والوطن العربي بوجه عام ... هو الذي جعل القرار الذي صدر عـــن الامم المتحدة يبدو لهذه الاوساط ظالما متعسفا ، فيه من الحقد اكثر مما فيه من التبصر . وانه لعبة لئيمة تكتلت من أجل انجاحها دول فاقدة للشعور بالمسؤولية الدولية والتاريخية (ويقصدون بذلك الدول الاسيوية والافريقية بوجه خاص) . ونحن في هذه الندوة الفكريـــة العالمية ، تدفعنا المسؤولية التاريخية الى الحرص على أن تأتي أفكارنا نابعة من حاجات ودوافع ، متجاوزة لما هو عـــابر وسطحي وانفعالي ومصطنع ، وملتحمة بمصلحة الشعوب والامم والطبقات الكادحة والمظلومة لا بمصالح طبقية وفئوية وذاتية ضيقة ، ومستهدفـــة خير الانسانية ومستقبل الجنس البشري والقيم التي تعطي لوجوده المعنى الحضاري الايجابي والتقدمي المنسجم مع التطور الموضوعي للمجتمعات البشريـة والتاريخ الانساني .

وعلى هذا الاساس ، فاننا لا بد أن نؤكد على عدة منطلقات منهجية تعصم منطلقنا ونظرتنا الى المشكلة عن الوقوع في أخطاء أساسية تنجم عنها نتائج تحملنا مسؤوليات تاريخية :

أ) ضرورة النظر الى المشكلة من داخلهـــا ، اي عبر الافكار والممارسات التي تشكل بمجموعها جذر المسألة والتي تبرز قاعدتهـا وساحة المعركة فيها على أرض فلسطين ، ويتسع اطارها ليشمل الوطن العربي ، وتمتد آثارها على الانسانية بكاملها . واهمية هذا المنطلق تبدو جلية واضحة بالنسبة لاولئك الذين ينظرون الى الوجود الصهيوني كامتداد للغرب الاوروبي ثم الاميركي ، امتداد لحضـــارته واسطورة بالذنب ، ويكتفون بالنظر الى المشكلة الفلسطينية من خلال ذويهـم لا من خلال معطياتها ، ومن خلال ما تغذيه الدعاية الصهيونية فـي نفوسهم لا من خلال المأساة الحقيقية التي دفع العرب وما يزالون ثمن الذي قلما يدفعه أو يمكن ان يدفعه شعب آخر في هذا العصر . اذا لم ننهض في وجه التحدي الصهيوني ارادة انسانيـــة شاملة ووعي بشري مؤازر لهذا الشعب العربي الفلسطيني الذي يصلب كله وفي كل يوم ، على أرض فلسطين وفي الاردن وفي لبنان وفي سوريا وعلى امتداد الساحة العربية أحيانا وعلى مستوى العالم بأسره ، بأيـــدي المخططين والمنفذين للمشروع الصهيوني ، يهودا كانوا أم عربا أو من أمم أخرى ، فقرار الامم المتحدة لم يكن الا تعبيرا عن تطور في الوعي العالمي لحقيقة الوجود الصهيوني . وقد تمثل هذا الوعي في القطاع الاكثر تعرضا للظلم في العالم ، أي في قارتي آسيا وافريقيا ، وبعض أقطار اميركا اللاتينية ، فضلا عن القوى التقدمية والاشتراكيـــة في العالم ، لان هذه القوى استطاعت أن تنظر الى المشكلة من داخلهـا بحكم وقوع بعضها تحت الظلم الاستعماري والتمييز العنصري طويلا ، وبحكم اكتشاف البعض الآخر للتحالف الثابت بين الصهيونية والامبريالية والرجعية في العالم .

ب) الحاجة الى (النظرة الكلية الشاملة) الى المشكلــة ، اي النظرة التي تتجنب النزعة الجزئية فلا تكتفي بالنظر الى المسألة مــن وجه واحد أو بالتركيز على جانب واحد من جوانبها على حســـاب اهمال الجوانب الاخرى .

واهمية هذا المنطلق تبدو بوجه خاص كعـــامل في تحقيق شرط أساسي من شروط الموضوعية ، لان النظرة الكلية الشاملة تساعد على الخروج من اطار الذاتية وعلى استيعاب المشكلة في اطارها الجامع ، وفي مضمونها المتشابك المعقد ، فلا تقف عنـــد النظرة البسيطية القاصرة ، ولا تغرق فـي النزعة التجريدية للواقع ، ولا تلتزم بوجه مطلق بمقولات لا تعبر عن الواقع الحي وعن الابعاد الحقيقية والعوامل الجوهرية للمسألة الفلسطينية ، والاهداف والمصالح التي ساهمت في خلقها وفي ايصالها الى ما هي عليه كأزمة دائمة للسلام العالمي ، فضلا عن كونها مأساة شعب ، وأزمة قيم ، ومعضلة تاريخية .

ان آلام اليهود في المانيا النازية أثنـــاء الحرب ، كآلام عرب فلسطين بعد الحرب ، وكآلام الافريقيين والزنوج وجميع ضحــــايا التمييز العنصري في العالم ، تشكل هموما مشتركة لنا جميعا ، تدفعنا الى فضح الدوافع العنصرية الكامنة وراءها ، بقدر ما تدفعنا هـــذه النظرة الشاملة الى البحث عن المصدر الذي تنبع منه ، والى التصدي لجملة العوامل المترابطة التي زرعت الشر في هذه المنطقة او تلك من العالم ، ثم لوضع حد لخطرها وتهديدها للسلام في العالم باجتثاث أصل الشر . وهي عملية دقيقـــة ومعقدة بحكم تشابك العوامــل وتداخلها ، فلا بد من الاحاطة بهذه الشبكة كلها ، فالعنصريـات في عالمنا تكاد تنبع من مصدر واحد أو تصب في مجرى واحد . والعنصرية الصهيونية ليست سوى جزء من كل هو (العنصرية في العـــالم) ، الذي يجسده التحالف الامبريالي الصهيوني .

ج) ان النظرة الشاملة الكلية تحتم النهج الفكري المكمــل لها

المتمثل بالنظرة الجدلية التي تستوعب الواقع وتناقضاته وأطراف المعادلة في وجهيها العام والخاص . فنحن لا نستطيع أن نكتفي بخصوصيــه المسألة العنصرية في مكان ما بعيدا عن اطارها المشترك العام . كما أننا لا نستطيع من طرف آخر وبحجة ادانة العنصرية في كل زمان ومكـــان أن نجعل من هذه الادانة سببا أو وسيلة للتخفيف من شأن المكان الذي تتجلى فيه العنصرية بأفدح أشكالها وأبشع مظاهرها ، أو عاملا مـــن عوامل التغاضي أو التهوين من خطر الممارسات العنصرية في هـــذا المــكان .

ان ظلما قد وقع على اليهود ، الا أن الظالم أدين وحكم وعوقب وأصبح لعنة من لعنات التاريخ . أما الظلم الواقع على العرب فما يزال يصرخ في وجوهنا كل يوم ، لان الظالم يمعن بتمادي ظلمه ، ويمعن في تخريب الحياة العربية وقطع الطريق على استعادة شروط بنيان هذه الحياة من جديد على أسس حضارية ستعيد الصلة الحية بماضي العرب الحضاري وبروح هذا العصر وتساهم في صنع مستقبل انساني للبشريــة .

فلا بد اذن لفهم جوهر المسألة الفلسطينية من أن نقرن النظرة الجدلية بالنظرة الشاملة وأن نعرف كيف نحيط بأبعاد المسألة ، حتى نعرف كيف نبني تصورنا لمواجهة أخطار المستقبل ونكفل عدم تكرار هذه المآسي في حياة اليهود والعرب على السواء ونتصدى بحزم لكل الافكار والممارسات العنصرية أين وجدت ومتى وجدت .

د) وأخيرا لا بد من التأكيد على ضرورة (النظرة الجذرية الى المسألة) . فالمشكلة سوف تظل قائمة اذا لم تعالج من الاساس ، واذا لم تتجاوز المظهر السطحي المصطنع المفروض بالقوة الذي يعبر عن وجود قلق متفجر . فالمشكلة تكمن في الطبيعة العنصرية للفكر الصهيوني وفي الممارسات التي أكدت الجوهر السلبي للصهيونيــة ، الجوهر اللاانساني لها . فهي التي لم تولد ولادة طبيعية بريئة من آلام اليهود ولا من الدوافع الانسانية لهذه الالام ، ما كان لها بالطبع أن تعترف بآلام العرب أو أن تفهم قضيتهم في هذا العصر بحكم ارتباط الصهيونية بمصالح جعلت المشروع الصهيوني أداة عدوان وتهديد دائم لمستقبل النهضة العربية .

لذلك فانه ما لم نستوعب هذه الحقيقة وهي أن الفكر الصهيوني قد ولد من رد فعل على حالة الاضطهاد، اي على اللاسامية، ومن استغلال لهذه الحالة من أجل دفع الحياة اليهودية في طريق مسدود تاريخيا ، وانه لم يكن معالجة عميقة وعلمية لمشكلات اليهود وان عنصريته جزء من تكوينه ، وان المعالجات السطحية ذات الطابع السياسي الموقت المعتمد على القوى والمخططات السياسية التسووية أو التصفوية للقضيــة الفلسطينية لا يمكن أن يتوفر لها النجاح الحقيقي الذي يوطد السلام ويحرز الالفة بين العرب واليهود — نعم بدون ادراك هذه الحقيقــة لا يمكن أن نصعد الى أصول المشكلة ولا يمكن أن نكون مواجهتنا للتحدي الصهيوني العنصري ، مواجهة أساسية ، سيما وان المهمة الكبرى التي تقع على عاتق هذا المؤتمر هو أن يجيب على السؤال الكبير الصعب :

كيف نواجه الصهيونية كحركة عنصرية ؟

ان المنطلقات المنهجية التي سبقت الاشارة اليها تساعدنا بادىء ذي بدء على تقرير جملة من الاسس التي لا بد منها لتحديد جوابنا على السؤال المطروح على هذا المؤتمر :

١ — ان ظواهر التمييز العنصري مجافية لطبيعة عصرنا ، عصر الاشتراكية الذي بدأت طلائعه مع النصف الاول للقرن العشرين مــع الثورة البلشفية التي فتحت صفحة جديدة في تاريخ الانسانية . وان من الفهم الخاطىء لحركة التاريخ أن تقدم الصهيونية في الاساس ، على اعتبار اللاسامية ، هي احدى ظواهر التمييز العنصري ، نزعة لا يمكن أن تزول ولا سبيل الى التخلص منها ولا مجال لمقاومتها والوقـــوف في وجهها ، وانها (متأصلة) الى الدرجة التي تكاد تبدو فيها كما لو انها ((مشروعة)) لتبرر ((شرعية)) أدهى منها وأمر وهي الاحتلال وغزو فلسطين وتشكيل دولة يهودية ، أي شرعية اغتصاب أرض وتشريد شعب ، تحت ذرائع تاريخية هي ضد منطق التاريخ .

٢ — ان تجاوز هذه النقطة الاساسية ، أو محاولة تبريرهـــا وتمريرها تحت شتى المبررات والتسويات ، خروج عن منطق الحكمــة والقيم الانسانية والواقع الحي والتاريخ ، كما أنه منطق خاطىء وغير واقعي على المدى البعيد وغير تقدمي ، يفضي الى سلسلة لا حدود لها من الاخطاء .

ان كون الصهيونية — في فكرها وتنظيمها وأهدافها — جاءت كرد فعل على حالة شاذة معرضة للزوال ، وهي ((العنصرية اللاسامية)) ، فان ((رد الفعل)) كان لا بد أن يجعل الصهيونية ، بمنظارها التشاؤمي الرجعي الى مستقبل الانسانية هذا تقابل ((اللاسامية العنصرية بسامية عنصرية)) . وقد كان العرب هم الضحية أمام عنصرية الصهيونية كما كان اليهود ضحية عنصرية النازية واللاسامية الكامنة وراءها .

ان ((رد الفعل)) لا يستطيع أن يحقق أكثر مما تحققه الدوافع الغريزية العضوية البدائية المشبعة بالانفعـــال والقصيرة النظر . والحقائق الايجابية ، انما تأتي نتيجة تجاوز ((رد الفعل)) و ((الانفعال)) الى المعالجة الاساسية الجذرية المستندة الى فهم عميق واخـــلاص للحقيقة والتزام بما يتطلبه النضال من أجلها .

لقد وقعت الصهيونية نتيجة الاكتفاء برد الفعل علــى اللاسامية في أخطاء العنصرية . وهي لا تستطيع أن تتجاوز أخطاءها بذاتهــا . لان وجودها العنصري في فلسطين وممارستها بحق العرب ، قد حولت أخطاءها الى خطايا ، بل أصبح تجاوز رد الفعل على اللاسامية رهنـــا بنضال مشترك بين العرب واليهود ضد الامبرياليـــة والممارســات الصهيونية التي ألحقت بالعرب وبنهضتهم المعاصرة أفدح الضرر ، وزجت باليهود في مأزق تاريخي لا سبيل للخلاص منه الا بالخروج من اطـــار المشروع الصهيوني ، والعمل ضمن منطق التاريخ ، منطق التفاعل المشترك والنضال المشترك ضد العنصرية بجميع مظاهرها وأشكالهـــا وفي جميــع خنادقها وزواياها .

٣ — ان مستقبل الصهيونية بات مرتبطا بشكل أساسي وحاسم بمستقبل الامبريالية الاميركية . لان تطور الحركة الصهيونية منذ نهاية القرن الماضي حتى قيام ((دولة اسرائيل)) عام ١٩٤٨ كان يعتمد على تعاون ودعم السلطات الاستعمارية الامبريالية المسيطرة في العــالم . ثم ان تطور الكيان الصهيوني في فلسطين أخذ يعتمد بعد ذلك وبشكل متصاعد على الامبريالية الاميركية بعد الحرب العالمية الثانية . كما ان استقرار هذا الكيان وأمنه وتوسعه ومستقبله العدواني بحكم قيامه فكرا وممارسة على نزعة عنصرية متأصلة ، أصبح يعتمد أكثر فأكثر عـلى نجاح هذا الكيان في بعث عنصريات غافية واصطناع عنصريات جديـدة لتفتيت الوطن العربي واغراقه في الحروب الاهلية ، ودعم الطبقـــات الرجعية وانظمة الحكم المدعومة من الاجنبي الفاقدة للـروح الوطنيـة والمعادية لجماهيرنا الكادحة ، ومحاولة ارجاع الاوضاع في الوطـــن العربي الى الوراء وخنق روح النهضة العربية ، وتحويل العرب عن طريق التطور والتقدم والنزوع الحضاري ، الى الاستسلام لضرورات وحاجات الستراتيجية الامبريالية الصهيونية الرجعية في المنطقــة ، وقتل روح النضال وترك الثروات العربية والجماهير العربية الكادحة، أسرى النهب والتحكم والاستغـلال الاستعماري الصهيوني الرجعي وقطع الطريق على الدخول في مرحلة تاريخية جديدة نضجت كل عوامل الدخول فيها .

لذلك فان معركة العرب مع التحدي الصهيوني العنصري هي أوسع من أن تحصر بين أنظمة عربية وبين الكيان الصهيوني ، لان بعضا من هذه الانظمة ينفذ مخططات امبريالية وصهيونية بأبعد مما تحلم به

القوى الامبريالية والصهيونية ، كما ان المعركة هي أعمق من أن تكون بين الواقع العربي الراهن والواقع الصهيوني الراهن ، وأكبر مـــن خلاف على أشبار من الارض أو على سيادة جزئية على شبر من هـذه الارض . والمعالجة الجذرية لا بد أن تتجاوز حدود التسويات مع القوى العابرة في مجرى التطور العربي وفي الحياة اليهودية ، ثم أن المعركة ليست معركة بين (عرب ويهود) . وكل هذه الصور زائفة تماما كزيف المحاولات التي تختصر أحداث لبنان اليـــوم وتصفها بين (مسلمين ومسيحيين) .

انها معركة بين حركة التاريخ الصاعدة في هذه المرحلة من حياة العرب ومن حياة الانسانية ، وبين المشروع الصهيوني الذي بني على العنصرية وحمل معه بها بذور فنائه المحتوم .

وهذه المعركة تتسع لتشمل جميع من لهم مصلحة في انتصـار ارادة الحق ، ارادة التاريخ والحياة المعاصرة والقيم الحضاريـــــة والانسانية . وانها تجمع النضال المشترك العربي اليهودي أولا ضـــد المشروع الصهيوني ، وتجمع القوى المحبة للسلام والعدل في العالم ، قوى الاشتراكية والتحرر والتقدم لمجابهة التحالف الامبريالي الصهيوني الرجعي الذي يهدد مستقبل التطور والحرية والسلام في العالم .

أبعاد المواجهة للصهيونية كحركة عنصرية

١ ـ ان البحث في هوية الصهيونية ـ من حيث ايديولوجيتهـا وممارساتها ـ يتركز عادة حول بعدي الزمان (الماضي والحاضر) لوجود الصهيونيـة كحركة عنصرية . أما البحث في كيفية التصدي لهـذه الحركة ومواجهـة أخطارها ، فانه يتعلق بالمستقبل ، أي بالبعـد الزماني الذي يتوقف عليه مصير هذه الظـــاهرة ومصير المجتمعات البشرية والقيم الانسانية التي تعرضت ، وسوف تبقى مهددة باستمرار بافدح الاخطار بسبب طابعها العنصري .

ولا يمكن الكلام عن المستقبل بروح علمية أو التخطيط له ، دون استقراء علمي لوقائع الماضي وأحداث الحاضر ، ودون اكتشاف الابعاد الكبرى والمحركات الاساسية للسلسلة التاريخية ، ولنقاط التقاطع بين الاتجاهات المتجاوبة مع حركة التاريخ ، وبين الاتجاهات المعاكسة لها ، المقاومة لخطها التقدمي الصاعد .

وكلما كانت المعرفة حية غير مجردة ، وكانت مستوعبة استيعابا عميقا وداخليا لاحداث الواقع ، ومعتمدة على فهم لقوانين الصراع أي متمتعة ببصيرة تاريخية ، كلما كانت مدخلا سليما لجعل أحـــداث الماضي والحاضر في خدمة مستقبل الانسانية . لذلك فان الفهم العلمي الجدلي التاريخي للظاهرة الصهيونية ، القائم على استيعاب جملـة مكونات افكارها وممارساتها في فلسطين ، لا بد ان ينطلق في نظرتـه الى مستقبل هذه الظاهرة العنصرية ، من حاجات النضال العام ضد العنصرية في العالم بوجه عام ، ومن حاجات النضال الخاص ضـــد الافكار والممارسات العنصرية للصهيونية كوجـــود سلبي في فلسطين يهدد مستقبل الحياة اليهودية والنهضة العربية والسلام في العالم .

٢ ـ ان الجرح التاريخي في فلسطين ، أخذ شكـــــل مؤامرة تاريخية تمس العرب واليهود وتمتد آثارها وأخطارها لتشمل دولا وأنظمة وقارات ، ولتهدد قيما وحقوقا وحياة شعوب وأمنها . وهذه المؤامرة التاريخية لا يمكن ان تواجه مواجهة صحيحة الا بعمل تاريخي يتجاوزها. واذا كانت المؤامرة من صنع التحالف الامبريالي الصهيوني الرجعـي الذي ينظر الى مستقبل البشرية كله ، من خـــلال المصالح والعقـد القديمة والقيم والمفاهيم التي تجاوزها التطور الانساني ، فان التصدي لهذا التحالف المولد للعنصريات والذي يولد منها ليغذيها ويتغذى بها ، لا يكون فعالا وقادرا على فتح آفاق جديدة في حياة البشرية ، الا اذا استند الى مفاهيم وقيم وممارسات انسانية حضارية تجمع في خط واحد قوى الخير والتقدم في العالم ، قوى الشعوب المقهورة المتطلعة الى الحرية ، وارادات الافراد التاريخيين الذين يحملون في ضميرهم وفي تفكيرهم الشعور بالمسؤولية عن مصير العالم .

٣ ـ ان هذه الستراتيجية الواسعة الشاملة لمواجهة هـــذا التحالف الذي يغذي العنصرية الصهيونية ، لا بد ان تعتمد على العمل الفكري كعامل أساسي في الكشف المستمر عن حقيقتها من الداخـــل ومتابعة آثار ونتائج كيانها العنصري في بث العنصريات أو خلقهـــا واصطناعها في المنطقة العربية وفي خلق تيار معاكس لخط النهضـــة والوحدة والتقدم في الوطن العربي .

ان الصهيونية ذات طبيعة عنصرية من نوع خاص مركب يتجاوز في التعقيد وفي الخطر العنصريات الاخرى . وهي كحركة عنصرية حديثة تعكس في آن واحد الجانب المتقدم تقنيا والمنقهقر حضاريا من الوجود الاوروبي المعاصر ، فانها تملك القدرة على استغلال أحدث التطـورات والوسائل لحجب حقيقتها العنصرية والتستر بأثواب خادعة ، واسقاط عنصريتها على الغير . لذلك فان الاسلحة الفكرية هي من أهم عوامل المواجهة للتحدي الصهيوني العنصري ، وكلما انتظمت هذه المواجهـة واستخدمت هذه الاسلحة بشكل فعال قائم على استراتيجية يرسمهـا المفكرون المناضلون في العالم ضد العنصرية ، كلما كانت اشد حسمـا في وضع حد لهذه العنصرية الصهيونية .

ان توعية العالم على حقيقة الممارسات والاهداف الصهيونيــة وجذب القوى المحبة للحرية والسلام وتوحيد جهودها ، يشكل عامـلا اساسيا في هذه المواجهة .

٤ ـ لقد استفادت الصهيونية كحركة عنصرية من الآثـار النفسية التي خلفتها مجريات الحرب العالمية الثانية ، لتمرير مخططاتها في غفلة عن رقابة الضمير الاوروبي وعن الحاسة النقدية للعقل الاوروبي التي خدرتها العواطف ومشاعر الذنب والاثم . ولم تكتف بذلك ، بل راحت تكون انعكـــاسات المزورة وتصور النضال الفلسطيني التحرري بمظهر يتناقض مع طبيعته ، وراحت تسخر أجهزتها ومؤسساتها ووسائلهـــا لاستغلال أخطاء العرب الناجمة عن التخلف ، اي الاخطاء التي لا يمكن أن يعتبروا مسؤولين عنها من أجل اظهار عدوانها بمظهر الشرعية .

فتقصير العرب في حق أنفسهم وقضيتهم وفي قدرتهم على جلائها وتوضيحها ، كان ينضاف الى الجدار العاطفي الاوروبي ، ليشكل عاملا مهما للاستغلال العنصري الصهيوني وتمرير جريمـــة تاريخية يتضاعف فيها الظلم كل يوم ويتسع اطاره وتتعمق آثاره . لذلك فان جانبا مـن المواجهة للتحدي العنصري الصهيوني ، لا بد أن يأخذ بعين الاعتبـار ضرورة التركيز على مخاطبة العقل الاوروبي وتصحيح آثار مرحـــلة تراكمت فيها التأثيرات الصهيونية الدعائية المضللة وانقاذ قطعـــات واسعة لا مصلحة لها في التمييز أو التستر على العنصرية وعدم التبصر في عواقب مثل هذه المواقف التي تفتح الباب واسعا امام التضليـــل العنصري . وأخطر مظاهر هذا التضليل تتجلى في وضع بعض المفكرين للمشروع الصهيوني ولليقظة العربية في ميزان واحد وفي كفتيـــن متعادلتيـــن .

٥ ـ أن موقف التحيز العاطفي ، وكذلك الحياد المبني عـــلى اعتبارات لا مبدئية ينبغي ان يكونا هدفا من اهداف حملة التوضيـــح والنضال الفكري ، وأن يكون هذا النضال قاعدة انطلاق اساسية لمواجهة التحدي العنصري الصهيوني . ذلك ان اشكالية القضية الفلسطينية ، أي اصطدام المشروع الصهيوني باليقظة العربية ، ليست صدفـة ، كما انها ليست مبررا لاتخاذ مواقف لا مسؤولة أو لاتخاذ اهون المواقف وافلها عرضة للمتاعب . ولا بد في مواجهة الصهيونية كحركة عنصرية من الانطلاق من الاعتماد على الاسس والمبادىء ومن توضيح طبيعة المرحلة التاريخية وطبيعة الصراع القائم بين الصهيونية وبين حركـة التحرر العربي وفهمه على حقيقته فهما جوهريا .

فهناك فروق جوهرية لا بل وهناك تناقض بين اساس المشروع الصهيوني ودوافعه ووسائله وأهدافه ، وبين حركة النهضة العربية . فالحركة الصهيونية التي افرزتها المرحلة الاستعمارية في أوروبا كآخر حلقة من حلقات المد الاستعماري ، والتي نشأت على غرار الحركات الفاشية لكن دون سند شعبي ، والتي حملت في رد فعلها على اللاسامية الاوروبية كثيرا من عنصريتها ، عنصرية (اليهودي الاوروبي) الذي لم يتحرر من اطار (الماضي) ولا من منطق (رد الفعل) أي من الحلقة المفرغة التي تجاوزها التقدم البشري ، على صعيد الفكر والممارسة – ان هذه الحركة الصهيونية العنصرية لا يمكن ان توضع في كفة ميزان واحد مع حركة التحرر العربي التي انبثقت من رحم التطور التاريخي ، والتي كانت جزءا من موجة التحرر في القارات الثلاث ، والتي تعتمد في نموها وأفكارها ووسائلها على الجماهير العربية الكادحة المناضلة ، وتستلهم روح الرسالة العربية الانسانية في الماضي وتشكل جزءا لا يتجزأ من الثورات الاشتراكية التقدمية في العالم المعاصر . فاكثر الاشياء قربا الى منطق الواقع والحقيقة والعصر ، وبعدا عن الاصطناع والافتعال والسلبية ، الذي تمثله حركة القومية العربية ، لا يمكن أن يكون في نظر انسان يعرف الحقائق ، أو في حساب ضمير منصف ، قرينا لاكثر الاشياء بعدا عن منطق العصر ، سواء من حيث الايديولوجية أو الممارسة ، وعن روح العصر وعن السياق التاريخي الذي نشأت فيه الافكار التحررية والحركات التحررية وحركات الانبعاث الحضاري . فالحركة الصهيونية تقف على تخطيط تتحدى فيه كل معطيات التطور في القرن العشرين ، مستعينة بذلك بالقوى الرجعية التي مستها معطيات التطور وهددت مصالحها . وفي النهضة العربية المعاصرة الشيء الكثير الذي يرهب الاعداء ، لان هذه النهضة تصطدم بالاستعمار والامبريالية والرجعية ، فالوحدة العربية وتحرر العرب السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي ، وبناء الاشتراكية كطريق وحيد للقضاء على التخلف ولتجديد الحياة العربية ضمن منطق العصر ... ان اهداف النضال العربي المعاصر هذه هي عناوين لتحول حتمي في حياة المجتمع العربي ينعكس مباشرة على المجتمع الدولي ويهدد مصالح الامبريالية والرجعية . ولا يمكن ان يفهم المشروع الصهيوني العنصري الا من زاوية هذا السبق ، أي الا على ضوء كونه يخدم مباشرة النقيض لحركة التحرر العربي ، وكونه يشكل جزءا لا يتجزأ من هذا النقيض ، على صعيدي الفكر والممارسة. لذلك فان مواجهة العنصرية الصهيونية تتطلب استيعاب هذا الدور السلبي وهذا المأزق التاريخي الذي نشأ بسببه ، اي تتطلب نضالا فكريا وعمليا ضد العنصرية الصهيونية وضد تحالفها مع الرجعية والامبريالية .

٦ – ان تعميق انسانية النضال القومي العربي الاشتراكي ، يشكل بحد ذاته عاملا مهما في كشف عنصرية الصهيونية ، وفي مواجهتها . ان نضال العرب من اجل التحرر من عنصرية الصهيونية هو في صالح كل القوى التي تؤمن بالسلام والتقدم في العالم .

ان السلام والاستسلام نقيضان ، كما السلم والحرب . كما ان السلام القائم على توازن القوى والرعب ليس سلاما حقيقيا . ومن هنا تبدو بشكل جلي سوءات وضلالات المنطق الذي يتجاهل الاخطار التي تنطوي عليها المخططات والمحاولات التي يعمد اليها التحالف الامبريالي الصهيوني الرجعي ، لفرض الحلول المعبرة عن مصالحه بالقوة حينا وبالخديعة والتضليل حينا آخر . ان السلام هو الهدف ، ولكنه السلام الحقيقي الذي يحل المشكلة ولا يعللها أو يزيدها تعقيدا واستعدادا للانفجار بصورة أشد في مرحلة لاحقة . وهذا السلام لا يتحقق الا بالنضال ، بنضال القوى المعادية للعنصرية التي ينبع السلام من فكرها وممارساتها وضميرها .

ان كل تخطيط للمستقبل لا يبني ثقافة الاجيال على المعرفة الحقيقية المتجهة الى السلام انما يبني عنصرية جديدة مضافة .

فلكي نواجه التحدي الصهيوني العنصري لا بد ان نفهم آلام اليهود وآلام العرب وان نحمل تصورا عن المستقبل يضع حدا حقيقيا لهذه الآلام .

ان العنصرية الثقافية والسياسية التي تشكل المحتوى الجوهري للتحالف الصهيوني الامبريالي ولمخططهما في المنطقة العربية ، لا تجابه بشكل حقيقي الا بالانتصار الفكري والعلمي على الظواهر السلبية القائمة على العنصرية ، أي على رفض الاخر واحتقاره والتعالي عليه وكراهيته، وعلى التعصب والانغلاق ، أي بالانطلاق من موقف انساني تقدمي حضاري تحتمه طبيعة النهضة العربية المعاصرة كحركة تحرر وانبعاث وتجدد حضاري .

ان هذه المواجهة ينبغي أن تكون من خلال منطق الثورة التاريخية ذات التصور العالمي الانساني لمستقبل البشرية ، وأن نفهم ضمن اطار بناء العالم الجديد الذي تصنعه الثورات التحررية للشعوب في عصرنا، عالم الحرية والسلام والتقدم . والامة العربية لا تحتاج الى أن تكون شيئا آخر غير ذاتها ، ولا أن تؤكد على فضائل لم تمارسها عبر التاريخ ، لتكون مواجهتها للعنصرية الصهيونية بعيدة عن أمراض العنصرية ومؤكدة الطابع الانساني الحضاري لحركة انبعاثها الحديثة. ان القيم التي عاشت وتعيش عليها الصهيونية كحركة عنصرية ، تغذي أجيالا من العنصريين الذين اتخذوا من عقد التعصب والكراهية والخوف أساسا لثقافة تقوم على محاسبة التاريخ البشري وادانة كل الامم وصب النقمة على العرب .

ان هذه القيم وهذه الثقافة وتلك التربية والايديولوجية وأنواع الممارسات الصهيونية تأخذ مكانها في التاريخ بالنسبة الى العرب ، كامتداد للغزوات الصليبية وغيرها من الغزوات العنصرية ضد الاسلام والعروبة في الماضي . الا انه بالقيم ذاتها التي واجهت بها الامة العربية تلك الغزوات وانتصرت ، هي مطالبة اليوم بأن تواجه العنصرية الصهيونية وتنتصر عليها : قيم الثورة الحضارية ، قيم الجماهير الكادحة المناضلة ، قيم الانسانية ، قيم العصر الحديث ، عصر الاشتراكية .

٧ – ان مواجهة التحدي العنصري الصهيوني ، لا بد ان تنطلق اذن من مواقع فكرية حضارية تقدمية مناقضة للمنطلقات العنصرية . فالطابع الفكري الايديولوجي لهذه المواجهة يفرض نفسه منذ البداية ، لان الحركة الصهيونية تنطلق من ايديولوجية تحاول تبرير ممارساتها العنصرية واضفاء ثوب من الشرعية على لامشروعيتها وعدوانها على كل مشروعية .

وقد لا يستطيع المنظور البرغماتي ، اي فلسفة المردود والنجاح ، فلسفة المدى القريب ، هذا المنظور العملي ، قد لا يستطيع أن يضيء اكثر من جانب جزئي من جوانب هذه المواجهة ، كما ان المنظور الطبقي الاممي على اهميته ، قد لا يعطينا اكثر من جانب آخر يبقينا ضمن اطار النظرة الجزئية الى المسألة .

فالمنظور الايديولوجي المتكامل الذي يستوعب ابعاد المسألة ، لا يمكن أن يكون نتيجة تعميم مستمد من الخبرات العامة في معالجة المسائل التي سبقت ، بل هو الذي يجمع الى جانب الاطار التقدمي العام والنظرة العلمية الواقعية في خطوطها الكبرى ، القدرة على استيعاب الخصوصية البالغة الدقة في هذه المسألة بالذات ، والكثيرة التشابك والتعقيد ، سيما وان الطابع الفكري (الايديولوجي) لمواجهة العنصرية الصهيونية يرتبط مباشرة (بالطابع الستراتيجي) لهذه المواجهة ، اي بالقوة المعنية بالصراع ضد التحالف العنصري الامبريالي الصهيوني الرجعي ، وهي تشمل القوى التقدمية في العالم بأسره ، وان كان العبء الاكبر على الشعب العربي الفلسطيني والامة العربية ، وعلى يهود العالم المتحررين من العنصرية الصهيونية .

روجيه غارودي

عن الذرائع الدينية والتاريخية للصهيونية

لنذكر اولا الاهداف الاساسية للصهيونية كما عبر عنها أكثر ممثليها بروزا .

لقد أعلن بن غوريون في عام ١٩٦٣ ما أسماه « مملكة اسرائيل الثالثة » . والمملكة الاولى هي مملكة داود ، أما الثانية فهي التي اقيمت بعد ثورة المكابي في عام ١٦٧ قبل المسيح ضد خلفاء الاسكندر ، كما سبق له أن قال في المقدمة التي كتبها عام ١٩٥٤ لكتاب « تاريخ الهاغانا » الذي أصدرته المنظمة الصهيونية العالمية : « وفي الوقت الحالي نتحدث عن الاستيطان ، وعن الاستيطان وحده . انه هدفنا في المدى القصير ، لكن من الواضح ان انكلترا تنتمي للانكليز ، ومصر للمصريين ، واليهودية لليهود ، وليس في بلادنا مكان الا لليهود . اننا سنقول للعرب : « ابتعدوا » ، فاذا لم يوافقوا ، اذا قاوموا ، فسنبعدهم بالقوة » .

لقد ظلت هذه الفكرة الموجهة تلهم الادعاءات الاقليمية للقادة الاسرائيليين . وفي آب عام ١٩٦٧ أعلن الجنرال موشي دايان : « اذا كنا نمتلك الكتاب المقدس ، واذا كنا نعتبر انفسنا شعب الكتاب المقدس ، فان علينا بالمثل أن نمتلك ارض الكتاب المقدس ، أرض القضاة والآباء ، أرض اورشليم وحبرون وأريحا وغيرها ، وأنا لا أعرض هنا برنامجا سياسيا ، وانما أعرض أمرا أكثر اهمية ، أعرض الوسائل لتحقيق حلم الآباء . وعلى الدول الاجنبية أن تفهم انه بالنسبة لاسرائيل ، بغض النظر عن الاهمية الاستراتيجية ، تقع سيناء ومرتفعات الجولان ومضيق تيران وجبال غرب الاردن في قلب التاريخ اليهودي » .

ويكافح مناحيم بيجين قائد اليمين الاسرائيلي من أجل ما يسميه « اسرائيل الكبرى » التي لا بد أن تضم كل المنطقة التي كان يسيطر عليها الملك داود والملك سليمان قبل ثلاثة آلاف عام .

ما هي الحجج التي تعد أساس هذه الايديولوجية الصهيونية ؟

١ ــ اولا حجة دينية :

هي حجة العهد الذي قطعه يهوه مع الشعب اليهودي حين جعله « الشعب المختار »

والنص الذي يستند اليه الصهاينة هو النص الذي يمنح كل ارض كنعان لابراهيم « وأعطي لك ولنسلك من بعدك ارض غربتك كل أرض كنعان ... » (سفر التكوين ، الاصحاح السابع عشر الآية ٨) .

ويكشف هذا التفسير للكتاب المقدس القائم على عزل النص عن مجموع نصوص الكتاب المقدس ، وعن الاطار التاريخي ، عن تصور قبلي للدين . فالواقع ان العهد قد صيغ في أيام ابراهيم وفقا نموذج العلاقات الاجتماعية في الشرق الاوسط كله في ذلك الحين : اذا كانت قبيلة تتعاهد مع سيد ما لتعده بالطاعة مقابل حمايته . ويختم هذا الميثاق ــ كما ذكر الكتاب المقدس ــ بذبح حيوانات التضحية . ويعد الختان رمزا لهذا العهد (سفر التكوين ، الاصحاح السابع عشر الآية ١٠) .

وتفسير العهد بهذه الطريقة يعني التمسك فحسب بالجوانب الخارجية الحرفية البالية لنصوص الكتاب المقدس للتمييز بين المختارين وغير المختارين .

اما ما هو أساس في تراث ابراهيم ، وتراث أنبياء اسرائيل العظام ، ثم العهد الجديد ، ثم القرآن ، فهو بالتحديد التصور العالمي الذي يتخطى التمييز بين المختارين والمستبعدين ، الامر الذي لا يمكن بدونه ــ كما لاحظ جورج فريدمان عالم الاجتماع اليهودي الكبير عند عودته من اسرائيل ــ القيام بتجديد ديني لاهوتي في اسرائيل . فهو يقول : « ان الدين ينتزع من جذوره الحية ، ويعزل داخل قومية متكاملة » .

ان هذا « التصلب من جانب المؤسسة الدينية » يترك آثارا سياسية خطيرة ، فهو يؤدي الى اضفاء شرعية دينية على النزعة القومية . ولقد كانت حجج كهذه هي التي يبرر بها المسيحيون العداء للسامية ، اذ يتهمون اليهود بانهم مسؤولون عن موت المسيح .

وذلك في حين تتخطى التوراة والانبياء هذه النزعة الطائفية ، اذ يتحدث سفر التثنية (الاصحاح العاشر ، الآية ١٦) والنبي ارميا (الاصحاح الرابع ، الآية الرابعة) عن « ختان القلب » أي عن التحول الداخلي للانسان بحلول الله فيه وليس عن مجرد الطقس الشكلي .

ان المسيحية باعلان « العهد الجديد » أي العلاقة الشخصية بين كل واحد وبين الرب ، تتخطى النزعة الطقوسية . ويقول بولس الرسول ــ وهو يهودي بالمولد ــ بوضوح (رسالة الى اهل غلاطية ــ الاصحاح الخامس ، الآية السادسة) : « لانه في المسيح يسوع لا الختان ينفع شيئا ولا الغرلة بل الايمان العامل بالمحبة . ليس الطقس وانما الاتحاد بالله هو الذي يطهر القلوب » . ويضيف بولس الرسول (رسالة الى أهل غلاطية ــ الاصحاح الثالث ، الآية الثامنة) : « والكتاب اذ سبق فرأى ان الله بالايمان يبرر الامم سبق فبشر ابراهيم ان فيك تتبارك جميع الامم » (تكوين ــ الاصحاح الثاني عشر ، الآية الثالثة) .

وباسم هذه العالمية التي تستبعد كل عنصرية يستخلص بولس الرسول (رسالة الى أهل غلاطية ــ الاصحاح الثالث ، الآية ٢٨) : ليس يهودي ولا يوناني . ليس عبد ولا حر » .

ان كاتب « الرسالة الى العبرانيين » (الاصحـاح الثـامن والتاسع) يقطع كل صلة بمزاعم تميز شعب مختار ، فالرب هو رب كل الشعوب .

ويستلهم القرآن ـ وهو بدوره وريث فاليـد ابراهيم ـ نفس النزعة العالمية العامة ونفس النظرة الى الداخل الروحي في تفسيره للعهد ، انه عهـد مفتوح امام كل من يعملون وفق الروح الالهي : « واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال اني جاعلك للنـاس اماما قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين » (سورة البقرة ـ الآيـة ١٢٤) . فلسنا اذن أمام عهد بحكم الدم وانما أمـام ميثاق للقلب . يقول الرسول : « ان أكرمكم عند الله أتقاكم » .

وكانت بربرية هتلر هي التي جعلت من الختان رمزا للجنس ودبرت المذابح لليهود .

وباسم العنصرية عرّفت قوانين نورمبرغ النازية اليهودي بأنه من ولد لأم يهودية . ويقول حاييم كوهين القاضي بالمحكمـة العليا الاسرائيلية : « ومن سخرية القدر ان نفس الافكـار البيولوجيـة والعنصرية التي روج لها النازيون ، والتي ألهمت قوانيـن نورمبرغ الشائنة هي التي تعد أساس التعريف الرسمي لليهودية داخل دولـة اسرائيل » (أنظر جوزيف بادي : « القوانين الاساسيـة لدولـة اسرائيل » ـ نيويورك ١٩٦٠ ـ ص ١٥٦) .

وباسم هذا التمييز العنصري الذي ينقل الانتماء اليهودي عن طريق الام لم يتزوج نساء عربيات سوى ثلاثة من اليهود منـذ قيـام دولة اسرائيل .

وأما زعم استخلاص ثيوقراطية بالية من الكتاب المقدس علـى طريقة « السياسة المستخلصة من الكتاب المقدس عند بوسيه » لتبرير « الحق المقدس » للملوك ، فان على القادة الاسرائيليين أن يذكروا انه وجد في كل أوروبا يهود وقفوا ضد « الحق المقدس » ليضعوا البيان العالمي لحقوق الانسان ، وان من الزيغ الاجرامي في القرن العشرين أن نافق على انفسنا زاعمين ان ثمة « حقا مقدسا » لشعب مختار .

٢ ـ وكما يتضمن الاساس الديني للصهيونية تصورا قبليا للدين فان المطالبة « بالحقوق التاريخية » لليهود في فلسطين تستند الـى تعمية وتزييف تاريخيين . فالبلاد التي يسميها الكتاب المقـدس أرض كنعان ، والتي سميت بفلسطـيـن منذ أيام الرومـان (أي أرض الفلستينيين) تقع على « الهلال الخصيب » الذي يمتد من الفرات الى النيل ، وهو موقع تاريخي عبرته وامتزجت فيه كثير من الشعوب.

وحين جاءت قبائل ابراهام في القرن الثاني عشر قبل الميلاد مـن أراضي أور فيما بين النهرين لتستقر في أرض كنعان فانها لم تأت الى صحراء مهجورة ، ولم تكن أول من يقطن هذه الارض ، فقد وصل اليها الاموريون قبلهم بثمانمائة عام ، وجاءها الاراميون في القرن الثاني عشر قبل الميلاد ، وبعدهم بقليل نزل الفلستينيون في المنطقة الساحلية ، ولم يطرد داود الفلستينيين والاراميين ـ نحو ألف عام قبل الميلاد ـ الا عن طريق الحرب .

ثم اصبحت البلاد بعد ذلك اقليما اشوريا في القرن الثامن قبل الميلاد ، وغدت فيما بعد اقليما رومانيا ثم فارسيا ثم عثمانيا قبل أن تنتقل الى أيدي المستعمرين الانكليز .

فاي تلاعب تاريخي هذا الذي لا يذكر من هذا التاريخ كله سوى بضعة أحداث : هجرة ابراهيم من بين كل الهجرات ، ومملكة داود من بين كل الممالك ، وثورة المكابيين من بين كل الثورات .

ان هذه النزعة الاستبعادية عارية من الاساس تماما ، كما لو زعم البريتون ـ وهم أحفاد السلت الذين أقاموا في الارض التي أصبحت اليوم فرنسا في العصر الذي هاجر فيه ابراهيم الـى ارض كنعان ـ ان فرنسا ملك لهم بحكم الحق التاريخي .

غير ان هذه الاسطورة التاريخية هي التي تغرس في أذهان الشباب الاسرائيلي في المدارس ، والاحداث التاريخية ذات الاهمية في كتب التاريخ المدرسية الاسرائيلية هي تلك التي تخص اليهـود وحدهم .

ووفق ما يتلقاه هؤلاء الاطفال من تعليم لم يحدث شيء في فلسطين منذ ثورة بركوخبا في القرن الاول ، وتدمير الهيكـل حتى هرتزل ومولد الصهيونية : لا مقدم الاسلام ، ولا الحملات الصليبية ، ولا غزو المغول، ولا معارك العرب ضد السيطرة العثمانية .

ان انكار الوجود على كل ما ليس يهوديا في اسرائيل سمة مـن سمات الروح الصهيونية . انه مبدؤها الاساسي .

ان هرتزل لا يشير اشارة واحدة الى العرب في كتابه « الدولـة اليهودية » (١٨٩٦) الذي كان الاساس الذي قامت عليه الصهيونية . وقد أكد هرتزل في عام ١٨٩٥ ان المشروع الصهيوني واضح للغايـة وسهل التحقيق : « اعطاء أرض بلا شعب لشعب بلا أرض » وفي ذلك الوقت كان يعيش في فلسطين نصف مليون عربي .

وحين سئل أينشتاين وايزمان (أحد القادة الرئيسيين للمنظمـة الصهيونية العالمية) : « وماذا سيحـدث للعرب اذا أعطيت فلسطين لليهود ؟ » اجاب وايزمن : « أي عرب ؟ انهم قليلو الشأن » .

وينبغي أن نذكر انه كان هناك في عام ١٨٨٢ ، حين بدأت الهجرة الصهيونية ، ٢٥ ألف يهودي في فلسطين بين نصف مليون من السكان. وفي ١٨ تموز ١٩٤٨ رد بن غوريون على الكونت برنادوت وسيط الامم المتحدة حين طلب منه أن يترك العرب يعودون الى ديارهم فقـال : « سنفعل كل شيء حتى لا يعودوا أبدا » .

٣ ـ ومن هذا التصور القبلي للدين ، وهذه الاسطورة التاريخية تنبع الروح الاستيطانية للصهيونية ، التـي تتسم بنفي حقوق الغير، وثقافة الغير ، ووجود الغير .

وكما قال بوري آفنيري النائب الاسرائيلي السابق : « يوجد في اسرائيل نظام استعماري فيما يتعلق بالسكان العرب » (هاعولام هازيه ٧ آب ١٩٥٤) .

وهذه الاستيطانية تلهم الصهيونية ، في نظريتها وفي ممارستها ، في سياستها الخارجية وفي سياستها الداخلية .

أ ـ ففي النظرية الصهيونية ، ومنذ البدء ، أي في كتاب هرتزل « الدولة اليهودية » الذي أسس المذهب نقرأ : « ان هـذه الدولـة اليهودية في فلسطين ستشكل جزءا من متراس أوروبا ضد آسيا » . ويضيف : « سنكون موقعـا اماميا للحضارة ضد البربرية » . وتلك ذريعة يتذرع بها كل المغامرين الاستعماريين .

ومن الواضح ان هذه الفكرة تغري الاستعماريـيـن من كل نوع ، ومن هنا فانهم لا يكفون عن التضامن مع دولة اسرائيل ، ومنذ عـام ١٩٣٥ طرح اللورد ويدجوود فكرة اقامة الدولة اليهودية باعتبـارها الدومنيون السابع في الكومنولث البريطاني . ويقـول كويستلر : « وسيصبح كومنولث المهاجرين هذا رأس جسر للديمقراطية الاوروبية الى لبنان » ومن الممكن « في فلسطين ـ ووسط سكان من الاوروبيين المتعاطفين ـ اقامة قاعدة راسخة تتحكم في منـافذ الشرق وقنـاة السويس » .

وكانت هذه هي الروح التي صـدر عنها « وعد بلفور » في ٢ تشرين الثاني ١٩١٧ : « ان حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف الى انشاء وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطـين . وسوف تبذل ما في وسعها لتيسير تحقيق هذا الهدف » . وكانت انكلترا في ذلك الحين اكبر دولة استعمارية في العالم .

ويحدد كويستلر بشكل رائع هذا الاصل الاستعماري لفكرة انشاء دولة يهودية في فلسطين فيقول : « انه وثيقة تعد فيه أمة رسميا أمة اخرى ببلاد أمة ثالثة » . وهكذا في الواقع يعمل الاستعماريون في كل

مكان ويتصرفون في الشعوب دون استشارتها .

ب ـ ان التحالف مع الامبرياليين والاستعماريين ـ في مجال السياسة الخارجية ـ سمة دائمة للصهيونية ولقادة اسرائيل .

فمنذ عام ١٨٩٠ كان تيودور هرتزل ـ ابو الصهيونية ـ يسعى للحصول على حماية بسمارك . وفي عام ١٨٩٨ اقترح على غليوم الثالث (وكان معاديا للسامية) اقامة دولة يهودية سنكون « موقعا متقدما للمصالح والحضارة الجرمانية » .

لقد بحث الصهاينة دائما عن التحالف مع دولة أجنبية تتعارض مصالحها مع مصالح الشعوب العربية . ففي العشرينات اسند اليهود على الانكليز ضد العرب في كل ما نجم عن الهجرة من صدامات بين الطائفتين . وعلى العكس في عام ١٩٤٠ ـ وكانت الحرب دائرة ضد هتلر ـ أقام ابراهام شتيرن منظمة ارغون السرية ضد الانكليز .

وبعد الحرب أصبحت الولايات المتحدة هي الامبريالية الاولى ، ووجدت فيها الصهيونية حليفها الرئيسي ، اذ كان ترومان من انصار الهجرة اليهودية غير المحدودة الى فلسطين .

وفي عام ١٩٥٦ ، حين عجزت الحكومة الفرنسية عن ادراك ان الحركة الوطنية الجزائرية هي تعبير عن ارادة عميقة لدى الشعب الجزائري وتصورت انها من تدبير القاهرة ، ارتبطت اسرائيل بها وبالانكليز لتنظيم حملة ضد قناة السويس .

وقادت نفس الروح الاستعمارية دولة اسرائيل الى التصويت في الامم المتحدة ضد استقلال الشعوب الافريقية ، والارتباط بالبرتغال الفاشمة ضد انغولا وموزامبيق ، وبصنائع فيتنام الجنوبية ضد الشعب الفيتنامي ، وبالدول العنصرية في جنوب افريقيا .

٤ ـ ونفس الروح الاستعمارية تتحكم في السياسة الداخلية لدولة اسرائيل ، فثمة تمييز ، حتى داخل اليهود ، بين أولئك القادمين من أوروبا وأولئك القادمين من اميركا ، بين « الاشكيناز » والقادمين من دول ليست بالغربية من المشرق أو من المغرب « السفارديم » ، وثلثا العمال غير المؤهلين هم من اليهود غير الغربيين ، وبالرغم من انهم يشكلون ٥٠ ٪ من السكان فليس لهم سوى ٢٠ نائبا بين ١٢٠ نائبا يضمهم الكنيست .

غير ان التمييز صارخ تماما تجاه العرب . فحتى قبل حرب ١٩٦٧ لم يكن العرب يشغلون سوى ٢ ٪ من المناصب الادارية ، وكلها من المناصب الثانوية . ولا يوجد عربي واحد في منصب القضاء أو في الوزارة . وكان لهم ٧ نواب في الكنيست بين ١٢٠ نائبا . وحتى في القطاع الخاص فان العرب الذين يشكلون الآن ١٣ ٪ من السكان لا يمثلون سوى ٤ ٪ في الجامعات أو البنوك أو المكاتب . ويعمل غالبيتهم عمالا زراعيين أو عمال بناء .

غير ان السياسة الاستعمارية تجاه العرب تتجلى على وجه خاص في الاتجاهات الرئيسية الثلاثة للصهيونية في مجال السياسة الداخلية : أرض يهودية ، وعمل يهودي ، وثقافة عبرية .

أ ـ فقد بدأ الصهاينة ككل الاستعماريين بالاستيلاء على الارض اولا عن طريق العنف في عام ١٩٤٨ ـ اذ ولدت اسرائيل عن طريق الحرب ـ ثم بأساليب اغتصاب من نفس طراز أساليب الاستعمار .

وعلى سبيل المثال ، نشر الجيش الاسرائيلي الارهاب بذبح قرى بأسرها بما فيها من رجال ونساء واطفال كما حدث في دير ياسين (ليلة ٩ ـ ١٠ نيسان ١٩٤٧) ، وكما حدث في القدس ويافا واللد والرملة التي انصبت عليها النيران ، ولاذت مئات العائلات الفلسطينية بالفرار هربا من الموت . واصدر القادة الاسرائيليون عندئذ « مرسوم الطوارىء بشأن ملكية الغائبين » في ١٩٤٨ (وقد أصبح هذا « المرسوم » قانونا في عام ١٩٥٠) واعتبر كل الفلسطينيين الذين غادروا ديارهم قبل أول آب ١٩٤٨ من « الغائبين » . وعلى هذا النحو صودر ثلثا الاراضي المملوكة للعرب (٧٠ الف هكتار من ١١٠ الاف هكتار) . وعندما صدر في عام ١٩٥٣ قانون الملكية المغاربة حددت التعويضات على أساس قيمة الارض في عام ١٩٥٠ ، ولكن الليرة الاسرائيلية كانت قد تعرضت لتخفيض قيمتها خمس مرات خلال تلك الفترة .

ومن ناحية أخرى كانت قد بدأت مع الهجرة اليهودية ، وبنفس الاسلوب الاستعماري السافر ، عمليات شراء الاراضي من الملاك الاقطاعيين (الافندية) غير المقيمين ، بحيث طرد الفلاحون الفقراء من الارض التي كانوا يفلحونها نتيجة الترتيبات التي تمت من وراء ظهورهم بين سادتهم القدامى والقادمين الجدد . ولم يعد امامهم ، بعد ان جردوا من أرضهم ، سوى الفرار .

وكثيرا ما يتذرع الصهاينة بأن الاراضي على هذا النحو كانت بورا او لا تفلح بعناية ، وكأنهم جاءوا الى صحراء جرداء . وهم بهذا يتجاهلون ان العرب كانوا يعيشون في وضع استعماري : كانت البلاد الاستعمارية الغربية (فرنسا وانكلترا) تنزح ثرواتهم ، وكانوا ، شأن كل الشعوب المستعمرة ، يرزحون تحت الامية . على حين كان اليهود الغربيون القادمون قد بلغوا ثقافة تماثل ثقافة المستعمرين . وفيما يتعلق بمعدات الزراعة ، كانت الاموال تتدفق عليهم من أوروبا واميركا ، مما أتاح لهم استخدام تقنيات زراعية لا يمكن أن تقارن بعدل بتقنيات الفلاحين الذين فرض عليهم النظام الاستعماري الفقر والبؤس . فخلال الفترة بين عام ١٩٦٧ وعام ١٩٧١ بلغت الاموال التي أرسلها يهود الشتات الى اسرائيل مليارا و ٢٠٠ مليون دولار .

وعندما أخذت دولة اسرائيل مكان المستعمرين القدامى استخدمت نفس الوسائل : فالمساعدات الزراعية في مجال الري كانت توزع بطريقة تنطوي على التفرقة في المعاملة وعلى محاباة دائمة للمزارعين اليهود : فخلال الفترة بين عام ١٩٤٨ وعام ١٩٦٩ ، زادت مساحة الاراضي المروية في القطاع اليهودي من ٢٩ ألف الى ١٦٤ ألف هكتار ، بينما زادت في القطاع العربي من ٨٠٠ الى ٤١٠٠ هكتار . وهكذا ظل النظام الاستعماري قائما بل أصبح أشد وطأة . ويعترف الدكتور روزنفيلد في كتابه « العمال العرب المهاجرون » الذي نشرته الجامعة العبرية بالقدس عام ١٩٧٠ ، بأن الزراعة العربية كانت أحسن حالا في ظل الانتداب البريطاني منها اليوم .

ب ـ ولم يكن شعار « العمل اليهودي » اقل فتكا من شعار « الارض اليهودية » الذي سبقه : كانت الصهيونية حريصة من البداية على عدم توفير العمل الا لليهود . فقد ظلت النقابات بالغة القوة المنضوية في « الاتحاد العام للعمال العبريين في ارض اسرائيل » (الهستدروت) ترفض طويلا قبول العمال العرب في صفوفها . وحين الغيت في عام ١٩٦٦ كلمة « عبري » من اسم النقابات أعلن بن غوريون احتجاجه على ذلك . وينطبق نفس الشيء على الحزب الحاكم في اسرائيل ، فهذا الحزب « العمالي » كما يزعمون يعلن رسميا وبصراحة انه لا يقبل في صفوفه سوى اليهود ويرفض الاغيار (جوييم) .

ويؤكد القادة الاسرائيليون ان ثمة انخفاضا قد حدث في البطالة بين العرب الفلسطينيين منذ عام ١٩٦٧ . وصحيح ان ٥٠ الف عربي يعملون الآن في المنشآت الاسرائيلية بعد أن تعرضوا لاقصاء طويل عن العمل ، ولكن ظروف عملهم ما زالت هي نفس الظروف التي كان يعمل فيها كل الخاضعين للاستعمار : فعند تساوي المؤهلات يتراوح الفارق بين أجر العامل اليهودي والعربي بين ٣٠ و ٥٠ بالمائة .

كما تتجلى التفرقة في سياسة الاسكان ايضا ، فالدكتور اسرائيل شاحاك رئيس الرابطة الاسرائيلية والاستاذ بالجامعة العبرية بالقدس يخبرنا في كتابه « العنصرية في دولة اسرائيل » (ص ٥٧) ان في اسرائيل مدنا كاملة (الكرمل ، الناصرة ، ايليت ، هاتزور ، ارد ، ميتزب ـ رامان وغيرها) يمنع فيها رسميا سكنى غير اليهود .

ج ـ وتسود نفس الروح الاستعمارية على الصعيد الثقافي . ولن نستطيع تعريف هذه الروح بأفضل مما صنعه أوري أورياني

مستشار رئيس الوزراء الاسرائيلي للشؤون العربية حين قال : « لا ريب ان من الافضل الا يكون هناك طلاب عرب . ولكن هناك أشياء لا تتوقف علينا ولا نستطيع تجنبها وينبغي علينا أن نبحث عن طريقــة لتقليل الاضرار » .

ان الحضارة العربية وتاريخها يتعرضان لتجاهل كامل على نحو ما كان يحدث في ظل الاستعمار البريطاني أو الفرنسي . ومن الامور ذات الدلالة ان ٤ بالمائة فقط من الطلاب المتقدمين لامتحانات البكالوريا في اسرائيل – وكل جيرانها من العرب – يدرسون اللغة العربيــة كلغة ثانية .

انهم يريدون أن يمحوا من أذهان الفلسطينيين أي ذكرى عن ثقافتهم وتاريخهم . فالطلاب العرب يجبرون عــلى دراسة التاريخ اليهودي بأكثر مما يدرسون تاريخهم هم : فالوقت المخصص لدراسة الكتاب المقدس يبلغ ستة أمثال المخصص لدراسة القرآن .

ان مجمل السياسة الاستعمارية العنصرية القائمة على مبادىء الارض العبرية والعمل العبري والثقافة العبرية ، قد عرفه الجنرال موشى دايان تعريفا رائعا في عام ١٩٦٧ . فحين سئل عن مقــدرة اسرائيل على استيعاب السكان العرب في حالة ضم الاراضي المحتلة الى اسرائيل ، أجاب : « اننــا قادرون على ذلك من النــاحية الاقتصادية ، ولكنني أعتقد أن هذا لن يتمشى مع خططنا المقبلة . ذلك انه لن يتمخض عن دولة يهودية بل عن دولة مزدوجة القومية ، دولة عربية – يهودية . ونحن نسعى الى دولة يهودية » . وهذا تصريح لا تنقصه ميزة الوضوح البالغ .

والواقع ان هذا يمثل القيد الوحيد على الاطماع الاقليمية للزعماء اليهود . واذ يبلغ معدل المواليد ٢،٢ فــي المائة بين اليهــود ، و ٤،٤ في المائة بين العرب ، فقد أعلنت غولدا مائير انها تواجه كابوسا مزعجا حين تفكر « في المواليد الفلسطينيين » .

ان الصهيونية تكرس بالضرورة دولة اسرائيل للتوسع ، ذلك انه اذا جاء الثلاثة عشر مليون يهودي الذين يعيشون في العالم تلبية لنداء الصهاينة ، فان مشكلة « المجال الحيوي » لاسرائيل ستطــرح نفسها بحدة . فالميثولوجيا الصهيونية تمنع اسرائيل من أن تكون دولة قومية ، كالدول الاخرى . لكن الواقع ان الذين جــاءوا لتحقيق « الوعد » لا يمثلون سوى أقلية ضئيلة من بين الذين يقيمون فــي اسرائيل . فقد كان أثر « قانون العودة » بالغ الضآلة ، وكان هذا من حسن الحظ ، ذلك لان اليهود في كل بلاد العالم قد نهضوا بدور بارز في كل مجالات الثقافة والعلم والفن ، وسيكــون من المحزن أن تحقق الصهيونية الهدف الذي حدده مناهضو الساميــة لانفسهم ، الا وهو انتزاع اليهود من أوطانهم لوضعهم في غيتو عالمي . واليهــود الفرنسيون مثل بالغ الدلالة في هذا الصدد ، فبعد توقيع اتفاقيات ايفيان في عام ١٩٦٢ وتحرير الجزائر ، غــادر الجزائر ١٣٠ الف يهودي ، لم يذهب منهم الى اسرائيل سوى ٢٠ ألفا بينما ذهب الى فرنسا ١١٠ آلاف يهودي . ولم تكن هذه الهجرة نتيجة لاضطهاد معاد للسامية ، لاننا نجد نفس النسبة بين المستــوطنين الفرنسيين غير اليهود الذين تركوا الجزائر ، ولم تكن مناهضة السامية سبب هــذه الهجرة ، بل كان سببها الاستعمار الفرنسي السابق للجزائر ، وقــد عرف اليهود الفرنسيون نفس المصير الذي عرفه الفرنسيــون الاخرون في الجزائر .

بالاختصار ، فان المهاجرين اليهود الى اسرائيل يجيئون كلهــم تقريبا هربا من الاضطهاد المناهض للسامية .

ففي عام ١٨٨٠ بلغ عدد اليهود في فلسطين ٢٥ ألفا من مجموع سكانها البالغ عددهم ٥٠٠ الف نسمة .

وابتداء من عام ١٨٨٢ بدأت الهجرة الواسعة النطاق بعد المذابح الكبرى ضد اليهود في روسيا القيصرية .

وهكذا وصل ٥٠ ألف يهودي الى فلسطين خلال الفتــرة مــن عام ١٨٨٢ الى عام ١٩١٧ . ثم جاء اليها بعد ذلك – خلال فتــرة ما بين الحربين – المهاجرون البولنديون ومهاجرو المغرب فرارا من الاضطهاد .

ولكن الكتلة الاكبر جاءت من المانيا بسبب السياسة البشعــة المناهضة للسامية التي انتهجها هتلر : فوصل على هذا النحو قرابــة ٤٠٠ الف يهودي الى فلسطين قبل عام ١٩٤٥ .

وفي عام ١٩٤٧ ، أي في عشية انشاء دولة اسرائيل ، كان هناك ٦٠٠ الف يهودي في فلسطين من مجموع سكانها البالغ مليونا و ٢٥٠ الف نسمة .

وبدأت عندئذ عملية منظمة لنزع الفلسطينيين عن أرضهم . فقبل حرب عام ١٩٤٨ كان هناك ٦٥٠ ألف عربي يعيشون في الاراضي التي اقيمت عليها فيما بعد دولة اسرائيل . وفي عام ١٩٤٩ كان كل ما تبقى منهم هو ١٦٠ ألفا . وبسبب ارتفاع معــدل المواليد أصبح عددهم ٤٥٠ الفا في نهاية عام ١٩٧٠ . وقد كشفت الرابطة الاسرائيلية لحقوق الانسان ان اكثر من ٢٠٠ ألف بيت عربي قد نسف في اسرائيــل والضفة الغربية خلال الفترة بين ١١ يونيــو ١٩٦٧ الى ١٥ نوفمبر عام ١٩٦٩ .

معنى هذا ان الصهيونية تفرض على الفلسطينيين نفس المصير الاليم الذي تعرض له ضحايا المذابح الاجرامية ضد اليهود .

ويهمني أن أقول بوضوح ان العدل يقتضي ان يكون للمضطهدين – وهو وصف ما ينطبق على اليهود في الماضي وبخاصة فــي روسيا وبولندا والمانيا – ملاذ ووطن .

ولكن لماذا ينبغي على الشعب الفلسطيني أن يدفع ثمن جرائم هتلر والقياصرة الروس ، وجرائم العنصرية ومعاداة السامية فــي العالم كله ، وهي جرائم لا مسؤولية فيها عــلى الاطلاق للشعــب الفلسطيني ؟

لقد كان تيودور هرتزل مؤسس الصهيونية يتصور هو نفسه عدة حلول ممكنة (وهي جميعا مستمدة من نفس الروح الاستعمارية) : توطين اليهود في الارجنتين أو في كينيا أو في قبرص ، أي في أراض تسيطر عليها الامبريالية .

وغداة الحرب العالمية الثانية ، أي بعد أن ذبح النازيون بوحشية ستة ملايين يهودي ، كان من الطبيعي أن تقدم جمهورية المانيا الاتحادية أحد أقاليمها الى اليهود كملاذ لهم على سبيل التعويض .

ان مصيبة دولة اسرائيل ، تتمثل في انها خلقت بأيدي الدول الاستعمارية الكبرى وفقا لمبادىء الاستعمار : ففي حين كان اليهــود في عام ١٩٤٧ يملكون حوالي ٦ بالمائة من الارض ، جاء مشروع التقسيم الذي وضعته حينذاك الدول الغربية ليعطيهم ٥٤ بالمائة مــن الارض ، واحتل الصهاينة ٨١ بالمائة في واقع الامر عن طريق العنف والحرب .

وهذا الظلم الذي لحق بالفلسطينيين الذين طردوا من اراضيهم ، وشتتوا ، هو أصل كل النزاعات التي نشبت منذ ذلك الحين . وقد تفاقم هذا الظلم في يونيو ١٩٦٧ ، فقد قام السلاح الجوي الاسرائيلي دون اعلان للحرب بتدمير الطيران المصري ، مقلدا بذلك الطريقة التي استخدمها الفاشيون اليابانيون حين حطموا الاسطول الاميركــي في بيرل هاربور .

ومنذ ذلك الحين لم يحترم القادة الصهاينة قط قرارات مجلس الامن او النداءات التي وجهها اليهم ، وواصلوا احتلال الاراضــي الفلسطينية التي استولوا عليها بعد « حرب الايام الستة » .

* * *

ما هي اذن الحلول الممكنة لهذا النزاع الدائم الذي يعد اثرا

من آثار الاستعمار ؟

لقد عرض ياسر عرفات المشكلة بوضوح في الامم المتحدة حين تحدث في ١٣ نوفمبر ١٩٧٤ عن موقف منظمة التحرير الفلسطينية فقال : « ان ثورتنا لا تنطلق من مواقف عنصرية او دينيه . فهي ليست موجهة ضد الانسان اليهودي بوصفه يهوديا ، بل ضد الصهيونية العنصرية والعدوان . نحن نناضل حتى يستطيع اليهودي والمسيحي والمسلم ان يعيشوا معا على قدم المساواة دون اي تمييز عنصري أو ديني . ونحن لا نفرق بين اليهوديه والمسيحية . فنحن نعارض الصهيونية الاستعمارية ولكننا نحترم الدين اليهودي لانه جزء من تراثنا » .

ان المشكلة الفلسطينية لا يمكن أن تحل الا بمثل هذه الروح ، اي بوضع حد لكل المناورات الخارجية للامبريالية ، وبالاعتراف بحق الجميع في تقرير المصير وفي العودة الى أراضيهم . وهذه العودة الى الارض لا يطالب بها الفلسطينيون باسم « حقوق تاريخية » مزعومة يعود تاريخها الى آلاف مضت من السنين ، وانما باسم العدالة الراهنة لا اكثر ، ومن أجل حقهم في العمل على الارض التي انتزعت منهم وحقهم في الا يكونوا غرباء في وطنهم .

وليس هناك من شك في ان الطريق سيكون طويلا ، وانه لا يمر باستعباد الفلسطينيين أو بتدمير اسرائيل .

فكما يقول ياسر عرفات : « لقد عرف شعبنا على امتداد سنوات طويلة ويلات الحرب والدمار والتشريد والطرد والارهاب ... ولكن هذا كله لم يجعلنا عنصريين . ولهذا السبب فاننا نشعر بالالم للتفرقة التي عانى منها اليهود بسبب معتقداتهم » . وعلى هذه القاعدة يمكن أن تنشأ – كما تقترح منظمة التحرير الفلسطينية منذ عام ١٩٦٧ – دولة ديمقراطية وعلمانية يعيش فيها اليهود والعرب كمواطنين متساوين في الحقوق والواجبات .

ولكي يصبح تقرير المصير ممكنا ، هناك عدة شروط مسبقة لا بد من توفيرها : ينبغي أولا أن ينهي القادة الاسرائيليون احتلالهم للاراضي التي استولوا عليها في عام ١٩٦٧ ، وهو الامر الذي لم تكف الامم المتحدة عن المطالبة به .

ولا يمكن بعد ذلك أن يكون هناك حل سلمي للمشكلة طالما استمر القادة الاسرائيليون في انتهاج سياسة صهيونية تدفعهم الى التوسع وتمنع اسرائيل من ان تكون دولة قومية كالدول الاخرى . ان الصهيونية هي الد أعداء اسرائيل ، فهي اذ تجعل من اسرائيل جيبا غربيا في الشرق الاوسط وتمنعها من الاندماج في مجموع شعوب الشرق الاوسط ، تحكم على اسرائيل بوضع شبيه بوضع الصليبيين المسيحيين منذ ثمانية قرون .

وفي سبتمبر ١٩٦٧ شبه الجنرال اسحق رابين ، القائد الاعلى للجيش الاسرائيلي ، موقف الصهاينة بموقف الصليبيين . وينبغي أن يتأمل الصهاينة هذه المقارنة .

فالصهاينة يبحثون مثل الصليبيين عن تبرير ديني ، وهم يرفضون مثلهم الاندماج في السكان المحليين ، ويعتمدون فقط على التفوق العسكري . والصهاينة مثل الصليبيين يعتمدون على التدفق المستمر لرؤوس الاموال القادمة من الغرب في صورة تبرعات واسلحة ورسوم حج . لكن الصليبيين انتهوا بفشل ذريع : فبعد حروب استغرقت ثمانية اجيال ، واستمرت منذ الاستيلاء على القدس في عام ١٠٩٩ حتى رحيل آخر صليبي من عكا في عام ١٢٩١ ، طرد الصليبيون الى البحر .

ان على الشعب الاسرائيلي ان يتأمل هذه التجربة التاريخية ، وان يدرك ان الصهيونية تقوده الى حالة من الحرب الدائمة على المدى القصير والى الاخفاق الكامل على المدى الطويل .

اما اذا وعى الشعب الاسرائيلي أخطار الايديولوجية الاستعمارية للصهيونية ، فانه يستطيع أن يقيم مجتمعا لن يكون عندئذ ثيوقراطية انقضى عهدها بل سيكون مجتمعا علمانيا متسامحا ، وسيتاح له بوجه خاص الفرصة لكي يندمج باخلاص في مجموع الشرق الاوسط بدلا من أن يكون جيبا غربيا معزولا .

صحيح أنه توجد عقبات أخرى امام اقرار سلام دائم يقوم على حق تقرير المصير في فلسطين ، والنظام الملكي الهاشمي الحالي في الاردن هو الذي يشبه الثيوقراطية الاسرائيلية ، ويضع يده على أرض فلسطينية ، ويتواطأ مع اسرائيل والولايات المتحدة في ذبح الفلسطينيين في الاردن خلال « ايلول الاسود » عام ١٩٧٠ .

وليست المشكلة الفلسطينية مشكلة حدود ، ولا هي مشكلة جنس ، ولا مشكلة دين ، انها ليست مشكلة « حقوق تاريخية » ، فليس لاحد في العالم « حق تاريخي » مزعوم ممتاز يقوم على أسطورة، سواء كانت « عبء الرجل الابيض » « برسالته المدنية » المزعومة التي تغنى بها رينشارد كيبلنج كداعية للاستعمار الانكليزي ، ام كانت أسطورة « الجنس الآري » كجنس مختار التي استخدمها هتلر لتبرير مزاعمه عن الفراغ الحيوي ، أو الايديولوجيه الصهيونية المهلكة للفلسطينيين والقاضية على الاسرائيليين .

ان المشكلة الفلسطينية مشكلة سياسية واجتماعية . ومفتاحها هو الاعتراف للجميع بحق تقرير المصير .

ونظرية « الحقوق التاريخية » ستقود حتما الى اعادة تشكيل خريطة العالم بقنابل المدافع .

وينبغي لنا أن نتأمل مثال افريقيا . فلا شك ان الحدود الراهنة لغالبية الدول الافريقية هي من تركة الاستعماريين ، الذين قطعوا أوصال افريقيا بشكل تعسفي في مؤتمر برلين عام ١٨٨٥ وفق مصالحهم وحدها . وبعد الاستقلال توفر لرؤساء الدول الافريقية من الحكمة ما دفعهم الى عدم تغيير هذه الحدود . ولا شك ان افريقيا كانت ستغرق في النيران لو انهم ارادوا – باسم « الحقوق التاريخية » – بعث امبراطورية الماندينج مثلا او امبراطورية سنغاي او سيادة البوهل . وليست هذه الحكومة سوى المرحلة الاولى الى ان تتوفر وحدة افريقية راسخة حقا ، لا على أساس الحقوق التاريخية » اي على أساس الماضي ، وانما على أساس اشكال التعاون بين الافريقيين التي تتمشى مع المطالب الجديدة للشعوب ، اي على أساس المستقبل .

وفي وجه كل أشكال الاستعباد العنصري أو الديني أو الحضاري التي تتخفى بستار « الحقوق التاريخية » ليس ثمة من حل الا عن طريق الحرص الشامل على النظر الى الانسان الآخر . ان الانسان الذي يختلف عني ، كجزء من ذاتي ، هو وحده الذي يمكن ان يجعل مني انسانا كاملا .

قال ماركس : « ان شعبا يقهر غيره لا يمكن ان يكون شعبا حرا » .

وقد اكد ياسر عرفات ان الفلسطينيين لا يستلهمون روح العنصرية ولا الثأر ، وانما يقودهم الحرص على وضع حد للانغلاق ، وعلى أن يكسبوا للجميع الحق في تقرير المصير . وعن هذا الطريق وحده يمكن لفلسطين – كما لغيرها من انحاء العالم – أن تبني مستقبلا انسانيا اللائق .

روجيه غارودي

السيد يسين

الصهيونية ايديولوجية عنصرية

تعريف بالمصطلحات الاساسية

أثار القرار الذي أصدرته الجمعية العامة للامم المتحدة الخاص باعتبار الصهيونية صورة من صور العنصرية ردود افعال واسعة المدى. والحقيقة ان هذا القرار يؤكد اهميـــة تأصيل دراسة الظــاهرة الصهيونية التي قامت على اساسها عملية الاستيطان الاستعماري في فلسطين . وتركز دراستنا على الصهيونية باعتبارها ايديولوجيـــة عنصرية ، ويقتضي ذلك منذ البداية تحديدا لما نعنيه بالايديولوجية والعنصرية .

١ ــ الايديولوجية :

ويمكن لنا أن نقرر ان مفهوم الايديولوجية من المفاهيم التــي تعددت الاتجاهات بصدد تعريفها (٢) . غير انه يمكن ــ اذا ما تبينــا وجهة نظر آدم شاف ــ (٣) أن نقسم التعريفات التي أعطيت للايديولوجية ــ بوجه عام ــ الى ثلاث فئات : التعريفات التكوينية ، والتعريفـات البنيانية ، والتعريفات الوظيفية .

ــ والتعريف التكويني Genetique للايديولوجية ينطلق من الظروف التي أنبتتها أو صاحبت نشأتها .

ــ اما التعريف البنياني Structurale للايديولوجية فهو ينطلق من السمات التي تميز ــ من وجهة النظر المنطقية أو من وجهة نظر المعرفة ــ الاحكام والقضايا التي تكون الايديولوجية عن غيرهــا من الايديولوجيات من ناحية ، أو عن غيرها من الابنية الفكرية الاخرى كالنظريات العلمية من ناحية اخرى .

واخيرا فالتعـــريف الوظيفـــي Fonctionnele للايديولوجية يركز على ويشير الى الوظائف التي تقوم بها الايديولوجية في مواجهة المجتمع والجماعات الاجتماعية والافراد .

وقد عمد آدم شاف الى تبني التعريف الوظيفي للايديولوجية ، وذلك لانه يرى انه اكثر تعريفات الايديولوجية وصفية وحيادا ، وهو بذلك يمكن ان يكون اكثر التعريفات قبولا لدى وجهات النظر المختلفة . وفي هذا الضوء يقترح آدم شاف التعريف التالي :

« الايديولوجية هي نسق من الافكار يقوم ــ في ارتكازه علــى نسق محدد من القيم ــ بتحديد اتجاهات الناس وسلوكهم ازاء الاغراض المتبناة المتعلقة بتطور المجتمع ، أو الجماعـــــات الاجتماعيـــة او الافراد » .

وبالرغم من ان هذا التعريف الوظيفي يمكن قبوله بوجه عام ، لانه ينطبق على الصهيونية كما ينطبق على غيرها من الايديولوجيات الا ان استبعاد آدم شاف للتعريفات التكوينية والتعريفات البنيانية مسالة غير مقبولة . ذلك انه لا يكفي ان نشير الى الوظيفة او الوظائف التي تقوم بها الايديولوجية ، ولكن ينبغي ــ اذا ما كنا في سياق دراسة نقدية ــ ان نحدد الاصول التكوينية للايديولوجيـــة محل الدراسة ، وكذلك أن نبرز العناصر الاساسية الفكرية المكونة لها . وينطبق هـذا على وجه الخصوص على الصهيونية ، فلا يمكن لنا ان نفهم الوظـائف التي تقوم بها بالنسبة لجماعات الصهيونيين ، بغير ان نحدد أصولها وبنـاءهـا الداخلـي .

٢ ــ العنصريـــــة :

تقوم العنصرية على فكرة رئيسية مؤداها ان مجموعة محددة مـن البشر يتسمون بكونهم طبيعيا أسمى من غيرهم (٤) . وعادة ما يتـم توصيف السمات المميزة للجماعة المختارة سواء عـــلى أساس فيزيقي يتعلق بالتكوين الجسمي ، أو على أساس حضاري خالص يتعلق بابراز السمات الثقافية التي تميز الجماعة المختارة . وهناك ايضا عدد كبير من السمات والقيم عادة ما ينظر اليها باعتبارها علامات على السمـو والامتياز مثل العبقرية العسكرية والتفوق التكنولوجي ، او كما يقرر الصهاينة انهم أسمى الجماعات الانسانية لانهم شعب الله المختـار . وايا كان الجنس الذي تزعم الايديولوجيات العنصرية تفوقه وسموه ، فان العنصري عادة ما يؤكد ان جماعته التي يحاول اعلاء شانها سامية من وجهة النظر البيولوجية ، ومن ثم فان هذا السمو ــ ما دام يرتد الى اصل بيولوجي ــ سيستمر الى الابد . ومن أبرز المذاهب العنصرية في العصر الحديث ، الايديولوجية النازية ، التي كانت لها رؤيـــة تسعى لتحقيق سلام « يؤسس بواسطة السيف المنتصر لشعب مكـون من السادة ، سيضع العالم في خدمة حضارة ارقى » (٥) . ومن ناحية اخرى أقامت اليابان قبل هزيمتها في الحرب العالمية الثانية قوميتهـا المتطرفة وسياستها التوسعية على اسطورة قومية عنصرية . واذا انتقلنا الى افريقيا نجد ان العنصرية تتمثل في محاولة اقامة فجوات لا يمكن سدها بين البيض المستعمرين والسود أهالي البلاد الاصليين . وقـد تحدثت سارة ميللين في العشرينات عن جنوب افريقيـــا مقررة ان « الفجوة بين الاسود والابيض بالغة الاتساع بحيث لا يمكن سدها » (٦) ونفس هذا الحكم نجده ــ بصيغة اخرى ــ لدى غلاة المفكرين الصهيونيين حين يقررون ان هناك فروقا اساسية بين اليهود من ناحية وبين «الاغيار» من ناحية اخرى ، ومن هنا السمة النفسية السائدة لدى اليهـود وهي الشك في كل من هو غير يهودي .

ولقد استخدمت العنصرية لتبرير أوضاع اقتصادية وسياسيـة واجتماعية بالغة التنوع . واذا استقرانا التاريخ الاستعماري الامريكي في سنواته الباكرة ــ على سبيل المثال ــ فاننا نجد ان المجتمع الامريكي الذي كانت تسوده نزعات دينية قوية في هذا الوقت ، كان لا بد لـه

ان يبحث عن تبرير لنظـــام العبودية الـــذي فرضه على الزنوج ، وخصوصا بعد تحولهم الى المسيحية ، فالدين المسيحي لا يسمـــح لمسيحي بأن يمتلك ويستعبد مسيحيا آخر ، وكـــانت العنصرية هي المخرج ، على أساس ان الزنوج جنس أدنى مرتبة من البيض مما يبرر استعبادهم ، وذلك ــ كما قرر جيربخان بصراحة يحسد عليها ــ ان الملكية هي الملكية ، وهي لذلك تحتاج لحمايتها الى حجج وجيهة .

ومن ناحية اخرى اغرق العنصريون الالمان في اسباغ الصفـــات الرديئة على اليابانيين ، وكثيرا ما تحدثوا عـــن « الخطر الاصفر » ، وكانوا ينعتون اليابانيين بانهم « قردة مدربون » ، غير انه لما استدعت التطورات السياسية ضرورة ضم اليابان الى دول المحور انبرى « علماء الاجناس » الالمان يتحدثون عن اليابانيين بكونهم ــ في نهايـة الامر ــ ينتمون الى الجنس الآري .

والواقع ان الفكر العنصري الحديث يستمد أصوله من كتابات الكاتب الفرنسي دي جوبنو الذي نشر بين عامي ١٨٥٣ ــ ١٨٥٥ كتابا شهيرا عنوانه « دراسة في عدم تساوي الاجناس البشرية » (٧) . وقد ضمن جوبنو هذا الكتاب نظريته العنصريةالكاملة ، التي هي بمثابة تفسير عنصري للتاريخ الانساني . ففي وجهة نظره ، اذا ما أردنا أن نبحث أسباب صعود وانهيار المجتمعات والحضارات الانسانية ، فعبثا نجدها في الاسباب الاقتصادية أو السياسية أو الدينية أو الاجتماعية. ذلك ان الاسباب الحقيقية ترد للعامل العنصري . ومن ناحية أخرى ، فقد زعم جوبنو ان الاجناس الانسانية يمكن تصنيفها الى أجناس ممتازة واجناس منحطة . والاجناس الاولى قادرة على التقدم ، اما الاجنـاس الثانية فمحكوم عليها بالتخلف الابدي .

وقد سار على خطى جوبنو عدد آخر من الكتاب والباحثين ، من ابرزهم تشامبرلين في كتابه « أساس القرن التاسع عشر » وكذلك عالم الانثروبولوجيا الفرنسي فاشي دي لابوج وعالم الانثروبولوجيا الالماني اوتو آمون (٨) .

واذا كانت العنصرية الحديثة قد ولدت على أيدي جوبنو فـي القرن التاسع عشر ، فلم يكن ذلك في الحقيقة مجرد صدفة . ذلك ان علم اجتماع المعرفة قد علمنا ان الافكار لا تنشأ وتتطور وتتغير في فراغ، وانما لا بد من ربطها باللحظة التاريخية وبنوعية البناء الاجتمـــاعي السائد في المجتمع . واذا طبقنا هذا المنهج ، اكتشفنا ان صعود نجم الفكر العنصري ، قد صاحب نشوء واتساع النظام الامبريالي العالمي الذي قام على استعمار ونهب شعوب العالم الثالث . وكان لا بد لـه حتى ينجز مهمته أن يجد المبرر لذلك ، وهكذا ظهرت دعاوى « عبء الرجل الابيض » في تمدين الشعوب المتخلفة وغيرها من الصيغ العنصرية التي قصد بها ايجاد السند الفكري للعملية الاستعمارية .

من هنا نكتشف الصلة الوثيقة بين العنصريـــة والاستعمار ، ولذلك ليس غريبا ان نجد الصهيونية باعتبارها ايديولوجية عنصرية ، هي الحركة السياسية التي قام على اساسها الاستعمار الاستيطاني في فلسطين .

الصهيونية وبناء المجتمع الاسرائيلي العنصري

أولا : بناء المجتمع اليهودي في فلسطين :

نشأ المجتمع اليهودي في فلسطين وتبلور نتيجة لجهود الجماعات الصهيونية التي ظهرت في اوروبا الشرقية والوسطى ، وذلك في أواخر القرن التاسع عشر . وقد رفعت هذه الجماعات الصهيونية شعـــارا مؤداه « انه لا يمكن ممارسة حياة يهودية صحيحة في أي مجتمـــع حديث خارج فلسطين » . وزعمت الصهيونية أن الحياة في ظـــل المجتمعات الأوروبية الحديثة من شأنها أن تجعل اليهود يتمزقون بـــين السحق الروحي والحضاري ــ الـــذي سيترتب على خنق حياتهم التقليدية والمجتمعية تحت وطأة التنظيمات الاقتصادية والسياسيـــة الحديثة ــ والفناء المادي عن طريق « الاندماج التام » في المجتمـع .

ومن هنا زعمت الصهيونية انه في فلسطين فقط يمكن ان ينشأ مجتمع يهودي حديث ، حيث يمكن التأليف بين اليهودية والحضارة الانسانية العامة ــ او بعبارة اخرى ــ بين الاصالة والمعاصرة ، وتبني المجتمـع اليهودي في فلسطين ايديولوجية متكاملة بمعنى انه صاغ نسقا محددا من الافكار المترابطة فيما بينها بطريقة عضوية وجعلها دليلا للعمـل وتقنينا للسلوك ، وقد انطلق من ايديولوجيـة « الريـادة » نسبـة « للرواد » الذين هم في الحقيقة طلائع المستعمرين الاوائل الذين هبطوا الى أرض فلسطين ليكونوا مقـدمة الاستعمار الاستيطاني لفلسطين .

وحاولت الصهيونية أن تبني نموذجا مثاليا « للرائد » الذي صـــور باعتباره اليهودي الامثل ، ومن هنا ألح القادة الصهيونيون الاوائل على ضرورة ان يطابق المستوطنون انفسهم واتجاهاتهم وسلوكهم مع السمات التي يتميز بها وأهمها التضحية . فالرائد هو الشخص الذي عـلى استعداد لحرمان نفسه من متع الحياة والفوائد المادية ، وهو قـادر على أن يطوع أسلوب حياته ليعيش عيشة متقشفة . ولم يكن هـذا التقشف مقصودا لذاته ــ بالرغم من انه أصبح بعد ذلك اتجاها سائدا ــ ولكن بغرض القيام بالاعباء الجسيمة التي حددتها لنفسها جماعات الرواد لخلق المجتمع اليهودي في فلسطين .

أما السمة الثانية للرائد فهي أن يمارس العمل بنفسه ، مع تحريم العمل المستغل . وقد حدد هذا الاتجاه طبيعـة الانشطة التي وجهت لخلق المجتمع اليهودي في فلسطين ، ونقصد التركيز الشديد عـلى العمل غير المستغل في الميدان الزراعي واليدوي باعتباره وسيـلة رئيسية لبعث شباب « الامة اليهودية » ولخلق انسان يهودي جديد .

وقد ركزت ايديولوجية « الريادة » على فكرتين اساسيتين هما : ضرورة الاعتماد على الاكتفاء الذاتي ، وأهمية تنمية وسـائل الدفاع

والحقيقة ان ايديولوجية الريادة التي كـانت الموجه الرئيسي ــ بما تضمنته من مبادىء وقيم واستراتيجيات ــ لجماعات المستعمرين الصهيونيين الاوائل في فلسطين ، لتكشف لو حللناها بدقة عن جـذور الفكر العنصري الذي صدرت عنه الصهيونية .

ويتمثل ذلك أساسا في المهام التي ادعتها الصهيونية لنفسهـا وهي بصدد خلقها للمجتمع اليهـــودي في فلسطين ، وفــي نظرة الصهيونيين الى العرب الفلسطينيين أهل البلاد الاصليين ، وأخيرا في السياسات الاستيطانية التي كان أبرزها اقتحام الارض والعمـل والحراسة والانتاج .

١ ــ لقد زعمت الصهيونية أولا انها ستنهض فـي فلسطين بعبء « رسالة حضارية » تتمثل في تمدين وتحضير فلسطين . وهذهالدعوى تتطابق تماما مع الفكر العنصري الراسمـــالي الاوروبي فـي القرن التاسع عشر الذي صاغ هذه الفكرة لكي تكون تبريرا ثقافيا « لاستعمار الشعوب المتخلفة » واستغلالها من قبل الراسمالية الاوروبيـة تحت شعار « اعدادها » و « تمدينها » لتصبح في مستوى يسمح لهـا بأن تحكم نفسها . ويشهد على ذلك ما قرره المفكر الصهيوني موسى هس من ان رسالة الامة اليهودية ودولتها في فلسطين هي حماية « نقطـة التقاطع والالتقاء بين القارات الثلاث » . ويصف هذه الرسالة بقوله : « وسيعيد راسمالكم الحياة للارض القاحلة وسيحول عملكم وجهدكم ، مرة اخرى ، التربة القديمة الى وديان مثمرة بعد أن تنقذوا الارض من براثن رمال الصحراء الممتدة . بعد ذلك سوف يقدم لكم العالم مـن جديد آيات الولاء والاحترام » .

ويؤكد هرتزل على الفكرة ذاتها فيقرر :

« وسنكون هناك جزءا من الحاجز الذي يحمي اوروبا في آسيا،

سنكون مخفرا أماميا للحضارة في وجه الهمجية . يتوجب علينا كدولة محايدة ، ان نبقى على اتصال مع كل اوروبا التي سيكون عليها ضمان وجودنا » .

ويزيد ماكس نوردو الفكرة وضوحا ليقرر :

« سوف نبذل وسعنا لكي نعمل في الشرق الادنى ما عمله الانجليز في الهند ، أعني بذلك : النشاط الثقافي وليس السيطرة . نحن ننوي الذهاب الى فلسطين بمثابة الحملة المعمدين للمدنية والتحضر ، ورسالتنا هي توسيع الحدود الاخلاقية لاوروبا حتى نصل الى الفرات » .

وخلاصة ذلك ، أن الصهيونية منذ بداياتها الاولى ، انطلقت من مسلمات الفكر العنصري الاوروبي لتبرير استعمارها لفلسطين ، بما يتضمنه ذلك من النظر الى « اليهود » باعتبارهم جنسا أسمى وأرقى من العرب ، الذين فشلوا في استثمار بلادهم ، وجاء اليهود بكل ما يملكون من مواهب فريدة لكي يقودوهم في مدرج الرقي والتقدم .

٢ ـ ولقد ترتب على هذه النظرة العنصرية المبدئية التي مهدت لعمليات الاستيطان الاستعماري لفلسطين وواكبتها نشوء اتجاه سلبي ازاء العرب الفلسطينيين أهل البلاد يتمثل ليس فقط في عدم الاكتراث بمصيرهم ، بل في ضرورة القضاء عليهم وطردهم خارج الحدود ، لو قاوموا عمليات الاستيطان الاستعماري .

وقد اتبع الاستعمار الاستيطاني الصهيوني هذه السياسة في كل مراحله ، قبل انشاء الدولة وبعدها . وتشهد على ذلك المحاولات الارهابية التي خطط لها قادة اسرائيل لطرد اكبر عدد من الفلسطينيين خارج حدودهم عام ١٩٤٨ . وهناك شواهد ثابتة على ذلك ، وبالرغم من المزاعم الاسرائيلية التي تذهب الى ان القادة العرب هم الذين حثوا الفلسطينيين على الهجرة . واستمرار زحف الاستيطان الاسرائيلي ، وخصوصا بعد حرب يونيو ١٩٦٧ ، ظاهرة ملموسة ، يشهد العالم آثارها ، في شكل مصادرة اراضي الفلسطينيين ونسف منازلهم وطردهم من قراهم وتحريم العودة عليهم .

وهذه على وجه الدقة هي السياسات التي تتبعها نظم الاستعمار الاستيطاني العنصرية .

٣ ـ وتتمثل العنصرية ايضا في السياسات الاستيطانية التي صاغها ومارسها الصهيونيون الاوائل والتي كان أبرزها اقتحام الارض والعمل والحراسة والانتاج (٩) .

أ ـ اقتحام الارض :

استند البرنامج الصهيوني الاستيطاني على عدة مبادىء من اهمها مبدأ اقتحام الارض . ويعني ذلك على وجه التحديد الاستيلاء على أرض فلسطين واستغلالها وانقاذها من سيطرة الاغيار (غير اليهود ـ العرب) عليها . وحاولت القيادات الصهيونية أن تطبع المبدأ بطابع نفسي بالاضافة الى طابعه الاقتصادي الاستغلالي . فاقتحام الارض وغزوها يجعل اليهودي يطهر نفسه ، ويتخلى عن سلوكه الطفيلي الذي تمرس عليه في الشتات ، نتيجة الانقطاع أجيالا طويلة عن الزراعة والصناعة وممارسة الانشطة الانتاجية المختلفة . غير انه من الاهمية بمكان أن نشير الى الطابع الارهابي لعملية اقتحام الارض الفلسطينية وغزوها . فهذه العملية لم تتم عن طريق شرائها من اصحابها ، ولا حتى عن طريق التسلل والخداع ، وانما تم ذلك قسرا باستخدام الهاغانا لوسائلها الارهابية في طرد الفلسطينيين من اراضيهم ، مما جعلها تنجح في أقل من عام واحد (١٩٤٨) في انتزاع مساحة قدرها ٧٦ ٪ من مجموع مساحة فلسطين .

ب ـ اقتحام العمل :

الاستعمار الاستيطاني الصهيوني في فلسطين ليس استعمارا استيطانيا فحسب ، ولكنه أيضا استعمار احلالي ، بمعنى انه كان يطمح ـ لتحقيق حلم الدولة اليهودية النقية ـ الى احلال اليهود محل العرب الفلسطينيين . ولذلك لم يكن كافيا اقتحام الارض ، بل انه ذهب ـ الى ابعد من ذلك ـ في سبيل اقتحام العمل . ونجد هنا ايضا ان مبدأ اقتحام العمل ، الذي كان في حقيقته التوجه الاقتصادي العنصري للاستعمار الاستيطاني الصهيوني ، غلف بغلاف ايديولوجي ، فيذهب بعض دعاته وخصوصا المفكر الصهيوني غوردون الى ان الشعب اليهودي ينبغي ان يعمل من اجل العمل ذاته . وان اقتحام العمل وخصوصا الزراعة والاعمال اليدوية من شأنه ان يوثق صلة اليهودي بالارض والطبيعة ، هذه الصلة التي حرم منها السنين الطوال ، نتيجة للوظائف الطفيلية التي اجبر على أن يمارسها في الشتات .

بعيدا عن كل هذه الافكار المجردة عن العمل العبري وطهارته وضرورته لبعث شخصية اليهودي من جديد ، فقد كشف مبدأ اقتحام العمل عن نفسه ، باعتباره مبدأ عنصريا ترتب عليه انغلاق اليهود على انفسهم من ناحية ، وحجب العمل عن العمال العرب ، في محاولة القضاء عليهم في سوق العمل .

ج ـ اقتحام الحراسة .

يعتبر هذا المبدأ الترجمة العملية لشعار الدفاع الذاتي في ايديولوجية الريادة أو بعبارة أخرى أيديولوجية المستعمرين الصهيونيين الاوائل . فاقتحام الارض واقتحام العمل ، معناه انتزاع الاراضي العربية من اصحابها ، واضعافهم اقتصاديا في سوق العمل تحت شعار العمل العبري ، ويعني ذلك كله احتمال تصاعد مقاومة عربية ضد السياسات اليهودية ، ومن هنا جاء هذا المبدأ ، الذي معناه عدم الاعتماد على العرب في حراسة المستوطنات أو المشاريع الصهيونية وضرورة تشكيل فرق صهيونية للقيام بهذه الوظيفة الحيوية .

د ـ اقتحام الانتاج :

وحتى تكتمل الدورة التي تبدأ باقتحام الارض والعمل والحراسة تأتي أخيرا لمبدأ اقتحام الانتاج . ومعناه ببساطة مقاطعة المنتجات العربية ومنع التعامل مع العرب ، والتعامل مع اليهود وحدهم . وقد قام الهستدروت بدور واضح في فرض العمل العبري ، وفي فرض مبدأ شراء الانتاج اليهودي ومقاطعة الانتاج العربي .

ثانيا : العنصرية في المجتمع الاسرائيلي بعد قيام الدولة عام ١٩٤٨ :

لعبت العنصرية في المرحلة الاولى من الاستعمار الاستيطاني الصهيوني في فلسطين دورا بارزا في بناء المجتمع اليهودي . وهذا الدور ركز في المقام الاول على تثبيت هوية المستعمرين الاوائل القادمين ودعمها ـ باستخدام شعارات شتى ـ ازاء هوية العرب الفلسطينيين. ويمكن القول ان أجيال المستوطنين الاوائل قد نجحوا في اقامة المجتمع اليهودي في فلسطين نتيجة ظروف تاريخية شتى ، لعل من اهمها تدعيم الاستعمار العالمي ممثلا في القوى الكبرى وخصوصا بريطانيا العظمى . ومساعدات الراسمالية الاوروبية اليهودية وعدم قدرة العرب في هذه المرحلة على المقاومة الفعالة المنظمة ، فقد كانت الدول العربية جميعا تقريبا واقعة تحت السيطرة الاجنبية .

وقد ترجم نجاح هذه الجماعات الاستيطانية عن نفسه في انها

استطاعت أن تخلق مؤسسات ومنظمات متعددة اصبحت هي بذاتهـــا فيما بعد نواة أجهزة الدولة بعد اعلانها عام ١٩٤٨ .

قامت الدولة اذن عام ١٩٤٨ . وأدى ذلك بالتالي الى اختفـــاء عديد من الافكار والقضايا التي كانت مثارة في مرحلة الاستيطان الاولى، ومن ناحية أخرى ظهور مشكلات من نوع جديد .

وقد ارتبط انشاء الـــدولة في اسرائيل بثلاث عمليـات رئيسية هي :

تدفق مهاجرين جدد ، وحايز البناء الاقتصادي والاجتماعي ، وتحول صفوة « الرواد » (المستعمرين الاوائل) الى صفوة حاكمه . وقد ادت هذه العمليات الى التأثير الواضح على الهوية الايديولوجيه للمجتمع الاسرائيلي وريث المجتمع اليهودي في فلسطين . ولعل ابرز النتائج التي ظهرت هي انهيار ايديولوجية الريادة ، وذلك في غمار تحول المجتمع من مجتمع زراعي أساسا الى مجتمع صناعي ، وقد تم ذلك في ظل سيادة القطاع الخاص وهيمنته على مقدرات الاقتصـــاد الاسرائيلي ، وبالرغم من الدعاوى الكاذبة عن اشتراكيـــة المجتمـع الاسرائيلي .

وبغير أن نخوض في تفصيلات عملية الانهيار الايديولوجي التي صاحبت عملية التفكك الاجتماعي في المجتمع الاسرائيلي ، نشير الـى ان التغيير الجوهري الذي ظهر عقب انشاء الدولـة ، هـو احساس القيادات الاسرائيلية بضرورة وضع استراتيجية اجتماعية لتنشئـــه الاجيال الجديدة من الاسرائيليين ، وذلك حتى يتكيفوا مع وضعهـم الجديد . فانشاء دولة اسرائيل معناه بداية ظهور تمايز بين اليهــود بوجه عام ، وبين الاسرائيليين مواطني هذه الدولة الجديدة ، ومدى اتصالها او انفصالها عن الهوية اليهودية التقليدية ، وسنناقش ذلك بشيء من التفصيل فيما بعد .

ولكن ما هي ملامح الاستراتيجية النفسية الاجتماعية التي وضعتها الصفوة الحاكمة الاسرائيلية تحديد اتجاهات مطامع عملية التنشئــه الاجتماعية في المجتمع الاسرائيلي ؟

ان هذه الاستراتيجية في حد ذاتها ادت الى نشوء ما يطلق عليه عالم النفس الاسرائيلي جـــورج تامارين « المشكلة او المعضـــلة الاسرائيلية » (١٠) . ويحدد معالمها العامة بكونها تتمثل في التنـاقض الذي يسم الواقع الاجتماعي والروحي في اسرائيل ، ويعني به التعارض بين « العقيدة الاسرائيلية » التي تدعو الى اقامة مجتمـــع ديمقراطي تقدمي ومتنور ، تسوده المساواة ـ والتي تزعم الدعاية الاسرائيلية انه قد تحقق فعلا ـ وبين قوانين الثيوقراطية ـ العنصرية والمناخ السائد الذي يتسم بالتعصب ، والثقافة المنغلقة ، بالاضافة الى الاجـراءات الشمولية القهرية التي تطبقها السلطات الاسرائيلية » .

ان هذه المشكلة تعبر في الواقع عن فشل الصهيونية في تحقيق برنامجها المعلن ، والذي زعم ان انشاء دولة اسرائيل ، هو التجسيد الواقعي للحلم الصهيوني في ان يعيش اليهود لاول مرة في تاريخهـم في اطار طبيعي تختفي فيه اللاسامية ، ويعيش في جنباته شعب الله المختار الذي تهدده مختلف ضروب التهديد عبر تاريخه المتصـل كما يزعم المؤرخون الصهيونيون . ويضع تامارين يده على جذور المشكلة ، فيقرر ان الصراع داخل المجتمع الاسرائيلي ، يكشف عن نفسه فـي التناقض الجذري بين انصار الاتجاهات التي تميل الى صياغة اسرائيل باعتبارها « غيتو » بالمعنى المادي والروحي للكلمة ، وهؤلاء الذيـــن يجاهدون لاقامة مجتمع حر ومفتوح . هذا التعارض الجوهري ، بالاضافة الى الخلاف بين انصار التكامل مع الحضارة الانسانية المعاصرة ، او الانعزال والبعد عنها ، هو جوهر « المشكلة الاسرائيلية » . وفي راي تامارين ان حل هذه المشكلة لن يحدد فقط الملامح الاساسية الاجتماعية والحضارية للدولة ، ولكن أهم من ذلك سيكون حاسما في تحديــد مستقبلها السياسي .

وخلاصة رأي تامارين ، الذي يتفق مع الواقع الى حد كبير ، ان تخطيط الصفوة الحاكمة الاسرائيلية الذي يتمثل في ان تكون اسرائيل قلعة عسكرية حصينة بالنسبة الى جيرانها العرب قد ادى الـى عزل اسرائيل حضاريا ، وتحويلها الى « غيتو » كبير تسوده اتجـاهات حضارية انعزالية ورجعية ، هي في حد ذاتها المناخ الصالح لنمـــو الافكار العنصرية ، وانتشار سياسات التمييز العنصري ضد العرب .

ويكشف عن رجعية الاستراتيجية الاجتماعية الاسرائيلية عديد من الحقائق والظواهر اهمها :

١ ـ قطع أواصر الاتصال بين الشباب الاسرائيلي والعالم ، اللهم الا من خلال برامج التعليم المحافظة ومصادر المعلومات المحلية ، وذلك خوفا من اهتزاز القيم التي تبثها السلطات الاسرائيلية فيهم ، لـــو اتيحت لهم فرصة المقارنة في اطار اوسع .

وبدعوى الخوف من ذوبان الاسرائيليين في مجتمعات اخرى ، أو اعتبارات الامن التي يفرضها الموقف العسكري مع البلاد العربية ، فان الحصار الثقافي قد فرض بالفعل على الشباب الاسرائيلي ، وان كانت اعداد كبيرة قد استطاعت الافلات والسفر الى الخارج والاستقرار في الولايات المتحدة الاميركية .

وقد أدى هذا الحصار الثقافي الى سيادة مشاعر مرضية ازاء اي نقد يوجه الى الممارسة السياسية والاجتماعيـــة في المجتمـع الاسرائيلي ونمو مشاعر الشك ازاء الغرباء ، والتعصب والتطـرف الايديولوجي وكذلك ظهور الفجوة الواسعة بين نصوص القوانيـــن وتطبيقها .

وقد ادت هـذه الظواهر جميعا الى ان يمارس التعصب والتمييز العنصري في المجتمع الاسرائيلي بناء على تطبيق القـــوانين ذاتها ، أو بعبارة عالم النفس الاسرائيلي جورج تامارين « اصبحت هنـاك أسس قانونية لممارسة التعصب والتمييز العنصري في هذا المجتمع » .

ومن الجدير بالاشارة ان هـذا الطابـــع العنصري والتعصبي لم يقتصر أثره على السكان العرب داخل اسرائيل ، ولم يترك بصماته فقط على الطابع الاساسي للشخصية الاسرائيلية البازغة وخصوصـا فيما يتعلق باتجاهاتهم ازاء العرب ، ولكنه أبعد من ذلك اخذ يتـرك آثاره على معاملة اليهود الشرقيين ، وايضا بالنسبة لبعض طـوائف اليهود الغربيين .

والحقيقة ان مظاهر العنصرية في المجتمع الاسرائيلي متعـــدده بالاضافة الى ان بعض صورها لا يمكن فهمه الا بالتحليل المتعمق لعديد من الافكار والايديولوجيات والنظم الاجتماعية السائدة في المجتمـع الاسرائيلي . لكل ذلك نختار فقط ـ لكي تركز البحث ـ موضوعـا لمناقشتها في تأثير الاتجاه العنصري فـي المجتمع الاسرائيلي على اتجاهات الاسرائيليين ازاء العرب ، والاسس القانونية للتعصب والتمييز العنصري في المجتمع الاسرائيلي .

٢ ـ العنصرية واتجاهات الاسرائيليين ازاء العرب :

يمكن القول ان الطابع العنصري السائد في المجتمع الاسرائيلي قد أثر تأثيرا واضحا على اتجاهات الاسرائيليين تجاه العرب . وبالرغم من ان هذه الاتجاهات التي يمكن وصفها بانها عدوانية ، ظلت ثابتة لفترة طويلة من الزمن ، الا ان هناك شواهد على حدوث بعض التغير وخصوصا بعد حرب يونيو ١٩٦٧ ، وازدياد فرص الاحتكاك بين عــرب الضفة الغربية والاسرائيليين وأيضا بعد سياسة الجسور المفتوحـة ، ولا يعني التغير هنا ان اتجاهات الاسرائيليين ازاء العرب اصبحت اقل عدوانية ، ولكنه يعني في المقام الاول ان الفرصة اتسعت امامهـــم للتعامل المباشر مع مجموعات من العرب تختلف الى حد ما ـ نتيجـة ظروف متعددة ـ عن العرب داخل اسرائيل الذين فرضت اسرائيـــل

الحصار المادي عليهم من خلال تحديد اقامتهم في ظل الحكم العسكري.

غير ان أخطر الاتجاهات قاطبة ، هي تلك التي تنمي وتبلور لدى الشباب الاسرائيلي من خلال استراتيجية عنصرية للتنشئة الاجتماعية ، تستخدم في تدعيم الافكار السلبية عن العرب المدرسة والجيش ووسائل الاعلام .

وقد كشفت دراسة قام بها جورج تامارين في اسرائيل عن كل هذه الظواهر . وكان الهدف من الدراسة هو بحث آثار التعصب على الاحكام الاخلاقية من الجوانب التالية :

أ ـ وجود التعصب في ايديولوجية الشباب .

ب ـ تأثير تدريس التوراة للشباب بطريقة غير نقدية على امكانية تشكيل اتجاهات التعصب المختلفة (وخصوصا فكرة « الشعب المختار » ، وسمو الشريعة الموسوية ، ودراسة أفعال الابادة الجماعية التي مارسها الابطال التوراتيون) . وقد اختار تامارين ان يركز على اكثر صور التعصب تطرفا وهي صورة الابادة الكاملة للجماعة المعادية . واعد تامارين لذلك ١.٠٦٦ استمارة ذات محتوى واحد ، أجاب عليها كتابة ٥٦٣ فتى و٥٠٣ فتيات من مختلف السنوات في مختلف المدارس .

وقد تطرقت الاستمارة لسفر « يشوع بن نون » في الكتاب المقدس، الذي يدرس في المدارس الاسرائيلية في الصف الرابع حتى الثامن ، وكان السؤال كما يلي :

« انك تعرف جيدا المقتطفات التالية من « سفر يشوع » :

« هتف الشعب وضرب بالابواق . وحين سمع الشعب صوت البوق هتف هتافا عظيما فسقط السور في مكانه وصعد الشعب الى المدينة كل رجل مع وجهه وأخذوا المدينة . وقضوا على كل من فيها بغير تفرقة بين رجل وامرأة وطفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف » (يشوع ، ٦ ، ٢٠) .

« وأخذ يشوع مقيدة في ذلك اليوم وضربها بحد السيف وحرم ملكها هو وكل نفس بها . لم يبق شارد ، وفعل بملك مقيدة كما فعل بملك أريحا . ثم اجتاز يشوع من مقيدة وكل اسرائيل معه الى لبنة وحارب لبنة . فدفعها الرب هي ايضا بين اسرائيل مع ملكها فضربها بحد السيف وكل نفس بها . لم يبق بها شارد ، وفعل بملكها كما فعل بملك اريحا » (يشوع ، ١٠ ، ٢٨ ـ ٣٠) .

« أجب من فضلك على السؤالين التاليين :

١ ـ هل تعتقد أن يشوع بن نون والاسرائيليين قد تصرفوا تصرفا صحيحا أو غير صحيح ؟

اشرح لماذا لديك مثل هذا الراي بالذات .

٢ ـ لنفترض ان الجيش الاسرائيلي احتل خلال الحرب قرية عربية ، فهل هو حسن أو سيء أن يتصرف على هذا النحو مع سكان هذه القرية ، كما تصرف يشوع بن نون مع شعب اريحا ؟ اشرح لماذا » .

وقرر تامارين انه اختار هذا النص بالذات بالرغم من « ان ابادة الناس بالجملة التي قام بها يشوع بن نون ، ليست المثل الوحيد من هذا النوع في الكتاب المقدس . ولكنه اختاره لان « سفر يشوع بن نون » يحتل مكانا خاصا في نظام التعليم الاسرائيلي .

وقد وزعت هذه الاستمارة في مدارس تل ابيب وقرية بالقرب من الرملة وفي مدينة شارون ومستعمرة معوتشد .

وهذه امثلة من بعض الاجابات :

كتب تلميذ من مدرسة في مدينة شارون :

« كان هدف الحرب هو الاستيلاء على البلاد من أجل الاسرائيليين، ولذلك فقد تصرف الاسرائيليون تصرفا حسنا باحتلالهم المدن ، وقتلهم سكانها . وليس من المرغوب فيه أن يكون في اسرائيل عنصر غريب . ان الناس من مختلف الاديان يمكن ان يؤثروا تأثيرا لا حاجة اليه على الاسرائيليين » .

وكتبت فتاة من مستعمرة معوتشد :

« لقد تصرف يشوع بن نون تصرفا حسنا ، بقتله جميع الناس في أريحا ، ذلك لانه كان من الضروري احتلال البلاد كلها ، ولم يكن لديه وقت لاضاعته مع الاسرى » .

وكانت الاجابات من هذا النوع تشكل ما بين ٦٦ ٪ و ٩٥ ٪ حسب المدرسة والمستعمرة او المدينة .

وعلى سؤال : « هل يمكن في عصرنا تصفية جميع سكان قرية عربية محتلة ؟ » ، أجاب ٣٠ ٪ من التلاميذ بشكل قطعي : « نعم » .

ونورد فيما يلي بعض ما كتبه التلاميذ :

« أعتقد ان كل شيء قد جرى بشكل صحيح . اذ اننا نريد قهر اعدائنا وتوسيع حدودنا . ولكننا نحن أيضا قتلنا العرب ، كما فعل يشوع بن نون والاسرائيليون » ـ (تلميذ في الصف السابع) .

وكتب تلميذ من الصف الثامن :

« في رايي يجب على جيشنا في القرية العربية ان يتصرف مثل يشوع بن نون ، لان العرب هم أعداؤنا ، ولذلك فهم حتى في الاسر سيفتشون عن امكانية ليبطشوا بحراسهم » .

والحقيقة ان هذه النتائج التي تحصلت من بحث نفسي اجتماعي ميداني تتضمن في حد ذاتها كما يقرر تامارين ـ بحق ـ ادانة كاملة للنظام التعليمي الاسرائيلي ، الذي يعمل بتنسيق مع أجهزة التنشئة الاجتماعية الاسرائيلية الاخرى لزرع الاتجاهات العنصرية والتعصبية في وجدان واذهان الشباب الاسرائيلي . وقد أحدثت نتائج هذا البحث عند نشرها ضجة كبرى في اسرائيل ، لسبب بسيط هو انها كشفت بطريقة علمية وموضوعية عن عنصرية المجتمع الاسرائيلي ، وقد دفع عالم النفس الاسرائيلي تامارين ثمن شجاعته الادبية في كشف الوجه القبيح لمجتمعه ، ففصل من عمله كأستاذ بجامعة تل ابيب ، بعد ان اشتهرت قضيته المشار اليها ب « قضية تامارين » . وهكذا يمكن تقدير الآثار المدمرة التي ادت اليها الاستراتيجية الاجتماعية العنصرية التي تتبعها الصفوة الحاكمة الاسرائيلية .

٣ ـ الاسس القانونية للتعصب والتمييز العنصري في اسرائيل :

من الحقائق المعروفة في علم النفس الاجتماعي أن التعصب كظاهرة اجتماعية يمكن أن يوجد في عديد من المجتمعات ، كنتاج لتفاعل عمليات ونظم اجتماعية وممارسات سياسية مختلفة . غير اننا بصدد المجتمع الاسرائيلي نجابه حالة خاصة . ذلك أنه بالاضافة الى ظواهر التعصب التي يمكن ردها الى التفاعلات الاجتماعية المعقدة بين جماعات اجتماعية متعددة المذاهب والاصول والثقافات ، هنا « التعصب القنني » ان صح التعبير . ونعني بذلك ان النظام القانوني الاسرائيلي بما يتضمنه من نظريات قانونية وتشريعات ، يدعم التعصب والتمييز العنصري داخل اسرائيل ، وهو بعد ذلك ترجمة أمينة للصهيونية باعتبارها ايديولوجية عنصرية .

ويقرر جورج تامارين في دراسة له حول هذا الموضوع ، ان خطورة هذه النصوص القانونية ، تتمثل في الآثار التي تتركها في أذهان الناس ، والتي تجعلهم ، في طاعتهم لهذه النصوص ، يحترمون القيم الكامنة وراءها ، ويعتقدون في سلامتها وصحتها ، بالرغم من انها قيم رجعية وعنصرية .

والممارسات التمييزية في اسرائيل ـ بالمعنى الواسع للكلمة بما يجعلها تتضمن كل صور التسامح ـ والتي لها اسس قانونية في

اسرائيل ، تتركز في ثلاثة ميادين :

١ ــ انكار بعض حقوق الانسان الاساسية بواسطة قوانين تمييزية.

٢ ــ خرق حرية الاعتقاد بواسطة الاكراه الديني .

٣ ــ تشريعات تتضمن تمييزا عنصريا موجها ضد الاقلية العربية .

ويرى تامارين ان اخطر القوانين المضادة للديمقراطية والتي تتسم بطابع رجعي هو القانون الخاص بتنظيم المحاكم الحاخامية الصادر عام ١٩٥٣ والذي هو صورة معدلة لتشريع صدر ايام الانتداب البريطاني على فلسطين . وينص هذا القانون على ان مسائل الاحوال الشخصية يحكم فيها على اساس قوانين الشريعة اليهودية .

وهذا القانون يعتبره جورج تامارين اكثر القوانين رجعية للاسباب التالية :

أ ــ انه يخلق موقفا عنصريا عن طريق منعه للزواج المختلط بين اليهود وغير اليهود ، وايضا بين بعض فئات اليهود وفئات يهودية اخرى ، وهو بالتالي يخالف مخالفة صريحة الفقرة ٢ من اعلان حقوق الانسان التي اصدرتها الامم المتحدة . وهذا القانون ــ من وجهة النظر الاجتماعية النفسية ــ أحد المصادر الرئيسية للتعصب ، ويؤثر ايضا في القسم المتعصب غير المتدين من الجمهور الاسرائيلي ، وذلك بتدعيم اتجاه الرفض ازاء الاغيار .

ب ــ انه يخلق فئة مستقلة من القضاة ، لا تحكم وفق قوانين الدولة ، وفي نفس الوقت فهو يمارس التمييز ضد المرأة التي لا تكون قاضية دينية ، وايضا يميز بين فئتين من المحامين ، الفئة التي يسمح لها بالمرافعة أمام المحاكم الدينية ، والفئة التي لا يسمح لها بذلك .

جـ ــ يتسبب في التشكيك في صحة عقود الزواج والطلاق التي أبرمت خارج اسرائيل وفق القانون المدني وهو بالتالي يخرق القواعد المستقرة في القانون الدولي الخاص .

د ــ يدعم مبدأ عدم المساواة بين اليهود وغير اليهود . ذلك ان غير اليهود لا يقبلون كشهود أمام المحاكم الدينية .

هـ ــ يخرق حرية الاعتقاد وذلك باجبار الاشخاص غير المتدينين ان يتزوجوا (او يطلقوا) من خلال ممارسة طقوس دينية تقليدية ، واحيانا يتطلب منهم الارتداد عن عقيدتهم حتى يسمح لهم بالزواج .

و ــ ينكر على المحكمة العليا الاسرائيلية حقها في صحة حالات الزواج الممنوعة وفقا للقوانين الدينية .

ويرجع تامارين صعوبة تغيير هذا القانون الذي يتضمن بداخله نظرة عنصرية رجعية لكل شخص ليس يهوديا ، الى العقلية المتحجرة للجيل القديم من الصفوة السياسية الحاكمة . وهذا الجيل القديم المتشبث بمبادئ الصهيونية ما يزال يرى ان تدعيم الدين من شانه تدعيم الاواصر بين المواطنين اليهود الذين ينتمون الى المجتمع الاسرائيلي .

واذا أضفنا الى ذلك ، القوانين الجائرة التي طبقت وما زالت تطبق على العرب الفلسطينيين في اسرائيل ، ادركنا كيف يكشف المجتمع الاسرائيلي عن وجهه العنصري الصريح في التعامل مع العرب الذين كانوا يوما الاغلبية واهل البلاد الاصليين .

تحليل سياسي لتشكيل الشخصية الاسرائيلية العنصرية

أولا : السمات الاساسية للشخصية الاسرائيلية

ايديولوجية عنصرية هي الصهيونية ، قامت على أساس عدد من الاوهام والاساطير الزائفة كان لا بد لها حين تؤسس تجمعا بشريا من خلال عملية استعمار استيطاني ، ان تطبع هذا التجمع بطابعها ، عن طريق فرض ونشر وتدعيم استراتيجية عدوانية وعنصرية للتنشئة الاجتماعية . وقد ادى ذلك كله الى ظهور الشخصية الاسرائيلية وهي متأثرة بالجذور العنصرية الراسخة للصهيونية .

والحقيقة انه لا يمكن لنا ان نفهم الطابع العنصري للايديولوجية الصهيونية بغير تعقب آثاره على مستوى المجتمع والشخصية معا . واذا كنا قد عرضنا للمجتمع الاسرائيلي من زاوية تشريح استراتيجية التنشئة الاجتماعية العدوانية التي فرضتها الصفوة الاسرائيلية على الجماهير اليهودية في اسرائيل ، فانه من الاهمية بمكان أن تحلل اخيرا عناصر ومقومات الشخصية الاسرائيلية ، التي هي المحصلة النهائية لممارسات الايديولوجية الصهيونية (١١) .

ان التحليل الدقيق للشخصية الجماعية في اسرائيل ، يجعلنا نقرر منذ البداية ، ان هناك هوية اسرائيلية في دور التكوين ، تختلف في سماتها ــ بدرجة قليلة أو كبيرة ــ عن الهوية اليهودية السائدة في عدد من التجمعات اليهودية في العالم الغربي . وينبغي ان نتساءل منذ البداية عن الدلالات السياسية التي يمكن ان نعطيها للعناصر والمقومات المكونة لها ، وعن خطة الصفوة السياسية الحاكمة في الربط بين الهوية اليهودية التقليدية والهوية الاسرائيلية البازغة .

هذه الاسئلة الهامة لا نستطيع أن نجيب عليها الا اذا حاولنا ان نقوم بعملية تحليل سياسي للشخصية الاسرائيلية .

والواقع ان الدراسة العميقة للشخصية الاسرائيلية تمثل في حد ذاتها مطلبا اساسيا لفهم العدو الصهيوني فهما علميا دقيقا . غير ان تحليل تأثير مكونات هذه الشخصية على الصراع العربي الاسرائيلي من وجهة النظر السياسية والاجتماعية يعد ضرورة حيوية. ذلك ان وقوفنا عند عقبات البحث السيكولوجي الخالص ، او الدراسة الاجتماعية المحدودة ، بغير أن نبسط بصرنا الى ما يترتب على النتائج العلمية التي نحصل عليها ، من آثار اللحظة الراهنة في الصراع وتطوراته في المستقبل ، يعد نكوصا واضحا عن توظيف البحث العلمي في خدمة الاهداف القومية لامتنا العربية ، في صراعها المصيري مع الدولة الصهيونية العدوانية .

المشكلات الخاصة بتشكيل الهوية الاسرائيلية :

حاول بعض الباحثين تحديد المشكلات الخاصة بتشكيل الهوية الاسرائيلية في الوقت الراهن . أولى هذه المشكلات انتقال « السمات اليهودية » التقليدية الى « الهوية الاسرائيلية البازغة » . ويرى بعض المحللين النفسيين ان هذه السمات التي يمكن استخلاصها من تحليل التاريخ اليهودي تتعلق بنظرة اليهود الى انفسهم باعتبارهم كانوا دائما أقلية مضطهدة ، ومن بين هذه السمات : القلق والاحساس بالدونية ، والشك ، وعدم الثقة في غير اليهود . وقد انتقلت بعض هذه السمات ــ كما يرى بعض الباحثين النفسيين الاميركيين ــ الى المجتمع الاسرائيلي . فقد لاحظوا سيادة مشاعر الشك ــ الذي كان نتيجة احساسهم بتفردهم وامتيازهم من ناحية ــ وخضوعهم لغير اليهود من ناحية اخرى خلال موجات الاضطهاد التي جرفتهم ازمانا طويلة . غير ان الاحساس بالدونية تحول لكي يصبح احساسا بالعظمة والتفوق لدى الاسرائيلي تجاه باقي العالم . وهذا الاحساس بالتفوق يعبر عنه الاسرائيلي فيما يزعمه لنفسه من حقوق لها مكانة متميزة ، وتتجاوز في مداها حتى المبادئ المستقرة في القانون الدولي العام . ولعل قانون العودة الاسرائيلي الذي يمنح الجنسية الاسرائيلية فورا لكل يهودي يعلن عن رغبته في الهجرة الى اسرائيل ، ابرز مثال على ذلك .

ويقرر عالم النفس اليهودي روبنشتين في ملاحظاته الشخصية عن « النفسية الاسرائيلية » ان « الاسرائيليين كأفراد وكمجتمع ، يتسمون باتجاهات شك عميق الجذور تجاه الاخرين . وهذا الشك في رأيه يسود العلاقات الشخصية في اسرائيل ، ويكشف عن نفسه في

كل تفاعل مع العالم الخارجي . وهو يصف ثلاثة مستويات من الشك والرفض : المستوى الاول موجه ضد العرب ، والمستوى الثاني موجه ضد العالم غير اليهودي ، والمستوى الثالث موجه ضد المنظمات والاجهزة الدولية .

ويخلص روبنشتين من دراسته الى انه يمكن وصف العقلية الاسرائيلية على مستوى وجود « النسق لجنون الاضطهاد » بانها تتسم بالتبلور والتحدد يهيمن عليها ، ويستمد هذا العرض المرضي جذوره من شك اليهود التقليدي في الاغيار (كل من هم ليسوا يهودا) ، والذي تسرب الى التكوين النفسي للاسرائيليين المعاصرين ، لذي يتوجه اساسا للعربي مما انعكس بشكل واضح على السياسات الاسرائيلية في النظرية والتطبيق .

ولعل العامل الحاسم في العلاقات بين الجماعات الاجتماعية داخل المجتمع الاسرائيلي مرتبط ارتباطا وثيقا بمشكلة الهويه . وفي هذا الصدد يقارن الباحثون بين « الهويه اليهوديه التقليديه » و « الهوية الاسرائيلية البازغة » . ووفقا لما تراه العالمة الاميركية مارغريت مين في كتابها « اسرائيل ومشكلات الهويه » ان العامل الذي كان ضروريا دائما للحفاظ على الهويه اليهوديه هو وجود جماعه او جماعات من غير اليهود . « فالشيء الوحيد الذي كان ضروريا لتمييز جماعه من اليهود هو وجود بعض الاغيار » . وقد وجدت مارغريت مين بين ملاحظاتها في المجتمع الاسرائيلي « انشغال الاسرائيليين الشديد بحس متصل متعلق بالهويه ، وبالرسالة المنفردة لاسرائيل ، وبوضع شعب اسرائيل الذي يختلف عن أي شعب آخر » . وكل هذا يتطابق مع السمات التي اشرنا اليها في مقدمة هذا البحث ، للمذاهب والايديولوجيات العنصرية .

وتتفق احدث البحوث النفسية الاجتماعية التي اجراها العالم اليهودي « هرمان » (١٢) عن الهويه الاسرائيلية عام ١٩٧١ مع النتائج التي توصلت لها مارغريت مين في الخمسينات . فهو يقرر ان تقسيم العالم بين اليهود وغير اليهود ، مكون اساسي من مكونات الهوية اليهودية ، وان صورة غير اليهودي تحتل وضعا مركزيا في ذهن اليهودي ، وما زال وضع الحدود بين اليهود وعالم غير اليهود له تاثير قوي غلابه في اسرائيل .

غير انه في الحديث عن الهـويه الاسرائيليه البازغه ، ينبغي الالتفات الى تعدد التكوينات النفسيـة في اسرائيل ، بحسب الاجيال المختلفة التي ينتمي اليها الاسرائيليون . ولعل جيل الصابرا (وهم المواليد الذين ولدوا في اسرائيل) هو الذي يركز الباحثون على محاولة استكشاف معالم بنائه النفسي المميز . ومرد ذلك الاهتمام الى الاختلاف النوعي في الخبرة الاجتماعية النفسية لليهود المهاجرين الى اسرائيل ، وهؤلاء الذين ولدوا على ارضها ولا يعرفون بلدا غيرها . هذا الجيل يتسم ـ من وجهة نظر عديد من الباحثين ـ بسمات نفسيه منفردة اهمها :

ـ التمركز حول اسرائيل (بالمعنى الزماني والمكاني للكلمه) .

ـ عدم الاهتمام بالتاريخ اليهودي الحديث (حتى ما يتعلق منه بتاريخ ابائهم) .

ـ طموحهم يتركز حول بلوغ مستوى الامان المادي ، وتحقيق مستوى مريح من الحياة .

ـ احساس قوي بالانتماء .

واذا كان اختلاف الاجيال يعكس اثره بوضوح على بناء الهويه الاسرائيلية البازغة ، فان هناك في رأي هرمان أبعادا لها دلالة هامة هي قياس العوامل التي تشكل هذه الهوية في الوقت الراهن . ولعل أهم هذه الابعاد قاطبة : الاصل السلالي (يهـود شرقيون ويهـود غربيون) ، ودرجة التدين (يهود علمانيون ويهود متدينون) .

ولعل السؤال الرئيسي الذي ينبغي اثارته هو : ما تأثير الهويـة الاسرائيلية البازغة بملامحها وقسماتها التي حاولنا تحديدها على تطورات الصراع العربي الاسرائيلي ، ومن ناحية اخرى ما تاثير الصراع عليها ؟

ان أهم ما ينبغي الاشارة اليه ، ان الصفوة الحاكمة الاسرائيلية تحاول ـ من خلال استراتيجية نفسية اجتماعيـة متماسكة ـ تشكيل الهوية الاسرائيليه البازغة ، وفق نموذج يسمح في النهاية لها بتحقيق سياستها العسكريه والاقتصاديه باكبر قدر من الدقة والمرونة والفاعلية. ومن هنا يمكن القول أن السمات النفسيه التي تميز جماهير الاسرائيليين كالشك والرفض والعدوان ازاء العرب ، وازاء العالم غير اليهودي ، وأخيرا ازاء الاجهزه والمنظمات الدوليه ، ليس صحيحا أن تميز أيضـا اعضاء الصفوة الحاكمـة الاسرائيلية بنفس الطريقـة التي نجدهـا لدى الجماهير التي سيشكل وعيها السياسي والاجتماعي وفقا لمخططات الصفوة السياسيه . فمن المتفق عليه في بحوث علم النفس الاجتماعي انه حتى لو سلمنا بان هناك طابعا قوميا يميز شعبا من الشعـوب ، فمن المحتمل ألا نجد السمات النفسيه الاجتماعيه التي يتضمنها لدى الصفوة او القاده . وحتى اذا ما ظهرت سمات الطابع القومي للشخصية بالنسبه للصفوة السياسية ، فان ارائهم غالبا ما تتأثر بالحقـائق الصلبة المتعلقة بحجم القوة التي تحت تصرفهم وبحقائق الجغرافيـا والتاريخ والاقتصاد .

الدلالات السياسيه لمحاكمه ايخمن :

وتكشف عن هذه الملاحظة الهامة محاكمه ايخمان في اسرائيل ، التي تبين بشكل بارز الفجوة بين الاستراتيجية التي صاغتها الصفوة الاسرائيلية لتشكيل الهوية الاسرائيلية ، والتي تركز تركيزا شديـدا على ربطها بالهوية اليهودية ، وخصوصا فيما يتعلق بالشك في غيـر اليهود ، وبين الواقع النفسي لدى الاسرائيليين ، الذين نتيجـة لظروف متعددة ـ لم يعودوا يهتمون بعمق الروابط بينهم وبين يهـود العـالم .

تقرر الباحثة اليهودية الشهيرة حنا آرندت في كتابها الذي آثار سخط الصفوة الحاكمة الاسرائيلية « ايخمان في القدس » ، ان هذه الصفوة لم يكن هدفها محاكمة ايخمان باعتباره شخصا ولكن باعتبـاره رمزا . ويكشف عن ذلك تصريح لبن غوريون قبل المحاكمة قرر فيه : « ليس فردا ذلك الذي وقع في القفص لكي يجابه محاكمته التاريخية ، ولا هو أيضا النظام النازي بمفرده ، ولكنه ايديولوجية المعاداة للسامية عبر التاريخ » .

وكانت الدوافع الكامنة وراء محاكمة ايخمان لدى الصفـوة الاسرائيلية متعددة . وهي كما يحصرها دابيل في مقاله « أبجديات العدالة » الذي ينقد فيه كتاب آرندت :

١ ـ لكي يشهد العالم على المصير الذي لاقاه اليهود .

٢ ـ ولتحميل ضمير الامم وزر الاحساس بالذنب حتى تندفـع للدفاع عن مصالح اسرائيل .

٣ ـ ولكي يثبتوا لليهود في اسرائيل نوعية الحياة التي عاشهـا اليهود في الشتات ، والتي أدى اليها انهم عاشوا كأقلية .

٤ ـ ولكي يبرهنوا للاسرائيليين اخيرا صواب الحل الصهيوني لمشكلة اليهود .

وتكشف حنا آرندت في كتابها عن أن بن غوريون صمم خطـة المحاكمة لكل مراحلها قبل أن تبدأ ، وكشف عن أهدافه التي يريـد أن يحققها من ورائها في سلسلة مقالات نشرها في جريدة « دافار » ومن بينها « ان جيل الاسرائيليين المعاصرين في خطر ان يفقدوا روابطهم مع الشعب اليهودي ، وبالتالي مع تاريخهم ، ولذلك فمن الضروري لهم ان يذكروا ماذا حدث للشعب اليهودي » .

وهكذا يمكننا ان نرى ـ من خلال خطيط الصفوة السياسية الاسرائيلية لمحاكمة ايخمان ـ كيف تعمل هذه الصفوة بدأب لتشكيل الشخصية الاسرائيلية بناء على نموذج عنصري محدد ينهض اساسا على الشك في غير اليهود عموما ورفضهم ، والعداء ازاء العرب خصوصا ، وكل ذلك انطلاقا من المقولة العنصرية الاساسية التي تزعم ان اليهود هم شعب الله المختار ، ولذلك هم أسمى الاجناس قاطبة .

ثانيا : المكونات العنصرية في الشخصية الاسرائيلية :

اذا كنا قد اكدنا ان الصفوة السياسية الاسرائيلية قد وضعت استراتيجية للتنشئة الاجتماعية للاسرائيليين نسجت خيوطها من مسلمات الايديولوجية الصهيونية العنصرية ، فانه يبقى أمامنا حتى ندعم هذا الحكم ، ان نستشهد بالبحوث النفسية الاجتماعية الميدانية الاسرائيلية ذاتها لكي نرى كيف نجحت هذه الاستراتيجية الرجعية في بلورة عدد من الاتجاهات الاساسية المصبوغة بالعنصرية بشكل صريح أو ضمني في الشخصية الاسرائيلية .

وتكشف عن ذلك بوضوح كامل سلسلة الابحاث الميدانية التي قام بها عالم النفس الاسرائيلي سيمون هيرمان ، والتي نشرها في كتابه « الاسرائيليون واليهود » . وترد أهمية هذه الدراسات الى انها اعتمدت على بحث عينات قومية ممثلة بطلبة المدارس الثانوية في اسرائيل الذين يقعون في فئة العمر ١٦ ـ ١٧ سنة ، وامتدت في بعض جوانبها لتشمل طلبة الجامعات في السنوات الاولى . وقد قام هيرمان بدراسته الرئيسية عام ١٩٦٥ واستكملها بدراسات أخرى عام ١٩٦٨ .

وفي دراسته التكميلية التي قام بها عام ١٩٦٨ ، درس هيرمان عينة من طلبة المدارس الثانوية في القدس وحيفا ، وطبق عليهم استمارة بحث يحتوي على عدد من الاسئلة . وقد صنف هيرمان عينته الى ثلاث فئات : متدينون ، ويعني بهم من يحرصون على اداء الشعائر الدينية بانتظام ، وتقليديون ، ويعني بهم من يحترمون التقاليد الدينية اليهودية ، غير انهم لا يواظبون على اداء الشعائر الدينية ، وغير متدينين ، ويعني بهم من لا يمارسون الشعائر الدينية .

وتكشف نوعية الاسئلة عن الاطار النظري الذي ينطلق منه هيرمان في دراسته للهوية الاسرائيلية ، وهذا الاطار يتضمن في الواقع المقولات العنصرية الاساسية الكامنة في الصهيونية ، اذ نجد امامنا ثلاثة عشر سؤالا تتناول الموضوعات الآتية :

ـ الاسرائيليون باعتبارهم استمرارا للشعب اليهودي .

ـ دولة اسرائيل باعتبارها استمرارا للتاريخ اليهودي .

ـ السمات السلبية للسلوك اليهودي اثناء المذابح التي جرت لليهود في المانيا (الهولوكوست) .

ـ الجوانب الايجابية للسلوك اليهودي اثناء المذابح التي جرت لليهود .

ـ التعاطف مع معاناة اليهود أثناء المذابح .

ـ التعاطف مع اليهود الذين عانوا من الاعتداء عليهم في البلاد الاسلامية .

ـ امكانية تكرار المذابح لليهود .

ـ واجب اليهود في أن ينظروا الى انفسهم باعتبارهم ممن بقوا احياء من المذابح اليهودية .

ـ تعريف الصهيونية مجردا .

ـ نظرتهم الى انفسهم باعتبارهم صهيونيين .

ـ مدى شعورهم بالقرب من اليهود الامريكيين الذين يرغبون والذين لا يرغبون في الهجرة الى اسرائيل .

ـ امكانية اقتلاع اتجاهات معاداة السامية .

ـ معاداة السامية وسمات وسلوك اليهود .

واذا حاولنا ان ننظر لنتائج هذا البحث نظرة كلية شاملة ، فاننا نستطيع ان نضع ايدينا على المكونات العنصرية الاساسية للصهيونية . ويمكن تحديد هذه المكونات في عدد من الافكار الرئيسية :

١ ـ التاكيد على استمرارية الشعب اليهودي عبر التاريخ وتفرده .

٢ ـ التركيز على الاضطهاد الذي لاقاه اليهود في المجتمعات الغربية .

٣ ـ التركيز على الاعتداءات المزعومة التي وقعت على اليهود في البلاد الاسلامية .

٤ ـ اثارة الخوف الدائم من احتمال تكرار المذابح اليهودية .

٥ ـ تاكيد استمرارية معاداة السامية في العالم .

ان هذه الافكار الرئيسية هي التي نجحت الصفوة الحاكمة الاسرائيلية في زرعها في أذهان الاسرائيليين ، مما أدى بهم الى ان تتشكل اتجاهاتهم الاساسية بشكل مرضي ، ويبدو ذلك كما ذكرنا في بداية هذا الفصل ، في الشك والرفض والعدوان ازاء العرب ، وازاء العالم غير اليهودي ، وأخيرا ازاء الاجهزة والمنظمات الدولية .

لقد أدت استراتيجية التنشئة الاجتماعية الاسرائيلية الى أن تصطبغ الشخصية الاسرائيلية بطابع تسلطي واضح ، كما يؤكد عالم النفس الاسرائيلي جورج تامارين ، وقد ساعد على صياغة هذه الشخصية العنصرية تدعيم القيم التي تشجع على العنف والعدوان ازاء العرب سواء بالتنشئة للفلسطينيين الذين ظلوا داخل حدود اسرائيل بعد عام ١٩٤٨ ، أو بالنسبة للبلاد العربية المحيطة باسرائيل ، وتكشف عن ذلك كله سياسة الردع التي صاغ مبادئها بن غوريون في الخمسينات ، والتي انطلقت من مسلمة عنصرية قاطعة مؤداها ان العرب لا يعرفون الا لغة القوة والعنف . ولا نحتاج الى كبير عناء ، لنكشف ان هذا الحكم ، هو نفسه الذي تردده كافة الانظمة العنصرية حين تقيم تفرقة حاسمة بين العنصر النقي المتمثل في المستعمرين ايا كان جنسهم ، وبين العنصر المنحط المتمثل في اهالي البلاد الاصليين . وهذه التفرقة العنصرية هي التي تقف مبررا لممارسة العنف والارهاب ازاء اصحاب البلاد الاصليين . تم ذلك تاريخيا في الجزائر ، وما زال يمارس في جنوب افريقيا وفي اسرائيل التي زرعها الاستعمار في قلب العالم العربي .

خاتمـــــة :

في ضوء بحثنا الوجيز عن الصهيونية باعتبارها ايديولوجية عنصرية ، يمكن القول ان الطابع العنصري الذي وسم الصهيونية منذ ظهورها في القرن التاسع عشر ، قد أدى ـ بعد انشاء دولة اسرائيل عام ١٩٤٨ ـ الى ظهور مجتمع عنصري بكل ما تعنيه الكلمة من معنى . ولذلك كان ظهور كتاب العالم الاسرائيلي اسرائيل شاحاك رئيس لجنة حقوق الانسان الاسرائيلية وعنوانه « عنصرية دولة اسرائيل » صدمة لكثير من الدوائر الثقافية الغربية التي خدعت طويلا بدعاوى الاشتراكية والديمقراطية ومجتمع المساواة في اسرائيل . كما ان بحوث عالم النفس الاسرائيلي جورج تامارين والتي نشرها في كتابه « المعضلة الاسرائيلية » والتي تسببت في فصله من عمله كأستاذ في جامعة تل ابيب ، وكلها بحوث ميدانية ، لتثبت بما لا يدع مجالا للشك كيف أدت مسلمات الصهيونية العنصرية ، وسياساتها التطبيقية ، الى صياغة شخصية اسرائيلية تتسم بكونها عدوانية وتسلطية ومتعصبة ومنغلقة .

ومن الجدير بالاهتمام ان هذه السمات يشترك فيها الى حد كبير عديد من نظم الاستعمار الاستيطاني التي ما زالت باقية في عالمنا حتى الوقت الراهن . ومن هنا تكتسب الدراسات المقارنة لهذه النظم

أهمية خاصة ، نظرا لانها جديرة بكشف البنية الاساسية لهذه النظم من ناحية ، وتبرز مكونات العقلية الاستيطانية من ناحية اخرى (١٣) . ان نتائج هذه الدراسات العلمية المقارنة ، يمكن ان تكون ذات قيمة بالغة لصانعي السياسة في البلاد التي تقاوم هذه النظم الاستعمارية ، فعلى ضوئها يمكن رسم الاستراتيجية الثورية لمجابهتها ، مهما ظنت هذه النظم انها قادرة على البقاء الى الابد . ومن خلال هذه الاستراتيجية يمكن القضاء – ولو في الاجل الطويل – على هذه الاوهام الاستعمارية من خلال العمل الفكري والنضال السياسي والعسكري .

السيد يسين

مدير مركز الدراسات السياسية والستراتيجية

مؤسسة الاهرام – القاهرة

الهوامش والتعليقات

(١) سبق لنا ان قمنا بدراسة تأصيلية واسعة المدى لهذه الظاهرة :

انظر : السيد يسين ، د. علي الدين هلال وآخرين ، الاستعمار الاستيطاني الصهيوني في فلسطين ، القاهرة : معهد الدراسات والبحوث العربية ، ١٩٧٥ .

(٢) راجع مناقشة تفصيلية للموضوع في دراستنا : الايديولوجية والتكنولوجيا ، ١ – تعريفات مبدئية ووضع المشكلة ، مجلة الكاتب ، اغسطس ١٩٦٩ ، العدد ١٠١ ، ٧ – ٢٠ .

(٣)

. Schaff , A , La définition fonctionnelle de L'déologie et le probleme de « la fin du siecle de l'idéologie » l'homme et la societé , no ,4 . 1967 .

(٤)

- Felman , D . , in : Joseph S . Roucek , (ed) , Twentieth Century Political Thcught , New York : Philosophical library : 1946 , 105 - 131

Cox , O . C . Caste , Class & Race , New York : Monthly Review press , 1959 .

(٥) عبارة لادولف هتلر في كتاب : « كفاحي » ، مذكور في فيلمان ، مرجع سابق ، ص ١٠٦ .

(٦) مذكور في فيلمان ، مرجع سابق ، ص ١٠٧ .

(٧)

Gobineau ,D. Essai sur l'inégalité des races humaines Paris , Libraire de Paris , (sans date)

(٨) انظر عرضا دقيقا وتحليلا نقديا لهذه النظريات العنصرية في :

Sorokin , T.A. Contemporary Sociological Theories , Harper Torchbooks , 1964 , 219 - 251 .

(٩) راجع في تعريف هذه المفاهيم : موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية ، رؤية نقدية ، تاليف واشراف : د. عبدالوهاب المسيري بالاشتراك مع سوسن حسين ، القاهرة ، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية ، ١٩٧٥ .

(١٠)

- Tamarin , G . , The Israeli Dilemma : Essays on a warfare State , Rotterdam University Fress ,1973 .

(١١)

- Taylor , A.R . The Zionist Mind , Beirut , The Institute for Palestine Studies , 1974 .

انظر : السيد يسين ، قراءة سياسية في خريطة الشخصية الاسرائيلية ، الاهرام .

(١٢)

- Herman , S N . Israelis and Jews , New York : Random House , 1970 .

(١٣)

- Abu - Lughod & Abu - Laban , B . (Ed), Settler Regimes in Africa and the Arab world , The Illusion of Endurance , Illinios , The Medina U . N . Press , 6974 .

كيف نواجه الصهيونية

تتمة المنشور على الصفحة – ٣٩

كما يرتبط البعد الايديولوجي والستراتيجي لهذه المواجهة بالبعد (التاكتيكي) المرحلي والظرفي الذي يستوعب حاجات مسيرة العالم التقدمية ، وظروف النضال والمخططات المعادية ، وتوفر الوسائل اللازمة لدحر هذه المخططات وتحقيق تقدم ثابت على طريق تحرير فلسطين من العنصرية الصهيونية .

٨ – على ضوء ذلك كله يتبين ان مواجهة العنصرية الصهيونية ، تتطلب عملا فكريا ونضاليا منظما يستقطب القوى الخيرة المحبة للسلام ، المستوعبة بعمق أبعاد الايديولوجية العنصرية الصهيونية وممارساتها اللاانسانية ، والمتحررة من التأثيرات والعقد المعادية لتحرر الامة العربية ونهضتها المعاصرة ، الساعية بلا كلل من أجل ايجاد قاعدة نضال مشترك عربي يهودي ، تحرري ، ضد العنصرية الصهيونية ، ومن أجل جعل أرض المحبة في فلسطين نموذجا للتعاون والتعايش والتحاب بين الديانات والقوميات والحضارات المتواجدة فيها ، ومقبرة للعنصرية والتعصب والحقد ، في ظل حياة ديمقراطية واطار سياسي منسجم مع الاهداف الحضارية الانسانية للنهضة العربية المعاصرة ، وغير متعارض او متناقض معها .

ان دور المفكرين الانسانيين التقدميين دور كبير في تحقيق هذه الغاية – المعجزة – ، في نظر الكثيرين اليوم . ولكن منطق التاريخ يؤكدها بالرغم من كل مظاهر السطحية الطارئة التي تجعلها اقرب الى الحلم في ظل الظروف الراهنة ، التي يحاول فيها التحالف العنصري الامبريالي الصهيوني الرجعي ، أن يثبت العكس ، وان يجعل من احداث لبنان صورة لمستقبل الوطن العربي ، صورة التمزق والعنصريات الطائفية .

ولكن وعي العالم ، العالم التقدمي ، وشعوب العالم اجمع والقوى الخيرة فيه ، ان وعيهم الكاشف للمؤامرة التاريخية على الامة العربية وعلى مستقبل نهضتها يطوق هذه المؤامرة وهو كفيل بردها على اعقابها ، لانها ضد منطق العصر ، وضد بديهيات التطور التاريخي .

وليس هذا الملتقى الفكري العالمي ، الذي نامل ان يرسي دعامة عمل فكري دائم في الكفاح ضد العنصرية الصهيونية وفي شتى انحاء العالم ، ليس الا دليلا حيا وعمليا على ان الصفحة الجديدة المقابلة لصفحة الواقع الراهن الذي صنعته العنصرية الصهيونية ، قد بدات تنذر العنصرية بمصيرها المحتوم ، وتفتح الطريق امام الحلول الجذرية الانسانية التي سوف تحقق السلام في هذه المنطقة العربية وفي العالم اجمع .

الياس فرح

بغداد

د. انور عبد الملك

ثلاث رسائل حول الاستعمار الصهيوني

اعتاد الباحثون في قضايا الصهيونية ان يسلموا بعدد من الرسائل الصادرة من مراكز الاستعمار في الغرب وكأنها رسائل « علمية » لا مفر من التسليم بها ، ولعل مؤتمر بغداد ينعقد في ظرف تاريخي اكثر تعقيدا مما شاهده النضال العربي منذ انشاء الدولة الصهيونية . فلعل الاوان قد آن لفحص تلك الرسائل والمسلمات بدقه والغوص في اعماقها .

١ ـ تقول الرسالة الاولى : ان اساس الازمة اصلا ـ الحرب والسلام في الشرق العربي ـ انما هو « قضية فلسطين » . وعندنا ان الواقع والتاريخ معا لا يؤكدان ان قضية فلسطين هي اخر حلقة واخطرها وان لم تكن اهمها ، في مسالة الشرق العربي .

أ ـ الواقع والتاريخ يؤكدان ان المنطقة المعروفة الآن في الغرب « بالشرق الاوسط » ـ شرق الامة العربية وكذا جنوب شرق اسيا ـ كانت منذ اكثر من خمسين قرنا منطقة الصراع المصيري الرئيسي بين دول الشرق وحضاراته من ناحية ، والغزاة الاتين من الشمال من ناحية اخرى .

كان هذا مغزى حكم رمسيس وطحتمس . وكان هذا مغزى غزوات الاسكندر المقدوني . وكان هذا مغزى الفتوحات الاسلامية ، ومن بعدها حروب الاستعمار العنصري الصليبي الوافد من اوروبا . وكان بالضبط مغزى التاريخ العربي والشرقي كله منذ القرن الخامس عشر حتى اليوم : وفي كلمة كانت وجهة الغرب الحضرية وحروبه ، وغزواته ، واهدافه السياسية والدينية والايديولوجية والفكرية والاقتصادية كلها تهدف الى شيء واحد . الا وهو تحطيم كافة المحاولات الهادفة الى انشاء دولة عربية في قلب الحضارة الشرقية الاسلامية .

كي تستطيع اوروبا ان تسود وتهيمن بالسلاح والفكر .

ب ـ ان الواقع والتاريخ يؤكدوان انه ، ابتداء من اشتداد أزمة النظام العالمي وفي مواجهة اشتداد الموجة الثورية داخل الحركة الوطنية التحررية العربية بعد حرب ١٩٣٩ ـ ١٩٤٥ ، كان لا بد من اقامة السد تلو السد : اتفاقية صدقي ـ بيفن حول اقامة الحلف العسكري في الشرق الاوسط . تم اقامة حلف بغداد بعده . ثم كسر الحكم الوطني بقيادة مصدق في ايران الشقيقة . ثم ،في نهاية المطاف ، وبناء على بدايات نشأت منذ نهاية القرن التاسع عشر ، تقسيم فلسطين في ٤٧ وانشاء الدولة الصهيونية على ارض فلسطين لتكون قلعة للاستعمار ورسولا للغرب ، وسوطا ضد حركة التحرر والوحدة في الوطن العربي .

جـ ـ ان الواقع والتاريخ ، منذ طلائع النهضة العربية في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر ، يؤكدان هذا المعنى بشكل قاطع . فقد تحالفت دول اوروبا كلها ، دون استثناء ، لكسر شوكة محمد علي الذي جعل مصر اولى دول الشرق كله اقتصاديا وحربيا وثقافيا ، نصف قرن قبل اليابان في عصر ميجى . وما ان انكسرت دولة محمد علي حتى انطلقت دول اوروبا تحتل جميع اقطار الامة العربية بالنار والسلاح والتدمير والارساليات والمرتزقة والبنوك ، الى ان اصبحت الامة العربية كلها محتلة حوالي عام ١٨٨٢ . ثم تكررت موجات السطو والغزو الاستعمارية وتركزت بشكل اساسي حول مصر ،دولة وشعبا ، بوصفها قلب التحرك العربي ، من معاهدة لندن عام ١٨٤٠ الى حرب يونيو ١٩٦٧ ،اي من محاولة كسر محمد علي الى محاولة كسر جمال عبدالناصر .

د ـ وجملة القول : ان الحرب والسلام في الشرق العربي ، ان الازمة في الشرق العربي ، لم تنشأ ابتداء من قضية فلسطين ، وان كانت مأساة فلسطين قد جاءت تؤكد عمق الازمة في الشرق العربي . ولكن جوهر الازمة انما هو : اصرار الغرب كله ـ من الصليبيات الى الامبريالية والصهيونية ، من مملكة القدس الى دولة العنصرية الصهيونية ـ على تقويض اركان القوة الشرقية بقيادة العرب في منطقة البحر الابيض وشمال افريقيا وغرب اسيا . وهذه السياسة معناها بشكل واضح ودقيق ان رسالة الغرب الحضارية تكمن في منع قيام دولة شرقية عصرية في هذه المنطقة هي دولة الامة العربية المتحدة . وهي الرسالة التي تقتضي في المقام الاول وبشكل متصل دون هوادة ان يعمل الغرب على حصار وعزل مصر، بوصفها المركز الطبيعي للامة العربية ، وحصارها واستنزاف قواها ، في الوقت نفسه الذي يثير فيه الخلافات الاقليمية والانقلابات والازمات في كل ارجاء الامة العربية .

هـ ـ ومعنى هذا بكل دقة ان الواقع والتاريخ يحتمان علينا الا نعكس الاية لاسباب عاطفية لها مكانتها ، بل ان ندرك سلم الاولويات ، فلا تبذر طاقاتنا في التركيز على ما هو ثان ، دون الاساسي . وهذه الرسالة الخاطئة هي ، بالضبط تلك التي يبشر بها ابواق الغرب لتضليل الطلائع العربية ، وخاصة المثقفين ، واضعاف التحرك العربي في صميمه وحول مركزه الحضاري والسياسي والحربي .

٢ ـ والرسالة الثانية التي يراد لنا ان نسلم بها هي :
« ان الصهيونية ليست الا عميلة وطليعة للاستعمار الامريكي » .

ان الواقع والتاريخ يؤكدان مجموعة من الامور لا بد من تبنيها كي ندرك عمق وجبروت العدو الذي يحاربنا .

أ ـ والنقطة الاولى انما هي ان الصهيونية ليست الا اخر واخطر حلقة في سلسلة متصلة ، مستمرة من العدوان الغربي ضد الشرق العربي . ان محاولة فهم الصهيونية على انها ظاهرة عنصرية استعمارية « منفردة » يؤدي بالفكر السياسي العربي الى الهوان . فالصهيونية ليست الا الوجه المعاصر الاكثر عنصرية والاكثر عدوانية للاستعمار الغربي ضد العرب عبر التاريخ . وهي ايضا الحلقة الاكثر صراحة التي تكشف بشكل استفزازي لا يمكن تغطيته عن حقيقة القوى المعادية للامة العربية .

ب ـ ان الغرب المعاصر له نظام سياسي وهو النظام المعروف بحلف شمال الاطلسي . ان جميع دول اوروبا وشمال امريكا دون استثناء اعضاء في الحلف السياسي الاطلسي ، وكلها الا واحدة اعضاء في الحلف العسكري. اي ان الغرب كله يأتمر بأمر المركز الاستعماري الامريكي، الذي حل محل الاستعمار التقليدي البريطاني والفرنسي ... الخ . ان انشاء الدولة الصهيونية تم ابتداء من قرار ٤٧ للجمعية العامة للامم المتحدة وهو القرار الذي تقدمت به ، في آن واحد ، بريطانيا العظمى والاتحاد السوفييتي، ووافقت عليه جميع الدول الغربية دون استثناء . ان العلاقات الودية القائمة بين الدولة الصهيونية وبين كتلة الدول الاشتراكية الاوروبية كادت تفوق مستوى الصداقة القائمة بين الصهاينة ودول الغرب الاستعمارية الراسمالية حتى حرب السويس سنة ٥٦ . وعندئذ فقط بدأ الاتحاد السوفييتي ينحو نحو الحركة الوطنية العربية بقيادة جمال عبدالناصر ، ثم يهتم بالقومية العربية وحركات التحرر في العراق والجزائر واليمن وسوريا وفلسطين .

ان هيئة ضباط الجيش الصهيوني معظمها من ضباط الدول الشرقية المهاجرين حتى اليوم . ان تسليح الجيش الصهيوني كان مصدره الاساسي اوروبا حتى سنة ٥٦، ثم اصبح امريكيا في الاساس ، وهو اليوم يتكون من ترسانة رهيبة تسهم فيها جميع دول الغرب وكذا دولة جنوب افريقيا العنصرية النازية .

ج ـ وقد بلغ نفوذ الجهاز الصهيوني داخل الغرب كله ان استطاع ان يلعب دورا رئيسيا في القضاء على قيادة ديغول في فرنسا سنة ٦٨ ـ ٦٩ ، وان يعزل القيادة الامريكية المنفتحة على الصين والعرب والوفاق مع الاتحاد السوفييتي في ازمة ووترغيت . وهو اليوم يعمل بشكل دائم على تعبئة الرأي العام ضد الاتحاد السوفيتي بوصفه دولة تضطهد اليهود ، وضد الصين بوصفها دولة عنصرية تتصرف بطريقة بربرية ، والهدف الرئيسي هنا انما هو كسر سياسة الوفاق بين امريكا وروسيا ، وجر الترسانة الامريكية جرا الى خدمة مصالح الاستعمار الصهيوني المتجبر على رأس وفي قلب الغرب كله او بالاحرى في قلب القيادات السياسية والفكرية والاقتصادية.

د ـ وجملة القول : ان الاستعمار العنصري الصهيوني استعمار عالمي قائم بذاته ، وليس اداة لاستعمار غربي محدد هو الاستعمار الامريكي .ان الاستعمار العنصري الصهيوني هو اليوم اخطر انواع الاستعمار الغربي قاطبة ، ليس فقط ضد العرب وانما ضد تعقيل العلاقات الدولية ، وضد التعايش السلمي ، وضد اعادة تشكيل موازين القوى والنظام الاقتصادي العالمي الجديد ، ما لم يكن لهذا الاستعمار الصهيوني بالذات دور الهيمنة في قلب العالم كله . ومن اجل هذا يعمل اليوم الاستعمار الصهيوني حليفا رئيسيا ـ لا اداة او وكيلا ـ للجبهة الاستعمارية العالمية كلها بقيادة امريكا .

٣ ـ الرسالة الثالثة التي يراد للعرب ان يؤمنوا بها وكأنها من المسلمات : ان حلفاء الامة العربية يتمثلون في تكوينات اليسار في الغرب وخاصة المثقفين منهم .

ان الواقع والتاريخ يؤكدان ما يلي :

أ ـ ان القوى الرئيسية صاحبة المصلحة في حرب التحرر الوطني ضد الاستعمار تكمن في الاساس في حركات شعوب الشرق ، في حركات التحرر الوطني في آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية ، كما يشهد على ذلك تاريخ عصرنا يوما بعد يوم دونما جدال .

ب ـ ان القوى الثانية ، من حيث الدور التاريخي ، وان كانت عظيمة الفاعلية ، تكمن في مجموعة الدول الاشتراكية ، وكذلك تتكون من مجموعة الاحزاب « الدول » وليس الحركة العمالية العالمية ، اذ ان هذه الدول الاشتراكية هي صاحبة المصلحة العملية فيإضعاف الاستعمار واقصائه من مكانة الهيمنة وتوسيع رقعة نفوذها وانتصارها تحت لواء الاشتراكية . ان الحركة العمالية العالمية التي يطلق عليها احيانا الحركة العالميةالاشتراكية تتكون في الاساس من هذه المجموعة من الدول الاشتراكية ، وكذلك تتكون من مجموعة الاحزاب والحركات الشيوعية والاشتراكية والنقابية في دول الغرب . ومن الملحوظ ان هذا القطاع بالذات هو الذي يدعي لنفسه مكان الصدارة في معاداة الصهيونية ،دون جبهات الدول الاشتراكية . وواقع الامر ان قوى اليسار في الغرب تتكون من مجموعتين : فهنالك اولا مجموعة من الحركات العمالية والشعبية والكادرات التابعة لها ، وهي مجموعة وطنية تقدمية لعبت وما زالت دورا حيويا في تاريخ الغربالمعاصر ، على هدي رسالة لينينوغرامشي وتولياتي وتوريز وغيرهم من الاعلام .

وهنالك فئة اخرى من الكادرات تختلف تماما عن هذه المجموعة الاولى ، الا وهي غالبية فئة المثقفين الذين جاءوا للحركة الاشتراكية ابتداء من معاداة الفاشية والنازية العنصرية المعادية للسامية في الثلاثينات ، ومعظمهم يتسمون بضعف الجذور القومية والايمان بالاممية المتنكرة ، في رأيهم ، للقومية .وهم الذين يمثلون اليوم ابرز اسماء الفكر اليساري في الغرب . وهمالذين يعملون اليوم بشكل دائم لعزل المثقفين العرب عن طرح قضايا الثورة الاشتراكية طرحا قوميا ، وطنيا ،وحدويا، وهم الذين يعملون على اضعاف الجبهات الوطنية المتحدة داخل الامة العربية باسم قدسية الصراع الطبقي واولوية التضامن بين رجال اليسار في كل مكان ، وفي الدولة الصهيونية والدول العربية على وجه التخصيص .

تلك هي سياسة الدولية الرابعة التروتسكية المعروفة ، وهي التي دوما كانت لسانا واداة ، وقناعا وعميلا ، وممثلا للصهيونية الكوسموبولوتية ، ضدشعار الاشتراكية في الدولة الواحدة، وضد شعار الجبهة الوطنية المتحدة ضد الاستعمار ، وضد سياسة وحدة الامة العربية ضد الامبريالية الصهيونية العنصرية .وراء هذا القناع تكمن قوى العدو الضارية الرئيسية في المقام الاول والاخطر .

* * *

٤ ـ اليوم تدفعنا الرسائل الثلاث الرئيسية الخاطئة الى تحديد سياسة اتجاهية للعمل العربي في المرحلة التي بدأت بشكل ساطع في حرب اكتوبر١٩٧٣ ، وأراد لها الاستعمار العالمي الازمة والضياع .

أ ـ الاتجاه الحيوي انما هو الاعتماد على النفس والاعتماد على القوى الذاتية ، تجميع الطاقة العربية على اوسع نطاق وبشكل صبور مطرد على اساس انها الاداة الحيوية والسلاح الرئيسي لتحرير الارض العربيةوتحقيق النهضة الحضارية للامة العربية في اتجاه شعبي تقدمي .

ب ـ الاتجاه الثاني بعد الوحدة العربية ، انما هو في اقامة احلاف الامة العربية في المقام الاول مع حركات التحرر الوطني في آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية على قدم وساق مع مثل هذه الاحلاف مع مختلف جبهات الدول الاشتراكية دون تمييز ،بحيث تعمل الامة العربية كعنصر موجه فعال في عموم الجبهة التقدمية العالمية .

[illegible] والاخير يتعلق بقضايا الفكر الاجتماعي والسياسي العربي . لقد آن الاوان لكي يمسك العرب بمفاتيح النظرية ومناهج التحليلوالمفاهيم والتصورات الفلسفية العامة بين ايديهم . ومعنى هذا ان المعركة المصيرية ضد الاستعمار العنصري الصهيوني تقتضي في المقام الاول ان يصبح العرب على وعي بمعركتهم التاريخية وعيا قوميا حضاريا ثوريا متميزا ينطلق من تراثهم التاريخي العظيم ، ويهتدي بدروس خصوصيتهم الاصيلة ، ويستعمل طاقاتهم وكادراتهم استعمالا جريئا رحبا .

ان التحدي العنصري الصهيوني معناه انه لا سبيل لتحقيق نهضتنا الحضارية الا اذا ادركنا ان السيطرة على الاقتصاد والبترول على ارض الوطن وموارد الامة [illegible] سيادة فكرية كاملة ، وتوجيه قومي بناءللفكر العربي في كل مجال .

وليست ورقة اليوم الا اسهاما متواضعا في هذا السبيل .

د. انيس القاسم

حق الحصول على الجنسية في دولة اسرائيل

في ١٠ تشرين الثاني ١٩٧٥ اصدرت الجمعية العامة للامم المتحدة قرارها رقم ٣٣٧٩ (د ـ ٣٠) (١) حددت فيه ان « الصهيونية احد اشكال العنصرية والتمييز العنصري ».(٢) ويدل هذا القرار دلالة قاطعة على وجود اتفاق عام في الراي العام تجلى في صدوره ويتناول هذا البحث مدى مقومات القرار ومبررات اصداره ، بيد انه سيركز على جانب واحد فقط (٣) من جوانب الصهيونية : الا وهو حق الحصول على الجنسية في دولة اسرائيل .

١ ـ قانون الجنسية الاسرائيلية :

في الواقع يوجد في كتب القوانين الاسرائيلية قانونان للجنسية اولهما بشأن « اليهود » وثانيهما بشأن « غير اليهود » . وقد تقنن هذا التمييز في قانون الجنسية الاسرائيلية الصادر في ١٩٥٢ (٤) . وينص الجزء الاول من هذا القانون على ما يلي :

تكتسب الجنسية الاسرائيلية ـ
بالعودة (الجزء ـ ٢)
بالاقامة (الجزء ـ ٣)
بالمولد (الجزء ـ ٤) او
بالتجنس (الاجزاء ٤ ـ ٩)

وتتركز الفكرة الاساسية في هذه الدراسة على اكتساب الجنسية « بالعودة » واكتسابها « بالاقامة » ، اما الوسيلتان الاخريان للحصول على الجنسية ، فانهما في الممارسة الاسرائيلية تكادان تخلوان من اي مغزى قانوني .

أ ـ اكتساب الجنسية بالعودة :

لكي نفهم هذه الوسيلة لاكتساب الجنسية فهما صحيحا يلزمنا ان نعود الى اساسها القانوني ـ السياسي . ففي ٥ حزيران ١٩٥٠ اصدر البرلمان الاسرائيلي « قانون العودة » (٥) المعروف ، وورد بالجزء الاول من هذا القانون « ان كل يهودي يحق له ان يجيء الى هذه الدولة بوصفه مهاجرا »

وهذا « الحق » المزعوم « لليهودي » بالهجرة الى فلسطين ـ قال عنه ديفيد بن جوريون رئيس وزراء اسرائيل ـ انه « فطري فيه لمجرد كونه يهوديا ، فالدولة لا تمنح حق العودة ليهود الشتات ، فهذا الحق اسبق في الوجود من الدولة ، ومصدره يكمن في الاتصال التاريخي والذي لا ينفصم ابدا بين الشعب اليهودي والوطن » (٦).

وما ان « يعود اليهودي » الى « الوطن » المزعوم حتى يكفل له قانون الجنسية فورا وتلقائيا صفة المواطنة الاسرائيلية . وينص الجزء ٢ (ـ آ) من القانون على ان «كل مهاجر يصبح مواطنا اسرائيليا بمقتضى قانون العودة » .

١ ـ الاجراءات القانونية :

طالما ان القانون يعطي كل « يهودي » « حق العودة » فان هذا اليهودي لا يخضع لاي التزام قانوني باتخاذ اي اجراء في سبيل الحصول على المواطنة الاسرائيلية . فالقانون لا يتطلب منه «التقدم بطلب » للحصول على المواطنة وكذلك لا يفرض عليه ان « يقيم » فترة معينة من الزمن قبل ان يصبح صالحا للحصول على المواطنة. ولا يشترط عليه كذلك ان يؤدي قسم الولاء ، كما يحدث في التقاليد المتبعة في الدول الاخرى ، بل ان القانون لا يتطلب من اليهودي « العائد » حتى ان يعلن رغبته او نيته ان يصبح مواطنا اسرائيليا . ولا يطلب منه ايضا انيتخلى عن جنسيته الاصلية . ويقول احد المحامين البارزين الاسرائيليين ان اليهودي المهاجر يصبح مواطنا اسرائيليا حتى دون توافر ادنى قدر من الارادة لديه أو دون حق الاعتراض من جانب الحكومة (٧) (الاسرائيلية) .

ومن الناحية الاخرى فان القانون يلزم « اليهودي » القادم الى اسرائيل بان يعلن امام مسئول اسرائيلي رفضه للمواطنة الاسرائيلية اذا كان لا يريد ان تخلع عليه هذه المواطنة ، وهذا ما تشير اليه الصياغة الدقيقة لقانون الجنسية .وينص الجزء ٢ (ج) على ان الجنسية بالعودة :

لا تنطبق على الشخص البالغ سن الرشد الذي يعلن فورا انه لا يرغب في ان يصبح مواطنا اسرائيليا (مع التشديد على كلمة فورا) .

٢ ـ قابلية تطبيق قانون الجنسية بالعودة :

ان الحصول على الجنسية بالعودة يثير عديدا من القضايا المعقدة، وتتصل اثنتان من هذه القضايا بموضوع هذا البحث ، ونظرا لان الجنسية بالعودة مقصورة على « اليهود » دون اي اعتبار للجنسية التي يحملها كل منهم ، فان القضيتين اللتين يمكن طرحهما

مباشرة هما : ما هي التأثيرات التي يمكن أن تتركها قابلية تطبيق هذه القاعدة على اليهود القادمين الى اسرائيل ، ومن هو اليهودي، اولا وقبل كل شيء ؟

ا ـ وضع اليهود القادمين الى اسرائيل :

كل « يهودي » قادم الى اسرائيل تخلع عليه « المواطنة الاسرائيلية » « فورا وتلقائيا » ، الا اذا اعلن صراحة انه لا يريدها. وقد خلقت هذه الوسيلة لاكتساب الجنسيه عددا من المشكلات القانونية بالنسبة لليهود الذين لا يرغبون في ان يصبحوا مواطنين اسرائيليين ولكنهم لا يعرفون او لا يدركون تماما باكتساب الجنسيه الاسرائيلية بمجرد العودة . كذلك فانها خلقت مسئوليه قانونية بالنسبة للحكومات الاجنبية تجاه مواطنيها من اليهود ، وتزيد المشكلة حدة بصفة خاصة اذا كان قانون الجنسية في الدولة الاصلية متشددا بشأن ازدواج الجنسية .

وعندما صدر قانون الجنسيه الاسرائيلي قوبل بالاستياء من جانب العديد من الحكومات الاجنبية . وقد تمثل رد فعل الحكومة الامريكية مثلا في التعليمات الرسمية التي اصدرتها لليهود الامريكيين المقيمين في اسرائيل بكتابة اعلان بتخليهم عن الجنسية الاسرائيلية اذا كانوا لا يريدون فقد جنسيتهم الامريكية (٨) . كذلك اعتادت وزارة الخارجية الامريكية اعطاء التعليمات لليهود الامريكيين المتوجهين الى اسرائيل بأن يعلنوا فور وصولهم الى الموانيء الاسرائيلية انهم لا يريدون ان يصبحوا مواطنين اسرائيليين ، الا اذا كانوا يرغبون في غير ذلك (٩) .

واتخذت وزارة الخارجية الهولندية موقفا مماثلا ، فابلغت المواطنين الهولنديين اليهود بانهم لن يفقدوا جنسيتهم الهولندية اذا اعلنوا في ميناء الوصول في اسرائيل عدم رغبتهم في الحصول على الجنسية الاسرائيلية (١٠) .

ولا تنتهي التعقيدات عند هذا الحد . فان القانون ينص على ان « اليهودي » المولود في اسرائيل يصبح فورا مواطنا اسرائيليا اعتبارا من يوم مولده . ويجدر بنا انوضح ان مثل هذا الطفل لا يكتسب المواطنة الاسرائيلية بمقتضى مولده وانما بمقتضى « العودة » اذ ان الجزء ـ ٤ من قانون العودة يعتبر « كل يهودي ولد في هذه البلاد مهاجرا . الامر الذي يعني ان « جميع الاطفال اليهود المولودين في اسرائيل يصبحون مواطنين اسرائيليين بداهة بغض النظر عن جنسية والديهم (١١) .

واذا تخلى الوالدان عن الجنسية الاسرائيلية فان تخليهم هذا لا يشمل بالضرورة طفلهم المولود في اسرائيل الا اذا ضموه صراحة في اعلان التخلي عن الجنسية (١٢) .

ب ـ من هو اليهودي ؟

من اكبر القضايا التي ارهقت المؤسسة الاسرائيلية الصهيونية قضية تعريف اليهودي ، وغالبا ما تبدو هذه القضية كما لو كانت شبكة كثيفة من الغيبيات الدينية او « السفسطات القانونية ». وتوجد النقطة المحيرة في هذه القضية في النظرية الصهيونية الاساسية المسماة « الشعب اليهودي » (١٣) . فالصهيونية ترى ان اتباع الدين اليهودي ـ بصرف النظر عن محل اقامتهم اوجنسيتهم ـ يشكلون كيانا متميزا ومستقلا يسمى « الشعب اليهودي » (١٤) . وتتفق الصهيونية في الرأي مع التعاليم اليهودية على انه يمكن تعريف اليهودي بانه شخص ولد لام يهودية او اعتنق الدين اليهودي . ولكن الفرق بين الصهيونية والشريعة اليهودية يصبح اكثر وضوحا وحسما اذا طرحنا القضية في شكل سؤال النفي: « من هو غير اليهودي ؟ » ، ان الشريعة اليهودية تقضي بأناليهودي الذي يعتنق ديانة اخرى يظل يعتبر يهوديا (١٥) ، ولكنه لا يعتبر كذلك في نظر الصهيونية ، لانه قطع العلاقة بينه وبين « الشعب اليهودي » .

ويبرز تعريف « اليهودي » طبقا للفقه الاسرائيلي الصهيوني في الحكم الرسمي الذي اصدرته المحكمة العليا الاسرائيلية في قضية دانيال الشهيرة (١٦) . فقد ولد ازوالد ريفيسون في بولندا من ام يهودية ، ولكنه عمد طواعية بعد ذلك واصبح يدعى الاب دانيال من الرهبان الكرمل الكاثوليك . وعندما هاجر الى اسرائيل في ١٩٥٨ تقدم بطلب ـ على اساس انه يعتبر نفسه يهوديا ـ الى وزير الداخلية يرجو منحه صفة مهاجر طبقا لقانون العودة . ولكن طلبه قوبل بالرفض فرفع قضية امام المحكمة العليا .

وقررت المحكمة باغلبية اربعة اصوات ضد صوت واحد ان دانيال ليس يهوديا بالنظر الى الاغراض التي وضع من اجلها قانون العودة . وكان رأي جميع قضاة المحكمة العليا انه لا يجب الخلط بين مفهوم « اليهودي » في قانون العودة ومفهوم اليهودي في الشريعة . وبناء على هذا الافتراض فان رئيس المحكمة القاضي سلبرج قال « ان اليهودي الذي يعتنق المسيحية لا يمكن ان يسمى يهوديا . (التأكيد على كلمة لا يمكن موجود في النص) .وتتبع القاضي لانداو اساس قانون العودة فى العقيدة الصهيونية والفلسفة التي كان رمي اليها مؤسسو هذه العقيدة وانتهى الى ما يأتي :

« ان وزارة الداخلية اصابت في رسم الخط الفاصل بين اليهودي وغير اليهودي ،في نطاق معنى قانون العودة ، عند نقطة تغيير الدين » .

والاساس القانوني لهذه النتيجة هو ان اليهودي الذي اعتنق دينا اخر يجب ان يفصل نفسه بالضرورة عن « الشعب اليهودي » وكان رأي القاضي لانداو هو :

« ان اليهودي الذي يقطع نفسه عن تراث الماضي القومي لشعبه « اليهودي » بتغيير دينه . لا يصبح يهوديا بعد ذلك بهذا المعنى القوميالذي يعبر عنه قانون العودة » .(التأكيد مضاف)

وتأكيد المحكمة على الربط بين « اليهودي » و « الشعب اليهودي »هو الفكرةالاساسية في تعريف من هو اليهودي .«فاليهودي» في التشريع الاسرائيلي الصهيوني هو « المواطن » الذي ينتمي الى ما يسمى « بالشعب اليهودي » . ولا تتحدد هوية هذا « المواطن » بالدين الذي ينتمي اليه .وانما بكونه شخصا لم يعتنق دينا آخر . وقد اقر هذا المفهوم بصفة نهائية بموجب تعديل ادخلعلى قانون العودة ووافق عليه البرلمان الاسرائيلي في ١٩٧٠ ونصهكما يلي :

لغرض هذا القانون فان « اليهودي » يعني الشخص المولود لام يهودية او اعتنق الدين اليهودي ولا ينتمي لدين آخر .

ب ـ الجنسية بالاقامة :

كل وسائل اكتساب الجنسية ـ باستثناء قانون العودة ـ تختص بغير اليهود . وتختص الجنسية بالاقامة بوجه خاص بالوطنيين الفلسطينيين الذين بقوا في فلسطين بعد ظهور الدولةالاسرائيلية. ويحدد القانون اجراءات قانونية معينة للفلسطينيين الوطنيين للتقدم بطلبات الحصول على المواطنة الاسرائيلية .

الاجراءات القانونية :

ينص الجزء ـ ٣ (أ) من القانون على ما يلي :

الشخص الذي كـان ــ قبل انشاء الدولة مباشرة ــ مواطنــا فلسطينيا ولم يصبح مواطنا اسرائيليا بمقتضى الجزء ــ ٢ ــ(بالعودة) يصبح مواطنـا اسرائيليا :

١ ــ اذا كان قد سجل اسمه في الرابع من اذار ٥٧١٢ (اول اذار ١٩٥٢) كأحد السكـانطبقـا لقانـون تسجيل اسمـاء السكان الصادر فـي ٥٧٠٩ ، (١٩٤٩) و

٢ ــ اذا كان واحدا منسكان اسرائيل في تاريخ سريـان هــذا القانـون و .

٣ ــ كان موجودا في اسرائيل او منطقـة اصبحت ارضااسرائيلية بعـد انشاء الدولة ، او دخل اسرائيل بطريقة قانونية في خــلال تلـك الفتـرة .

وكانت هذه الشروط في الواقع صعبة الاستيفاء الى حد كبير(١٧). وقـد كتب بروفيسور دون بيرتز ــ وكـان في ذلك الوقت متعاطفا جدا مـع اسرائيل ــ ان معظم المواطنيـن الفلسطينيين لـم يكن لديهـم اي اثبات لمواطنتهم الفلسطينية الـتي لم يكـن من الممكـن اثباتها الا بحيازة جواز سفـر فلسطيني او بطاقـة هويـة فلسطينية ».
واضاف بيرتز « أعداد كبيرة من العرب كان لديهم بطاقات هويـة ولكنهم اما فقدوهـا او سلموهـا للجيش الاسرائيلي ابان الحرب او في اعقابها مباشرة » . وفضـلا عـن ذلـك فـان كثيريــن مـن الفلسطينيين استبعدوا من مكاتبتسجيل اسماء السكان ، فقد كانت هناك في اغلب الاحوال محاولات لعدم تسجيل كثير من القــرى (الفلسطينيـة) .

واذا قدر لمواطن فلسطيني ان يجتاز هـذه الموانع فانه يبقى امامه ان يثبت انه كان واحدا من سكـان اسرائيل او كان يقيمفي اراض اسرائيلية في الفترة بين تاريخ اقامة لدولة وتاريخ بدء سريـان هذا القانـون . وبالنظـر الى ظروف الحرب والارهاب الذي ارهقفلسطين قبل ١٤ ايار ١٩٤٨ وبعده ، كان من شبه المستحيل بالنسبةلكثيرين من الفلسطينيين ان يحددوا ما اذا كانوا يقيمونفي ارض اسرائيلية او في ارض غير محتلة . اضف الى ذلك التوسع الاقليمي الاسرائيـلي المستمر في الفترة من ١٤ ايار ١٩٤٨ الى اتفاقيات الهدنـة المبرمةفي رودس (١٩٤٩) (١٨) .

٢ ــ قابليـة تطبيق قانـون الجنسية بالاقامـة :

كانت المواطنة الفلسطينية تنظم بمقتضى مرسوم عام ١٩٢٥ الذي اصدرته الدولة صاحبة الانتداب ، وعندمـا اصدرت الدولةالاسرائيلية قانـون الجنسيـة الخاص بهـا بدأت اول مـا بدأت بالغاء قـانـون المواطنة الفلسطينيةباثر رجعي «اعتبارا منتاريخ انشاء الدولة »(١٩). فاصبح الفلسطينيون منذ ذلك التاريخ « بلا دولة » من الناحيــة القانونية ، وهو مبدأ عملت به العديد من المحاكم الاسرائيلية ومن بينها المحكمـة العليـا (٢٠) واستمر وضع اغلبيـة الفلسطينيين الوطنيين هكذا « بلا دولة » بعد سريـان القانـون . وادت الشروط التعسفية الواردة في الجزء ــ ٣ (أ) الى خلق فئة « بلا دولة » منالفلسطينيين الذيـن يعيشـون في اسرائيل .اذ أن الصلاحية للحصول على المواطنة الاسرائيلية لم تكـن متاحة لمن لم يتمكنوا من اثبات انهم كانــوا مواطنيـن فلسطينيين او لم تكـن اسماؤهم مسجلة فـي سجــلات السكـان أو لم يكونوا بيـن سكـان اسرائيل في تاريخ انشائها .

واسوأ النتائج القانونية التي تمخضت عن هذا الوضع هـو ان هؤلاء الفلسطينيين « بلا دولة » ما يزالون حتى يومنـا هذا ينجبون اطفـالا « بلا دولة » وهذا مـايكشف عنه التحليل التالي للجزء ٣(ب) من القانـون ، وينص هذا الجزء على ما يلي :

الشخص المولود بعد تاريخ انشاء الدولة واصبح من سكــان اسرائيل في بدء سريـان هذا القانون وتحصل امه او يحصل أبوه على المواطنة الاسرائيلية بمقتضى القسم الفرعي (أ) يصبـح مواطنــا اسرائيليا اعتبارا من تاريخ ميلاده .

ويجب بادىء ذي بدء عدم الخلط بين النص السابق وبين الحق التقليدي في الحصول على الجنسية بالمولد ، فالنص مرتبط بالجزء الفرعي (أ) المذكور من قبل. واذا فهم الجزء الفرعي (ب) بطريقــة مختلفـة يصبح من البديهي أن الفلسطيني المولود في اسرائيل لاب او أم لا يستطيعـان ان يصبحـا مواطنين اسرائيليين طبقا لمـا نص عليه القسم الفرعي (أ) لا يستطيع بناء على ذلك ان يصبـح مواطنـا اسرائيلـا .

٢ ــ تقييم قانوني لقانـون الجنسية الاسرائيلي على ضوء معاييــر القانـون الدولي للجنسيـة : (٢١) .

[illegible] في القانـون الدولي العام ان كل دولـة تخضع لقيود اجرائية معينة بخصوص تنظيم قانون الجنسية الخاص بهـا . وهذه القيـود يحددهـا تحديدا واضحا القانون الدولـي للجنسية . ويجب على الدولة مراعاة هذه القيود القانونيـة حتـى تحترم الدول الاخرى قانونهـا الخاص بالجنسية .
أ ــ قيود منح الجنسية بمقتضى المولد

[illegible] القانون الدولي العرفي وسيلتين تمنح بهمـا الدولة حـق الجنسية لشخص عند مولده ، وهمـا حق الارض وحق الدم . وبالنسبة للوسيلة الاولى فان الشخص يكتسب جنسية الدولة الـتي ولد في اراضيهـا بصرف النظـر عن جنسيـة والديه . اما وسيلـة اكتساب الجنسية بحق الدم فتنص على ان الشخص يكتسب جنسية والديه او احدهمـا بغض النظـر عن الارض التي ولد فيهـا .. وكل دولة من دول العالم تطبق احدى هاتينالوسيلتين او الوسيلتين معا فيمـا يتعلق بمنح الجنسيـة .

ولكن القانـون الاسرائيلي لمنح الجنسية بمقتضى العودة لا يلتزم بحق الارض ولا بحق الدم . وقد وصفه احد الدارسين الاسرائيليين وصفـا دقيقـا بانه وسيلة « فريدة » للحصول على الجنسية (٢٢) لان من يولد في اسرائيل لا يصبح مواطنااسرائيليا الا اذا كان والداه يدينان بالعقيدة اليهودية ، لكـن الفلسطيني الاصلي تنزع جنسيته « قانونـا » ويولد لـه في اسرائيـل اطفال بـلا جنسية .وعلى خلاف ذلك فان الوسيلـة المقبولة دوليـا للحصول على الجنسيـة قـد وضعت « قانونـا » في الفقه الاسرائيلي الصهيـوني باضافة كلمة « يهودي » الى كل من حق الارض وحق الدم .

ب ــ قيودمنح الجنسية بمقتضى التجنس :

التجنس وسيلة يحصل بهـا الفرد على الجنسية بعد المولـد ويمكـن الحصول على الجنسيـة بالتجنس مباشرة بالنسبة للبالـغ او بشكل غير مباشر بالنسبة لاولاد طالب التجنس . وينص القانون الدولي عن الجنسيـة على بعض القيود علىسلطة الدولة في تنظيم اجراءات التجنس ، ومن القيود القانونية الرئيسية انه لا بـد ان تقوم « صلـة حقيقية » بيـن دولة التجنس وطالب الجنسية (٢٣) . ويمكـن ان تظهـر هذه« الصلة » اذا مـا كان « موطن اقامة »الطالب في دولة التجنس . ولا تتفق الجنسية بالعودة في اسرائيل مع هـذا القيد . « فالصلـة » التي يطلبهـا القانـون هي أن يكونالشخص

« يهوديـا » . وعلى ذلك فان الشرط الاساسي « القانوني » هو الهوية الدينية وليس « الاقامة ». وعلى النقيض من ذلك فان شرط الاقامة ادخل ضمـن اربعـة او سنة شروط واجبة الاستيفاء بالنسبة لغير اليهـود الذيـن يطلبون الحصول على الجنسية الاسرائيلية .

ج ـ قيود منح الجنسية على اساس التمييز :

ينص القانـون العام على حظر اي تمييز او تميز او اغلاق او تقييد او افضلية بناء على الجنس او اللون او السلالة او الاصل القومي او العرقي ، ويعتبر الحق في لحصول على الجنسية واحدا من الحقوق المدنية الرئيسية التي يحميهـا القانـون العام مـن التمييز . وقد صدر قانـون بهذا المبدأ في الاتفاقيـة الدوليـة بشأن القضاء على كافـة اشكال التمييـز العنصري .

وقد اوضح البحث الذي اعده جامعة هارفارد عن القانون الدولي حول مشروع الاتفاقية الخاصة بالجنسية ، انه اذا حاولت دولة مـا ان تمنح جنسيتهـا لكل الاشخاص في العالم الذين يعتنقـون عقيدة سياسيـة او عقيدة دينيـة معينة او ينتمون لجنس معين « فانهـا تظهـر فيصورة الدولة التي تعدت الحدود التي وضعهـا القانـون الدولي (٢٥) . وطبقا للمبدأ ذاته القائم على عدم التمييز في بحث طلبات الحصول على الجنسية لـم تحترم كثير من الدول ذات السيادة قوانيـن الجنسيـة النازيـة التي كانت تميـز بيـن الآريين وغيـر الآريـن .

وقد كتب بروفيسور هـ . لاوترباخت انه نظـرا لان هــذه التشريعات تقوم على التمييز العنصري « لم يكـن من المستغرب انها كانت من اوليـات التشريعات التي الغيت » بواسطة سلطات الاحتلال والسلطات العسكريـة للحلفاء (٢٦) واتباعا للمبدأ نفسه رفضـت الحكومة الفيدرالية السويسريه تطبق القوانين النازية لان القانـون الالماني يميز بيـن اليهود والآريين على اساس الجنس ، ومن ثم فانـه يتنافض مع السياسـة العامة السويسرية كمـا يتناقض مع مبـدأ المساواة بيـن البشر (٢٧) .

وقد وضع قانـون الجنسيـة الاسرائيلي المعايير القانونيه للنظر في طلبات الحصول على الجنسية الاسرائيلية بناء على مـا وضع من قواعد للتمييز بيـن « اليهود » وغير اليهود . ولم يعارض م .د . جولدمان أول مساعـد للنائب العام الاسرائيلي قانون الجنسيـــة الاسرائيلي وكتب يقـول :

« وهكذا لا يمكـن ان يكون هناك شك في انه من الاسهل لليهودي عن غير اليهودي ان يحصل علىالجنسية الاسرائيلية وبناء على ذلـك فان قانـون الجنسيـة يتعرض للاتهام بانه يميز اليهود بناء علىاسس عرقيـة » (٢٨)

وعندما حاول جولدمان ان يدافع عن هذا القانـون ركز دون ان يعرج على المصدر الرئيسي للتمييز ، فقد كتب ما يلي :

« ان القانـون لا يمكـن ،فصله عـن سياقه التاريخي ، فمـن الاسهل لليهودي أن يحصل على الجنسية الاسرائيلية لسبب بسيط ، وهـو ان اسرائيل أولا وقبل كل شـيء دولة للشعباليهودي.(٢٩) »

وفي موضع اخـر في البحث الاكاديمي الذي اعده في الموضوع يبرد جولدمـان رأيه بقوله « لا يمكـن الادعاء بان جوهر قانون العودة هو التمييز لانه يختص باليهود واسرهم ، ولكـن الرد على ذلـك هو ان اسرائيل « دولة يهوديـة » (٣٠.)

الخلاصـة :

اصبح التمييز العنصري نظامـا « قانونيا » في دولة اسرائيـل، فان قانـون الجنسيـة ، ونظريـة العودة بصفـة خاصـة يعطي دليـلا قويـا على السياسات الاسرائيليه القائمة على التمييز والعنصـرية . ان القانـون الذي تناولته في هذا البحث لـم يصدر عرضا ، وانما هـو يشكل جزءا لا يتجزأ من السياسـة التي ما فتئت الصهيونيه تمارسهـا منذ بدء عمليات الاحتلال الصهيوني في فلسطين .

لقد كانت نظرة الحركه الصهيونية الى فلسطين انهـا لا بد ان تكـون « يهوديـة مثل كـون انجلترا انجليزيه » (٣١) ويستتبع ذلـك بالضرورة ان جميع عمليات وضع القيم والمشاركـه فيهـا لا بـد آن تسيـر على خط « اليهودانية » وحـده ، فوضعت جميع الحقـوق والالتزامـات على اساس افتراض « اليهودانية » وقد كان اتجـاه الصفوة الصهيونية طوال فترة الاحتلال يقوم على ثلاثة مبادىء : ارض يهوديـة ، عمل يهودي ، ناتج يهودي (٣٢) . وقد « هودت » هــذه الدعامـات للعمليات الاجتماعيـة المجتمعـة بعـد ان استبعد عـنها الوطنيـون غير اليهود ، فاصبح يوجد الان ارض يهوديـة تقتصر ملكيتهـا على اليهـود او باسم « الشعب اليهودي » وهنـاك العمل اليهودي الذي لا يمكـن ان يؤجر الا لفلاحـة الارض اليهودية ،وهناك الناتج اليهودي الذي لا يجب ان يشتريه او يستهلكه الا اليهود . وقد يضيف احد بنـاء على ذلك ان هنـاك حقوقا يهودية لاكتســـاب الجنسية ، وحقوقـا يهوديـة للهجرة وحقوقا يهودية لكل شـيء، وبسبب هذا « التهويد » الشامل للعمليات الاجماعية المجتمعة يمكن ان تصبح فلسطيـن في نهايـة الامر « يهوديـة مثل كون انجلتـرا انجليزية » . ان التمييز العنصري في نظـر الصهيونيـة شيء فطري لسبب بسيط وهو ان اسرائيل دولة «للشعب اليهودي » ففي« دولة من اليهود » لا يمكـن ان يتساوى« المواطنون » من ابناء « الشعـب اليهودي » مع من ليسوا كذلك، فتساويهم معهم يعني انتفاء علةوجود دولـة من اليهـود !..

الحـواشـي

١ ـ
S.J.D. The National Law Center , George University , Washington , D.C.

ويعمل المؤلفحاليا مستشارا قانونيا لبنك الكويت الصناعي،الكويت.
Weizmann , Trial and Error , 462 (Harper and Brothers , N.Y. 1949).

٢ ـ قرار الجمعية العامة رقم ٣٣٧٩ .

٣ ـ انظر المراجعالمذكورة فيالحاشية رقم ٣٢ الواردة فما بعد.

٤ـ 6 LS I , 50 (1952) عدل مرتين ، الاولى في عام ١٩٥٨ والثانية في عام ١٩٦٨ . وادخل التعديلات في نص القانون كما ورد في كتـاب
Gouldman , Israel Nationality Law , 133 (Hebrew University , Faculty of Law ,Jerusalem , 1970).

٥ ـ 4 LS I , 114 (1950) ادخل تعديلان الاول في عام ١٩٥٤ ، والثاني في عام ١٩٧٠ ووردا في نفس القانون ونشرا في الكتاب الآنف ذكـره في صفحـة ١٤١ .

٦ ـ انظر كتاب جولدمان صفحتي ١٩ ، ٢٠ .

٧ ـ
Rosenne , The Israeli Nationality Law 5712 -

1952 and the Law of Return 5710 - 1950 ° 81
J . D . Int . 5 , 19 (1954) .

٨ ـ The Jewish Agency's Digest of Press and Events and Events (The Digest) , Vol . IV , No . 40 at 13180 .

ـ Liliental , the Other Side of the Coin , 72 (1965)

١٠ ـ Boasson , Some Theoretical and practical considerations of the Israeli Nationality Law , 2 N T , Int' I R . 375 at 377 ,380 (1955)

وكان بواصون يعمل مستشارا قانونيا للمفوضية الهولندية في اسرائيل .

١١ ـ Rosenne , 37

١٢ ـ انظر The Nationality Law , Section 2 (c) (3)

١٣ ـ عن التحليل القانوني الصهيوني لهذا المفهوم انظر
Feinberg , The Recognition of the Jewish people in International Law , Jewish Yb . Int 'I L .I (1948)

وانظر التحليل القانوني الموضوعي لهذا المفهوم في :
Mallison , the zionist - Israel Juridical Claims to Constitute « The Jewish People » Nationality Entity and to confer Membership in it : Appraisal in Public International Law , 32 Geo . Wash L . Rev . 983 (1964)

وقد رفضت الحكومة الامريكية مفهوم « الشعب اليهودي »واعتبرته غير صحيح طبقا للقانون الدولي . انظر
Whitman , Digest of International Law 35 (1967)

١٤ ـ ليس من السهل ذكر اسماء كل المراجع الصهيونية في هذا الموضوع . انظر
Hertzberg , The zionist Idea : A Historical Analysis and Reader , (1959)

١٥ ـ انظر الشهادة التي ادلى بها كبير الحاخامات دكتور هرتزوج امام لجنة الامم المتحدة الخاصة بشان فلسطين في سنة ١٩٤٧ .
A . / 364 , Add . 2 , Vol . 111 , 130 (N.Y. 1947)

١٦ ـ النص التالي ماخوذ من طبعة جريدة من عدد اذار ١٩٦٣ من مجلة تصدر اربع مرات في السنة . وهي بعنوان « قضية ازوالد رومينصون » (الاخ دانيال).

١٧ ـ المقتطفات التالية ماخوذة من كتاب :
Peretz , Israel and the Palestine Arabs , 123 (Washington , D.C. 1958).

١٨ ـ كان الفلسطينيون الذين عاشوا في منطقة المثلث اشد معاناة من غيرهم لان المنطقة سلمت لاسرائيل كنتيجة لاتفاقيات الهدنة.

١٩ ـ Section 18 (a)

٢٠ ـ Oseri v . Oseri , Int . L. Rep . 17 (1950), Hussein v. Governor of Acre Prison , Id .

٢١ ـ النص التالي يقوم على دراسة لهذا الكاتب عنوانها : قانون العودة وقانون الجنسية في الدولة الاسرائيلية : دراسة للقانون الدولي وقانون المجالس البلدية .
الفصلان الرابع والخامس (مركز البحوث الفلسطينية ،بيروت، ١٩٧٢) (باللغة العربية)

٢٢ ـ Gouldman , 18

٢٣ ـ The Nottebohm Case , I . C.J. Rep , 23 (1955)

٢٤ - Section 5 (a) (I -4) : Rosenne ,19 , 21

٢٥ ـ 23 Am . J . Int 'I . L. Supp,26. (emphasis added)

٢٦ ـ Lauterpacht , H. The Nationality of the Denationalized Persons , Jewish Yb . Int'l 164 , 165 (1948)

٢٧ ـ Cited in Lauterpacht . Id . 175 . Silving , Nationality in comparative Law , 5 Am . J . Com, L 410 , ft . 36 , at pp . 418 - 419 .

٢٨ ـ Goldmann , 67

٢٩ ـ Id . (emphasis added)

٣٠ ـ Id . ft . 3 at 19

٣١ ـ Weizmann , 244

٣٢ ـ See Encyclopedia of zionism and Israel , Vol I, 99 , 213 : Granott , Agrarian Reform and the Record of Israel (1956) .
Granott was the Chairman of the Jewish National Fund .
Relevant articles of the Constitution of the Fund may be found in ESCO , Vol . I , 340 , 341 , Weinstock , The Impact of zionist Colonization on Palestinian Arab Society Before 1948 , Journal of Palestine Studies , Vol . 11 , No . 2 (6973) P. 49. Granovsky , Land Problems in Palestine (Trans . by Wedgood , 1926) . the Constitution of the Jewish Agency , Art . 3 (e) (London , 1929) , Simpson's Report on Immigration ,Land Settlemen and Development , Cmd . , 3686 (1930) P. 52 and Passim , Ruppin , Three Decades of Palestine (Jerusalem , 1936) .

وكان روبين رئيسا لقسم الاستعمار بالوكالة اليهودية في فلسطين.

د. أسعد عبد الرحمن

عودة العرب اليهود : المسأله والحل

قدمت حركة المقاومة الفلسطينية ، في منتصف العام ١٩٧٥ ، مذكرة الى الملوك والرؤساء العرب اقترحت عليهم فيها تبني خطــــه متكاملة لتنظيم الهجره اليهودية المعاكسه من اسرائيل . وقد انطلقت الخطة من فرضية مؤداها ان اليهود الذين اقاموا في البلاد العربيــــه تعرضوا لمؤامرة صهيونية تضمنت الترغيب والتهديد لحثهم على الهجرة الى فلسطين . وقد تواكب ذلك ((مع قصر نظر لدى الانظمة العربيــه مما حمل هؤلاء اليهود على الهجرة الى اسرائيل .. (حيث) وقعــوا بين نارين : فقد خضعوا أولا لتمييز عنصري داخل اسرائيل ، وفقدوا ، ثانيا ، الامل بالعثور على ملجأ آخر لهم)) (١) . ولذلك جاء اقتـــراح المقاومة الفلسطينية داعيا الدول العربية الى اعادة ((الثقة الى نفوس اليهود العرب في اسرائيل ، وتنظيم حملة لاعادة تهجيرهم من اسرائيل واعادتهم الى الدول العربية التي نزحوا منها)) (٢) .

ومنذئذ ، أصبحت المسالة مطروحة عمليا وواقعيا ، اذ بــادرت بعض الحكومات العربية (وبالذات المغرب والسودان) الى تبني اقتراح المقاومة ودعوة اليهود العرب الى العودة ، في حين عكفت حكومــات اخرى على دراسة الموضوع جديا تمهيدا لاتخاذ الاجراءات اللازمة (٣) . كما أن واحدا من قادة المقاومة ، على الاقل ، قام بجهود مكثفة تمثلت في وضع دراسة لبدء الحوار حول شعار اعادة العرب اليهود الـــى مواطنهم الاصلية (٤) . كما تلا ذلك عقد ندوات خاصة وعامــة (٥) ، وتشكيل لجان متابعة (٦) هدفها اغناء الحوار واتخاذ خطوات عمليــــة لترجمة الشعار ، ولو جزئيا ، وربط عربة ((اعــادة اليهــود العرب)) بقطار النضال الفلسطيني والعربي المتجه نحو ازالة الكيان السياسي الصهيوني من الاراضي العربية المحتلة . واخيرا ، قامت صحيفــــة واحدة ، على الاقل ، بفتح المجال امام حوار علني على صفحاتها ، شارك فيه عدد من المفكرين والكتاب العرب طوال اكثر من شهر كامل (٧) .

ولقد كان طبيعيا ان يحتدم النقاش وينقسم المتحاورون . من حيث الشكل ، بين مؤيد متحمس أو متحفظ ومعارض رافض بشــــدة أو باعتدال لفكرة ((اعادة اليهود العرب)) (٨) . كذلك ، انقسم المتحاورون ، من حيث المضمون ، الى مجموعتين : واحدة تقبل بالفكرة لاعتبــارات مبدئية و / أو عملية ، ومجموعة اخرى ترفض الفكرة ذاتها اما لاسباب مبدئية و / أو عملية ، وعلى الرغم من ان النقاش عانى ، بحكم احتدامه ، من الامراض المعتادة في كل حوار ساخن ، فانه ـ بالتأكيد ـ أسهم الى حد بعيد في تسليط الضوء على الفكرة وازالة كثير من الظلال التـــي احاطت بها وحجبت بعض جوانبها . وكي لا يكون كل ذلك الجهد الذي بذله الجميع لاثراء الحوار طفرة سرعان ما تبخرت ، ومن اجل دفــع الحوار خطوة جديدة الى الامام ، لا بد من محاولة جديدة لتسجيــل الحقائق بعد أن زال عنها الضباب الذي نشأ في الاصل من ملامســة الجزء الماضي من النقاش للوقائع الباردة . فما هي أولا مسوغـــات قبول الفكرة الداعية الى عودة اليهود العرب الى بلدانهم السابقــة ، وما هي ثانيا أبرز الذرائع التي أتى بها كل من عارض الفكرة ، وما هي ثالثا قيمة تلك الذرائع ، وما هو رابعا وأخيرا الاطار السليم لبـدء ترجمة ذلك الشعار الترجمة العملية المطلوبة .

أ ـ مسوغات القبول :

لا يخفى على أحد ان الهجرة اليهودية الى اسرائيل هي عـــلى رأس قائمة الاولويات الاسرائيليه والصهيونيــــة . بل ان الصهيونية ليست ، في جوهرها ، الا هجرة اليهود الى فلسطين لاقامة وطن قومي لهم دون ان نقيد حركتهم في ذلك الاتجاه حــدود معلنة (٩) . كما ان الهجرة اليهودية الى فلسطين تشكل بالنسبة لاسرائيل ـ علاوة عــلى كونها الفكرة المركزية في الايديولوجية الصهيونية ـ المصدر الافضــل لتأمين الامان المعنوي لليهود والامن الفعلي المادي لاسرائيل . وهــذا يفسر تشجيع اسرائيل يهود العالم على الهجرة بدءا بما اعلنته فـــي ((وثيقة الاستقلال)) في العام ١٩٤٨ ، ومرورا ((بقانون العـــودة)) للعام ١٩٥٢ ، وانتهاء ((بقانون الجنسية)) للعام ١٩٥٢ وما تلاه مــن أنظمة واجراءات في الاعوام التالية (١١) . كما أن ذلك يفسر الاجماع على موضوع الهجرة من قبل جميع الاحزاب الاسرائيليـــة بما في ذلك حركة ((سيح)) (اليسار الاسرائيلي الجديد) ، والفهود الســود ، وحتى منظمتي ماتزين وراكاح المناوئتين للصهيونية (١٢) .

وعلى الرغم من عدم نجاح الحركة الصهيونية واسرائيل في جهود تجميع يهود العالم ، فقد ازداد عدد سكان ((اسرائيل)) اليهــود من ٦٥٠ الفا في العام ١٩٤٨ الى ما تجاوز مليونين ونصفا من اصــــل ما يقارب ١٦ مليونا من اليهود في العالم (١٣) . وغني عن الذكر ان تلك الزيادة اضافت الكثير الى قوة الدولة الصهيونية التي لم تكن ، مــع ذلك ، خلوا من المشاكل الاساسية . ولعل أبرز هــذه المشــاكل : انقسام المجتمع عموديا بين طائفتي الاشكنازيم والسفارديم ، وما رافق ذلك من توترات وأزمات مجتمعية (عنصرية ، وطبقية ، وثقــافية ، وسياسية) ، وتغير سمة التكوين البشري الطائفي الاسرائيلي من مجتمع ((غربي)) عرقيا الى مجتمع ((شرقي)) ، اذ انخفضت نسبة الاشكنازيم من ٩٠ ٪ في العام ١٩٤٨ الى أقل من ٤٠ ٪ الان (١٤) . بل ان الاهم من ذلك كله ، نشوء ما يمكن تسميته ((بتحدي الهجرة)) (١٥) أمــام اسرائيل وبخاصة في ظل تحول محصلة الهجرة الى الحدود السلبيــة وتغلب ارقام الهجرة المعاكسة من اسرائيل على أرقام الهجـرة اليهــا مع العام ١٩٧٥ (١٦) .

وكي لا تكون ((مؤشرات ١٩٧٥)) هذه مسالة عابرة (كما كان عليه

الحال في مؤشرات ١٩٥٣) ، ومن أجل ان يستديم تحدي الهجرة في وجه اسرائيل ، وفي سبيل تفسيخ المجتمع الصهيوني الاسرائيلي تكتيكيا واستراتيجيا وصولا الى تحقيق الاهداف الفلسطينية والعربية الخاصة باقامة الدولة العلمانية الفلسطينيه تمهيدا لقيام الدولــة العربيه العلمانيه الديمقراطية في جميع أرجاء الوطن العربي ، لا بد من تبني مشروع دعوة اليهود العرب للعودة الى أوطانهم الاصلية كحلقة مـــن سلسلة المشاريع القتالية العسكرية والسياسية والاقتصادية التـــي يقتضيها تحرير العرب لارضهم وتحقيق أهدافهم الاستراتيجية الاخرى.

ب ــ ذرائع الرفض (١٨) :

أما أبرز الذرائع التي يطرحها معارضو مشروع دعوة العرب اليهود للعودة الى بلدانهم الاصلية فتتلخص بالآتية :

١ ــ تنطوي الدعوة على سحب البساط من تحت أقدام المشروع الفلسطيني الهادف الى اقامة الدولة الديمقراطية العلمانيه فـــي فلسطين . ذلك أنه اما ان نلتزم بذلك المشروع فنبقي اليهود حيث هم لكي تتشكل منهم الدولة الديمقراطية العلمانية العتيدة ، أو نسحبهم من هناك فينتفي بذلك الاساس البشري اللازم لاقامة مثل تلك الدولة.

٢ ــ سيؤدي تنفيذ فكرة عودة اليهود العرب الى تفريغ فلسطين المحتلة من اليهود الشرقيين ، مخففا بذلك من حدة أزمـــة التناقض بينهم وبين اليهود الغربيين من جهه ، ومفسحا المجال أمام استجلاب موجات هجرة جديدة من هؤلاء الاخيرين من جهة ثانية .

٣ ــ سيكون الاتيان باليهود العرب الى الدول العربية كمن جاء « بالدب الى كرمه » . ذلك ان احضار يهود تشبعوا بالفكر الصهيوني طوال اكثر من ربـــع قرن ، سيجعل منهم طـــوابير خامسه وعملاء وجواسيس جاهزين للعمل لصالح اسرائيل وبخاصة وانهـم ــ يضيف البعض ــ سيكونون عرضة في البلاد العربية للتمييز القومي والديني ضدهم . ناهيك عن انهم سيبتلعون ، بما عرف عنهم من حذاقة فـي أعمال التجارة ، اقتصاد البلدان العربية التي يفدون اليها وسيشربون النفط العربي حتى آخر قطرة .

٤ ــ ستقتصر عودة اليهود ــ ان عادوا ــ على الكبار في الســن الذين لا يزالون يحملون معهم ارتباطهم بالاوطان التي نشأوا فيهـــا . وعندئذ نكون قد خففنا عن اسرائيل عبئهم أولا ، وارهقنا انفسنا بهـم ثانيا ، دون ان نفرغ اسرائيل من عنصرها البشري الذي تحشــــده لقتالنا ثالثا .

٥ ــ اليهود ــ في الدين والتاريخ ــ أشرار بطبيعتهـم ، ولذلك سيكونون دوما أدوات خراب و / او افساد . فلم نأتي بالطاعون الى عقر دارنا ؟

٦ ــ المسالة غير مطروحة فعليا وعمليا .

ج ــ قيمة الذرائع :

تنطوي الذرائع المساقة اعلاه على ثغرتين اساسيتين :

فبعضها ، أولا ، ذاتي الى درجة السفم . وما كان ليضير فكرة ما أن تكون ذاتية طالما ان ذلك ينطبق على الواقع الموضوعي او ــ عـلى الاقل ــ لا يجانبه كثيرا . وقد نتج عن المنحى الذاتي المفرط الـذي يتبدى في كثير من الذرائع المعطاة اعلاه ، عدة نواقص . فالذاتيـــة تلك ، دفعت البعض الى خلق « حقائقهم » على حساب الحقـــائق القائمة و / او تلوين تفسيراتهم للحقائق بالوانهم الشخصية الذاتية . كذلك ، قادتهم ذاتيتهم ــ في حالات أخرى ــ الى لوي أذرع الحقائق و / او جعلها مطلقة تنطبق على كل زمان ومكان .

فالبعض بذاتيته الشوفينية او الفاشية ، او ربما بكلتيهما ، قرر ــ هكذا ــ بأن اليهود بطبيعتهم أدوات شر وافساد وانهم جبلوا عـلى الخداع واللؤم .. وما الى ذلك من نعوت تدين صاحبها اكثر ممـــا تسمفه . وغني عن الذكر ، في هذا المجال ، ان مثل هذه « الحجة » لا تستند الى أي أساس علمـــي . ذلك انه ــ علميا وتاريخيا ــ ليس هناك من شعب منفوق أو مختار (بالمعنى النازي أو بالمعنى الذي ينادي به كاثوليك الكهان اليهود او الصهاينة) ، تماما مثلما ليس هناك شعب جبان أو لئيم أو ما الى هنالك من صفات . ولنذكر في هذا الصـدد ما روجه الاستعمار الفرنسي من الطبائع المخزية التي اراد حينــذاك الصاقها عشوائيا بالشعب الفيتنامي ، وكيف ان الحقائق عادت فأكدت نفسها وقامت بدفن الاصباغات الذاتية الفرنسية . وكذلك الحـال مع الشعوب الصينيه ، والكوبية ، والعربية ، وغيرها من الشعوب التي تعرضت ــ حديثا بالمقياس التاريخي ــ الى فيض من مغالطات لم تنم الا في خلايا العقول الفاشية .

ولعل الاخطر من هذا كله ، كـــون البعض قد قام ــ هكذا ــ بتعيين نفسه فقيها في الدين الاسلامي وضليعا بتفاسيره ، فاجتزأ من الآيات ما حلا له ، ناسيا (أو على الارجح متناسيا) ان اليهود مـن أهل الكتاب وان ما كان من أمر بعضهم ، في مـــكان وزمان معينين ، لا ينطبق عليهم جميعا وفي كل الاماكن والازمان .

كما ان اصرار البعض باغماض عينيه عن الحقائق القائمة والتقرير ــ هكذا ــ بأن المسالة غير مطروحة عمليا وعمليا ، أمر فيـــه الكثير من الذاتية . ذلك ان المسالة مطروحة فلسطينيا من خلال ما عرضناه في مقدمة هذه الدراسة . وهي ، كذلك ، مطروحة عربيا بدليل ان بعض الدول العربية (وبالـــذات العراق ، والسودان ، والمغرب ، وتونس) أعلنت قرار ترحيبها بعودة اليهود العرب ، وسنت قوانيـن خاصة بهدف تشجيع عودتهم . كما أن المسالة مطروحة اسرائيليا مـن خلال ما ترويه الارقام من ازدياد في حجم الهجرة المعاكسة ومن خلال ما أعلنته المصادر الاسرائيلية (وبالذات مصادر الفهود السود) مؤخرا عن بدء عودة يهود المغرب الى وطنهم الاصلي (١٩) .

واخيرا ، يطالعنا من ثغرة الاراء و « الحقائق » الذاتية المشار اليها أعلاه ادعاء يقول بأنه لن يغادر اسرائيل الا كبار السن و / أو أن من يغادرها هو بالضرورة متشبع بالافكار الصهيونية . وفيما يتعلــق بالشق الاول من الادعاء ، لا يجد المرء أي أساس علمي يدعمه . بل ان حديث الوقائع ينسف ذلك الادعاء من أساسه (٢٠) . وفيما يتعلــق بأولئك الذين يسوقون « حجة » التشبع بالافكار الصهيونية، لا يعرفون ــ فيما يبدو ــ معنى الصهيونيـــة التي هي ــ أو قبل كل شيء ــ العودة و / أو السعي من أجل دعم عودة اليهود الى صهيون . ثم ان من عاش في اسرائيل وغادرها قرفا لا يتوقع له ان يكون داعية للفكر والعمل الصهيونيين أو مؤمنا بهما .

أما الثغرة الاساسية الثانيه التي تنطوي عليها الذرائع المقدمة من رافضي فكرة عودة اليهود العرب الى أوطانهم ، فتكمن في خلطهم بيـن سلامة المبدأ وصعوبة التطبيق . فرفض فكرة ما لانها تنطوي على تكاليف أو صعوبات فحسب ، أمر لا يحتاج الخطأ فيه الى أيـة ايضاحات . ذلك ان الصعوبات او التكاليف واردة في كل مهمة كبرت أو صغرت . والمهم هو ان لا تكون التكلفة اكثر من قيمة الهـــدف المنوي تحقيقه . وفيما يخص بموضوعنا ، لا يختلف اثنان على ان هدف ازالة الكيـان السياسي لاسرائيل لا يتقدم عليه أي اعتبار وتهون من أجله كل التكاليف بشرية كانت أم ماليه . وليس في مثل هذا القول آية عاطفية ــ كما كان يبدو لاول وهلة . ذلك ان أية حسابات علمية للارباح والخســائر في عملية اقامة الدولة الديمقراطية العلمانية على أرض فلسطين لا بـــد وأن ترجح ــ بالقطع ــ كفة الارباح .

ولعل اضعف الذرائع قاطبة هي تلك القائلة بأن من يعود مـن اليهود العرب سيكونون من الجواسيس و / أو طوابير خامسة . وبدون

مناقشة للبعد الفاشي ـ الشوفيني الذي قد يتضمنه مثل هذا القول، نقول : ربما يكون ذلك الافتراض صحيحا جزئيا . أي ربما يكون البعض اما عائدا في مهمة تجسسية أو جاهزا اكثر من غيره ليكون طابورا خامسا . ولكن الجواب على هذه « المعضلة » بسيط اذ انه لا يستحق اكثر من سؤال نسأله : ألم تثبت أجهزة الاستخبارات والمباحث الداخلية العربية جدارتها اكثر من اية أجهزة في هذا الوطن ؟ وعليه فان مثل ذلك التخوف المضخم يتقلص ـ عند التفحص والتدقيق ـ الى حجمه الحقيقي فيغدو مجرد مسألة فنية (٢١) .

د ـ حيثيات الخطة ومعالم تنفيذها :

لا بد ، في البداية ، من استعراض العوامل التي طالما ساعدت على ازدياد هجرة اليهود الى فلسطين المحتلة قبل وبعد العام ١٩٤٨ ، والعوامل التي طالما ساعدت على اضعاف تلك الهجرة وتحويلها أحيانا الى هجرة معاكسة من اسرائيل الى الخارج ، وتوظيف نتائج هذا الاستعراض التحليلي لرسم الخطة العربية لواجبة .

أما العوامل المساعدة على هجرة اليهود الى فلسطين واضعاف الهجرة المعاكسة منها فتتلخص فيما يلي :

أولا ـ اللاسامية التاريخية (ما قبل العام ١٩٣٩) وبخاصة في دول أوروبا واستثمار الحركة الصهيونية لها (٢٢) .

ثانيا ـ ظروف مقدمات الحرب العالمية الثانية ونهاياتها (الاستفادة من يهود المعسكرات في أوروبا الغربية ، ومن يهود اوروبا الشرقية) (٢٣) .

ثالثا ـ ظروف تقسيم فلسطين في العام ١٩٤٧ ، والحرب العربية الاسرائيلية الاولى في العام ١٩٤٨ وما رافقها من عواطف وردود فعل قومية متسرعة معادية لليهود (سياسيا واقتصاديا) في البلاد العربية (٢٤) .

رابعا ـ الانتعاش الاقتصادي في اسرائيل في الاعوام (١٩٥٥ ـ ١٩٥٧) في أعقاب تبلور أثر التعويضات الالمانية (الرسمية والشخصية) بدءا من العام ١٩٥٣ . كذلك الانتعاش الاقتصادي في الفترة (١٩٦١ ـ ١٩٦٤) (٢٥) .

خامسا ـ النصر العسكري الاسرائيلي المذهل في العام ١٩٦٧ وما خلقه من مشاعر قوية وتضامن وثقة في وسط يهود العالم (٢٦) . تماما مثلما كانت الصهيونية قد استخدمت ، في الماضي ، ولا تزال تستخدم ، تكتيك « التهويل بالخطر الخارجي » لاخفاء (٢٧) التناقضات والوجه البشع لاسرائيل ولتشحن يهود العالم بالتعاطف مع اسرائيل والتحرك باتجاه انقاذها .

سادسا ـ التحرك السياسي والاعلامي الصهيوني المكثف ، وبخاصة منذ العام ١٩٦٧ ، ضد الاتحاد السوفياتي لاحراجه والضغط عليه لتشجيع هجرة اليهود السوفيات الى اسرائيل . وقد سرّع انحياز الاتحاد السوفياتي للعرب سياسيا وعسكريا منذ العام ١٩٦٧ في حدوث الطلاق السوفياتي ـ الاسرائيلي ، وأطلاق يد الحركة الصهيونية في معاداة الاتحاد السوفياتي الذي كان لتلك الحركة معه ـ علاوة على العداء النابع من كونها حركة استعمارية ـ ثارات قديمة (٢٨) . وهذه الاخيرة ناجمة عن الموقف الصلب الذي وقفته روسيا منذ الثورة البلشفية ، اذ لم تسمح السلطات السوفياتية الا بهجرة (١٥،٨٠٠) يهودي في الفترة (١٩١٩ ـ ١٩٢٣) ، وما يعادلهم في السنوات (١٩٢٤ ـ ١٩٣١) ، وبهجرة عشرة أشخاص فقط في الاربعينات والخمسينات ، وبهجرة خمسة اشخاص مسنين طوال الفترة ما بين ١٥ ايار (مايو) ١٩٤٨ ونهاية العام ١٩٥١ ، في حين لم تسمح بهجرة أحد فيما بين ١٩٥٢ ومنتصف ١٩٥٣ ، وهجرة ١٢٥ شخصا فقط طوال الفترة ما بين (تموز ١٩٥٣ ـ وايلول ١٩٥٥) ، وهجرة ١،١٢٠ في العام ١٩٥٨ ، وهجرة مئتي يهودي في العام ١٩٦٣ (٢٩) . هذا وتسعى اسرائيل الى تهجير يهود الاتحاد السوفياتي اليها لكونهم لا يعينون اسرائيل ماليا ، ولا يشكلون قوة سياسية ضاغطة على القيادة السوفياتية (كما هو الحال في الولايات المتحدة وغيرها) ، ولكونهم « كوادر علميه » تستفيد منها اسرائيل ، علاوة على الرغبة في استخدامهم لتعديل التوازن البشري الطائفي في اسرائيل وذلك بترجيحهم لكفة الاشكنازيم (٣٠) .

سابعا ـ الايديولوجيات والمواقف الشوفينية العربية ، الرسمية وغير الرسمية ، طوال سنوات عديدة من جهة ، وتقصير الاعلام العربي التقدمي الجديد ازاء اليهود والشرقيين منهم على نحو خاص ، من جهة ثانية . ولعل هذا هو السبب الاهم في ابقاء « حركة الفهود السود » ، مثلا ، غير مستعدة « للمشاركة في الكفاح العربي ضد الصهيونية » وكونهم غير مهتمين « سوى في الحصول على قطعة من الجبنة الصهيونية في اسرائيل » (٣١) . كما أن ذلك كله ، أضافه الى غياب برنامج ايجابي عربي لاعادة توطين اليهود العرب الاسرائيليين في الوطن العربي ، لعب دورا بارزا في « اغلاق » عقل اليهودي العربي في اسرائيل ازاء احتمالات عودته الى موطنه الاصلي ، وبالتالي بقائه في الدولة الصهيونية طالما انه غير قادر لاسباب ثقافية ونفسية ومالية على الهجرة الى الدول الغربية (٣٢) .

اما العوامل التي اضعفت الهجرة الى اسرائيل او ساعدت على الهجرة المعاكسة منها فتتلخص في التالية :

أولا ـ المقاومة الرسمية والشعبية العربية المتمثلة في المقاطعة الاقتصادية والرفض السياسي وبالذات القتال العسكري وبخاصة منذ ظهور حركة المقاومة الفلسطينية المسلحة بدءا من العام ١٩٦٥ وما أعقب ذلك من معارك كان ابرزها ما وقع في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣ .

ثانيا ـ نضوب ما عرف باسم « مناطق الضيق » (اوروبا الشرقية ، العالم العربي) نتيجة هجرة غالبية يهود هذه المناطق الى اسرائيل في أعقاب قيام الدولة الصهيونية (٣٣) .

ثالثا ـ أغراءات ما عرف باسم « مناطق الرخاء » (اميركا الشمالية والجنوبية ، اوروبا الغربية ، اوستراليا ، افريقيا الجنوبية) لليهود للبقاء فيها أو الهجرة اليها من اسرائيل وغيرها (٣٤) .

رابعا ـ الازمات الاقتصادية في اسرائيل ، وبخاصة في العامين (١٩٥٢ ـ ١٩٥٤) ، وكذلك في العامين (١٩٦٥ ـ ١٩٦٧) . وقد انخفض مستوى الهجرة في هاتين الفترتين بشكل ملحوظ وازدادت فيها الهجرة المعاكسة من اسرائيل (٣٥) .

خامسا ـ عدم صهيونية العديد من اليهود وتفضيلهم لمستقبلهم الذاتي . ومن الادلة البارزة على ذلك ، أنه عندما استقلت الجزائر لم يهاجر الى اسرائيل الا ٧ ٪ من مجموع ١١٠ آلاف من اليهود الجزائريين . وقد فضل الباقون السفر الى فرنسا والاقامة فيها (٣٦) .

سادسا ـ القيود السوفياتية على هجرة اليهود الى اسرائيل (٣٧) . ولهذا العامل أهمية بالغة ، خاصة اذا تذكرنا ان عدد اليهود في الاتحاد السوفياتي يكاد يعادل عدد يهود اسرائيل (٣٨) . وفي هذا المجال ، لا تلجأ الدولة السوفياتية الى الاجراءات السلبية بمنع اليهود من المغادرة فحسب ، بل انها بالتمييز (المقصود وغير المقصود) لصالح سكانها من اليهود تجعلهم غير راغبين في مغادرة الاتحاد السوفياتي على الرغم من الضغوط الصهيونية والاسرائيلية الهائلة عليهم. والدليل على حسن المعاملة هذه (بل ربما التفضيل) أن يهود الاتحاد السوفياتي الذين لا يشكلون الا ١،٥ ٪ من مجموع السكان يشكلون ١٤،٧ ٪ من الاطباء ، ١٤ ٪ من الكتاب ، و ١٠،٤٤ ٪ من المحامين، و ٣٢ ٪ من الملحنين والمؤلفين ، و ١٣ ٪ من الفنانين في الدولة السوفياتية (٣٩) .

سابعا – المشاكل غير الاقتصادية داخل اسرائيل . وتتلخص هذه في مشاكل الاستيعاب والتكيف وما يرافقها من احساس شديد بالغربة والعزلة ، والروتين الحكومي المعقد والممل ، والامتيازات التي تقدم للمهاجرين الجدد والتي خلقت ردود فعل عدائية في وسط المهاجرين القدامى الذين أصبحوا يجاهرون بعدائهم لكل مهاجر جديد بحيث يسرعون في مغادرته البلاد ان حضر ، أو « اقناعه » بالاحجام عن الحضور ان كان يفكر في ذلك (٤٠) . وأخيرا ، وليس آخرا ، مشكلة التمييز العنصري الحاد داخل المجتمع الاسرائيلي وتحول الاغلبية اليهودية الى مواطنين من الدرجة الثانية وما نتج عن ذلك من ثورات وحركات رفض وتمرد (٤١) .

ثامنا – مواقف بعض الدول العربية ازاء هجرة مواطنيها من اليهود الى اسرائيل وتشجيعهم ، نفسيا وماديا ، على البقاء في البلدان العربية المعنية . ولعل الامثلة البارزة في هذا المجال موقف لبنان منذ العام ١٩٤٨ وكل من المغرب وتونس منذ العام ١٩٥٨ (٤٢) .

اذن ، وبعد أن استعرضنا العوامل التي تساعد على هجرة اليهود الى اسرائيل ، ودرسنا العوامل التي تقلل من الهجرة اليها أو التي تزيد الهجرة منها ، ما هي معالم الخطة العربية التي تزيد من تفاقم « تحدي الهجرة » الذي يواجه اسرائيل ، وتساعد ، في الوقت ذاته، على تفسيخ المجتمع الصهيوني فيها ، وتعزز ، بالتالي ، حركة الثورة الفلسطينية والعربية ازاء العدو الصهيوني ؟

أولا – نشر وترسيخ الفكر التقدمي المضاد للفكر الفاشي والشوفيني الذي لا يميز ضد اليهود فحسب ، بل وضد الاقليات الاخرى بشكل عام .

ثانيا – تأكيد الدول العربية رسميا ، وعلى أعلى المستويات وبأكثف زخم ممكن ، الموقف المبدئي التاريخي للامة العربية المتسامح مع الاقليات بشكل عام ، ومع الطائفة اليهودية بشكل خاص ، وارفاق ذلك بخطوات عملية جذرية تعزز أوضاع ما تبقى من اليهود فيالبلدان العربية . ولعل في موقف الثورة الفلسطينية من يهود لبنان أثناء الحرب الاهلية اللبنانية خير مرشد في هذا المجال ، ناهيك عن الموقف العراقي ، في دستور العام ١٩٢٥ ، والذي كان ساوى بين المواطنين العراقيين يهودا وغير يهود ، في الحقوق والواجبات ، وذلك قبل أن تلغي حكومة نوري السعيد ذلك النص عمليا في الاجراءات التعسفية التي أقدمت عليها في العام ١٩٥٠ (٤٣) .

ثالثا – تبني الدول العربية رسميا ، وعلى أعلى المستوياتوبأكبر كثافة من الجدية ، قرارا يسمح بعودة اليهود العرب الى الدول العربية ، كمواطنين أصيلين ، لا رعايا ، مع تمكينهم – ماديا – من اعادة بناء مستقبلهم في وطنهم الجديد – القديم وذلك بشد أزرهم عن طريق جهود « الوكالة العربية » التي تنشأ لهذه الاغراض (٤٤) .

رابعا – تمتين صلات الدول العربية بالاتحاد السوفياتي وتشجيعه ، بمختلف الوسائل ، على مقاومة الضغوط الصهيونية والغربية الموجهة اليه لفتح أبواب الهجرة على مصراعيها أمام اليهود السوفيات ، والسعي لدى الدولة السوفياتية من أجل اعادة اغلاق الباب نهائيا في وجه التأثيرات الصهيونية على المواطنين السوفيات ، وقبول اعادة اليهود السوفيات الذين اكتشفوا جوهر اسرائيل البشع فغادروها فعلا أو هم في طريقهم الى مغادرتها .

وبعد ، ان الدعوة الى عودة اليهود العرب من اسرائيل الىالبقاع الاصلية التي سبق لهم وعاشوا فيها على امتداد رقعة الوطن العربي ، هي الوجه الآخر للدعوة الهادفة الى تنفيذ الهدف الاستراتيجي للثورة الفلسطينية والخاص باقامة الدولة العلمانية الديمقراطية فيفلسطين. بل ان هذه الدعوة تشكل ركنا أساسيا من اركان الهدف الاستراتيجي للامة العربية الساعي الى اقامة الدولة العربية العلمانية الديمقراطية التي لا غنى عنها كبوتقة لصهر انسان الارض العربية في امة واحدة متلاحمة تقطع الطريق على كل محاولات الاستعمار القديمة – الجديدة التي طالما سعت الى تقطيع أوصال الامة العربية بسيف « التمايز الديني » حينا ، وبسيف « التمايز العرقي » حينا آخر . ولعل الانتصار الابرز – ان كان ثمة انتصارات أخرى – في تجربة « المسلخ اللبناني » الاخيرة هو انتصار صيغة « دولة كل الطوائف » على صيغة « دولة لكل طائفة » . هذا من جهة ، ومن جهة ثانية ، لا تشكل الخطة الخاصة باعادة اليهود العرب الى مواطنهم الاصلية ، على عظمها وأهميتها ، الا تحديا فرعيا أمام الامة العربية . أما التحدي الرئيسي فهو في انه لن يكون للخطة المبينة أعلاه اية قيمة ما لم يقتنع يهود اسرائيل والعالم بأن اسرائيل وجدت لتزول . وهم لن يقتنعوا طالما ان نار الجبهات العربية ، باستثناء الجبهة الفلسطينية ، غير مشتعلة . كما لن يكون للخطة ذاتها أية قيمة ان لم تواكبها خطة اقتصادية وسياسية واجتماعية شاملة لتعزيز مواطنية العرب المقيمين (يهودا وغير يهود) وتمهيد الطريق ليس أمام عودة العرب (اليهود فحسب) ، بل واقناع العرب (من غير اليهود) بالبقاء في وطنهم أولا ، وتمهيد الطريق امام عودة العرب المهاجرين (من غير اليهود) الى بلادهم ثانيا . وهنا بالذات يكمن التحدي الحقيقي الذي يواجه أمتنا العربية .

أسعد عبد الرحمن
جامعة الكويت

الحواشي

١ – أنظر صحيفة « القبس » الكويتية في ٢٢ – ٢ – ١٩٧٦ ، ص ١ و ١٦ .

٢ – المصدر السابق ، ص ١٦ .

٣ – كما جاء في مقالة اللواء كمال عبد الحميد « لا .. لهذه الاسباب » ، « القبس » في ١ – ٣ – ١٩٧٦ .

٤ – أنظر دراسة أبو مازن ، عضو اللجنة المركزية لحركة التحرير الوطني الفلسطيني – فتح « الصهيونية .. بداية ونهاية » (مكتب التعبئة والتنظيم في حركة فتح ١ – ١ – ١٩٧٦) .

٥ – من نوع الندوة الخاصة التي عقدها أبو مازن ، احد قياديي فتح ، مع عدد من الشخصيات الاعلامية الفلسطينية والعربية بمقر منظمة التحرير الفلسطينية فيالكويت في شهر شباط (فبراير) ١٩٧٦ . وكذلك الندوة العامة التي عقدت بدعوة من الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين – فرع الكويت بتاريخ ١٦ – ٣ – ١٩٧٦ والتي اشترك فيها كل من : الدكتور هاني فارس والدكتور أسعد عبد الرحمن (مؤيدان لفكرة عودة اليهود العرب) والدكتور ابراهيممكي واللواء كمال عبد الحميد (معارضان) ، وقد أدار الندوة وساهم فيها الاستاذ خالد الحسن أحد قادة فتح . أنظر تفاصيل الندوة في « القبس » بتاريخ ١٧ – ٣ – ١٩٧٦ .

٦ – فقد شكلت لجنة متابعة في الكويت ، مثلا .

٧ – أنظر صحيفة « القبس » بدءا من ٢١ – ٢ – ١٩٧٦ وحتى ٢٠ – ٣ – ١٩٧٦ على سبيل المثال .

٨ – ومن الامثلة على هذه الاراء ، أنظر مقالات مؤيدي الفكرة :

أ – توفيق أبو بكر « نعم لهذه الاسباب » ، «القبس» في ٢٨ و ٢٩ – ٢ – ١٩٧٦ .

ب – د. أسعد عبد الرحمن ، « التحدي الفرعي والتحدي الرئيسي » ، المصدر السابق ، في ٣ و ٤ – ٣ – ١٩٧٦ .

ج – حسين خليل ، « نعم .. لاسباب قومية وانسانية » المصدر السابق ، في ٩ – ٣ – ١٩٧٦ .

د – حسين أبو النمل ، « العودة .. والتصعيد العسكري » ،

المصدر السابق ، في ١٢ ــ ٣ ــ ١٩٧٦ .
اما المقالات المعارضة فهي :
أ ــ اللواء كمال عبد الحميد ، « لا .. لهذه الاسبـــاب » ، « القبس » في ١ ــ ٣ ــ ١٩٧٦ .
ب ــ فتحي الحديدي ، « لا لعودة الجواسيس » ، المصـــدر السابق ، في ٢ ــ ٣ ــ ١٩٧٦ .
ج ــ د. ابراهيم مكي ، « لا تضيفوا الى أخطائنا خطأ جديدا » ، المصدر السابق ، في ٦ ــ ٣ ــ ١٩٧٦ .
د ــ د. حسين مؤنس ، « اذا عادوا .. سيشربون النفط حتى آخر قطرة » ، المصدر السابق ، في ٧ ــ ٣ ــ ١٩٧٦
اما مقالة د. عزيز شكري فكانت معتدلة بين بينية يصعب تصنيفها. انظر : « دعائيا : نعم ، واقعيا : المسالة غير مطروحة » ، المصدر السابق ، في ٨ ــ ٣ ــ ١٩٧٦ .

٩ ــ انظر عبد الحفيظ محارب ، « الهجرة الى اسرائيل : مشاكلها وكيفية التصدي لها » ، « شؤون فلسطينية » (العدد ١٠ ، ١٩٧٢) ، ص ٥٣ . كذلك : مصطفى عبد العزيز ، « اسرائيل ويهود العالم : دراسة سياسية وقانونية » (بيروت ــ مركز الابحـــاث ، ١٩٦٠) ، ص ١١٧ ــ ١١٨ .

١٠ ــ عبد العزيز ، المصدر السابق ، ص ١١٩ ــ ١٢٠ .

١١ ــ عبد الحفيظ محارب ، المصدر السابق ، ص ٥٤ .

١٢ ــ المصدر السابق ، ص ٥٣ . كذلك : عبد الحفيظ محـارب « اليسار الاسرائيلي الجديد (سيح) » ، « شؤون فلسطينيـة » ، (العدد ١٩ ، ١٩٧٣) ص ٦٤ .

١٣ ــ كما ورد في : عبد الحفيظ محارب ، « الهجرة الـــى اسرائيل » ، المصدر السابق ، ص ٥٥ ــ ٥٦ . كذلك : أحمد حجاج ، « سكان اسرائيل : تحليل وتنبؤات » (بيروت ــ مركز الابحـــاث ، ١٩٦٨) ، ص ٨٥ .

١٤ ــ كما جاء في المصادر التالية : محارب ، « الهجــرة الى اسرائيل » ، المصدر السابق ، ص ٦٢ ــ ٦٦ . كذلك : عودة أبو ردينة « اليهود الشرقيون في اسرائيل » ، « شؤون فلسطينية » (العدد ٤ ، ١٩٧١) ، ص ٢٩٢ ــ ٢٩٥ . أيضا : عبد الحفيظ محارب ، « الهـوة الاجتماعية في اسرائيل » « شؤون فلسطينية » (العدد ١٥ ، ١٩٧٢) ص ٣٧ ــ ٤٣ .

١٥ ــ التعبير مستعار من دراسة عبد العزيز ، المصدر السابق ، ص ١١٨ .

١٦ ــ انظر : ابو مازن ، المصدر السابق ، ص ٤٥ .

١٧ ــ المقصود الهجرة المعاكسة من اسرائيل ورجحان كفتها على الهجرة الى الدولة الصهيونية في العـــام ١٩٥٣ ــ ١٩٥٤ . انظر : حجاج ، المصدر السابق ، ص ٢٩ و ٧٠ ــ ٧١ .

١٨ جميع الذرائع المتضمنة في هذا القسم مستقاة من المقالات التي كتبت ضد عودة اليهود العرب علاوة على مقالة د. عزيز شكري الآنفة الذكر . انظر حاشية رقم ٨ .

١٩ ــ انظر : ابو مازن ، المصدر ذاته .

٢٠ ــ المصدر السابق ، ص ٤٤ .

٢١ ــ من أجل تفاصيل اكثر عن مضمون القبول والرفض حـول مسالة عودة العرب اليهود ، انظر وقائع الندوة الخاصة بذلك والتي نشرت في « القبس » بتاريخ ١٧ ــ ٢ ــ ١٩٧٦ ، ص ١١ .

٢٢ ــ انظر : محارب ، « الهجرة الى اسرائيل » ، المصـــدر السابق ، ص ٥٧ .

٢٣ ــ المصدر السابق ، ص ٥٥ ــ ٥٧ . كذلك : عبد العزيز ، المصدر السابق ، ص ١١٩ ــ ١٢٠ .

٢٤ ــ محارب ، المصدر السابق ، ص ٥٦ . كذلك : عبد القادر ياسين ، « عصبة مكافحة الصهيونية فـي العراق » ، « شـــؤون فلسطينية » (العدد ١٥ ، ١٩٧٢) ص ١٥٩ .

٢٥ ــ راجع : محارب ، المصدر الســـابق ، ص ٥٧ ــ ٥٨ . كذلك : حجاج ، المصدر السابق ، ص ٧٠ ــ ٧١ .

٢٦ ــ محارب ، المصدر السابق ، ص ٥٨ .

٢٧ ــ محارب ، « الهوة الاجتماعية في اسرائيل » ، المصـدر السابق ، ص ٣٨ .

٢٨ ــ انظر : داوود تلحمي ، « بلجيكا : مؤتمر بروكسيل ويهود الاتحاد السوفياتي » ، « شؤون فلسطينية » (العدد ٢ ، ١٩٧١) ، ص ١٣٤ . كذلك : الدراســـة التي أعدها د. صلاح دباغ بعنوان « الاتحاد السوفياتي وقضية فلسطين » (بيروت ــ مركز الابحـــاث ، ١٩٦٨) ، ص ٦٢ ــ ٦٥ .

٢٩ ــ المصدر السابق ، ص ٦١ ــ ٦٢ .

٣٠ ــ تلحمي ، المصدر السابق ، ص ٢٣٦ . كذلك : محارب ، « اليسار الاسرائيلي الجديد » ، المصدر السابق ، ص ٦٤ .

٣١ ــ أبو ردينة ، المصدر السابق ، ص ٢٩٤ .

٣٢ ــ محارب ، « الهجرة الى اسرائيل » ، المصدر السابق ، ص ٦٦ .

٣٣ ــ المصدر السابق ، ص ٥٨ ــ ٦٢ .

٣٤ ــ انظر المراجع التالية : المصدر السابق ، ص ٥٨ ــ ٥٩ . كذلك : مصطفى عبد العزيز ، « الاقلية اليهودية في الولايات المتحدة الاميركية » (بيروت ــ مركز الابحاث ، ١٩٦٨) ص ١٦٤ .

٣٥ ــ حول الازمة الاقتصادية في ١٩٥٢ ــ ١٩٥٤ انظر : حجاج ، المصدر السابق ، ص ٢٩ . وحول الازمة الثانية في ١٩٦٥ ــ ١٩٦٧ راجع : محارب ، «الهجرة الى اسرائيل» ، المصدر السابق ، ص ٥٨ .

٣٦ ــ المصدر ذاته .

٣٧ ــ المصدر السابق ، ص ٦٢ ــ ٦٧ .

٣٨ ــ دباغ ، المصدر السابق ، ص ٦١ ــ ٦٢ .

٣٩ ــ عبد العزيز ، « اسرائيل ويهود العالم » ، ص ١٣ و ١٧٣ .

٤٠ ــ محارب ، المصدر السابق ، ص ٦٢ ــ ٦٥ .

٤١ ــ ابو ردينة ، المصدر السابق ، ص ٢٩٢ .

٤٢ ــ انظر : محارب ، المصدر السابق ، ص ٥٧ و ٦٦ و ٦٥ . كذلك : عبد الحفيظ محارب « ظاهرة الفهود السود في اسرائيل : اسبابها واصولها » ، شؤون فلسطينية » (العـــدد ٤ ، ١٩٧١) ، ص ١٥١ .

٤٣ ــ ياسين ، المصدر السابق ، ص ١٥٩ .

٤٤ ــ تقتضي الاشارة الى ان اول من كتب حول هذا ، بحدود علم المؤلف ، هو عبد الحفيظ محارب ، « الهجرة الى اسرائيل » ، المصدر السابق ، ص ٦٧ .

خالد القشطيني

الجذور الايديولوجية للعنصرية الصهيونية

الجو السياسي في القرن التاسع عشر :

هناك الان سيل من الوثائق تثبت الممارسات القائمة على التفرقة في اسرائيل . والواقع ان معادي الصهيونية قد اصبحوا اليوم قادرين على فضح ممارساتها . والشيء الذي بقي مهملا هو وضع هذه الممارسات في اطارها الايديولوجي ، وهو اطار لا يحاول الصهاينة التنصل منه . وقد لفتت المحكمة العليا الاسرائيلية النظر الى اهمية التأثيرات في قضية اولاد شاليت (١٩٧٠) واكدت على قيمة العنصر العرقي والدم المشترك . وقد كشف القاضي كستر عن حقيقة مهمة بقوله ((ان من الصعب ان نتكلم في هذه الايام عن العرق ولكن الصعوبة هي بصورة رئيسية صعوبة لغوية من حيث ان النازيين اعطوا كلمة ((العرق)) رائحة كريهة . بيد ان علينا ان لا نسمح للنازيين ان يديروا عقولنا بعيدا عن القيمة الحقيقية لهذه الميزة)) . ان هذه الرائحة الكريهة بالذات هي التي تجعل الصهاينة الان يتظاهرون بجرح كرامتهم . فقبل عدة اجيال كانوا يشعرون بكرامة مجروحة حقا وحقيقة لو ان احدا نفى عنهم صفة العنصرية .

انها مسألة عالمين مختلفين تماما . في العالم القديم ، عالم ما قبل الثورة البلشفية ، كان من العار الشنيع للانسان ان يسير في صحبة الماركسيين والاشتراكيين . كان المجتمع يقضي بان على الرجل المحترم ان يكون وطنيا قوميا وبنفس الوقت على الوطني والقومي ان يؤمن بتفوق قومه ونقاء عنصره . وربما شعرنا بصدمة عندما نسمع بان شخصيات مثل برنارد شو وتوماس مان وشارلس داروين وهربرت سبنسر وتوماس كارلايل وكارل كاوتسكي وكارل يونغ واوتو فايننغر ، ايدوا جميعا العنصرية بشكل او باخر .

وقد انقلبت الاية اليوم . لم يعد هناك سياسي في ايامنا هذه يقوى على تحمل تهمة العنصرية . وقد ترك الاتجاهان معا اثارهما على القومية . وبقدر ما الفنا اليوم تلون الحركات القومية والتحررية في العالم الثالث بصبغة الماركسية والاشتراكية ، كان المألوف ان نجد ان القومية في اوروبا تستعمل لغة العنصريين .

ولما كانت القومية العربية قد بلغت سن نضجها في القرن العشرين فقد رأيناها تتلون بالاثار الاشتراكية بينما تلونت الصهيونية التي بلغت سن نضجها في القرن التاسع عشر بالفكر العنصري .

عندما ظهر عمالقة الحركة الصهيونية على المسرح الاوروبي ونشرت المؤلفات الكلاسيكية الصهيونية ، كان المجتمع الانساني قد وصل نقطة ((الانطلاق)) في التقدم ، النقطة التي طالما انتظرها الانسان منذ وضع لبنتها الاولى في هذه البلاد ، بلاد الرافدين ، ونقلها لا الى الشرق الاوسط وانما الى اوروبا ايضا . ونتيجة ذلك ظهرت ((الهوة)) الشهيرة بين انجازات الرجل الابيض والعجز المخيف لبقية البشرية ، وكان لا بد لذلك من ان يغذي وهم تفوق الجنس الابيض .

ولكن كان هناك ايضا ((هوات)) تفصل بين ما سمي بالاجناس البيضاء نفسها ، اذ كانت الشعوب الاوروبية قد دخلت في صراع مرير فيما بينها للفوز بمكاسب اقليمية واستعمارية واقتصادية .

كان هناك سباق في الاستيلاء على المستعمرات وسباق في التسلح وكان العامل الكفيل بكسب اي من تلك السباقات ـ كما في اي سباقات رياضية ـ هو الايمان بالقدرة على الفوز . وهكذا ظهرت الحاجة الى سند ايديولوجي تقوم عليه فلسفة عنصرية .

العنصرية الاوروبية :

العنصرية ليست شيئا جديدا . الجديد فيها هو الثوب العلمي الذي اعطى لها منذ القرن التاسع عشر ، والشخصية البارزة في هذا الصدد هي شخصية شارل داروين . لقد سمع العلماء كيف زالت عن وجه البسيطة انواع عديدة من الحيوان بسبب عدم صلاحها للبقاء . وطبق ذلك على البشر واستنتج منه ان زوال اقوام من التاريخ كالبابليين والرومان وبقاء قوم كاليهود يعني ان اليهود اصلح للبقاء من السالفين . على يسار داروين وقف ماركس بفلسفته عن تطور المجتمع والصراع الطبقي ، مما اشتقه من نظرية داروين ،وعلى يمينه وقف فردريك نيتشه بآرائه عن الرجل المتفوق والصراع القومي، وهي آراء استمدها من فكرة الصراع على البقاء وبقاء الاصلح .

وكما سنرى بعد قليل ، فان الصهاينة لم يترددوا لحظة واحدة في تحديد موقفهم . اذ انهم بعد رفضهم لماركس تمسكوا بفكرة الصراع القومي ضد فكرة النزاع الطبقي .

وكان يوهان غوتليب فخته قد رسم الخطوط الرئيسية للعنصرية الالمانية قبل عدة سنوات من نشر ((اصل الانواع)) لداروين عام ١٨٥٩. وبموجب هذه الافكار فان على الامم ان تبقى منفصلة عن بعضها البعض،

فبكريس نفسك لخدمه قومك تخدم الانسانية باحسن صوره ،وينبغي ان تحكم الامة بواسطة النخبه . ولا يمكن لليهود ان يمتنعوا بمصالح مشتركه مع الاخرين ، والمخرج الوحيد هو تهجيرهم الى فلسطين . وما عدا ذلك فالوسيله الوحيدة لتحويلهم الى مواطنين طبيعيين هي في قطع رؤوسهم وتركيب رؤوس جديده لهم خالية من اي فكرة يهودية .

كانت افكار فخته تأمليه واعتباطية ، ولكن العنصرية ، مع تقدم العلوم ، اكتسبت شكلا واضحا ومحددا . فبالنسبة الى فخته مثلا ، ان الحدود الاقليميه للامه خاضعة للحدود اللغويه . وتم تصحيح ذلك فيما بعد بظهور علم الاجناس الذي ترك اثرا كبيرا على موضوعنا . تم تعد الامة مجرد مجموعة تتكلم لغة مشابهة وانما مجموعة تتميز بدم مشترك وسلالة واحدة وتقاسيم جسمية واحدة . وبدأت فكرة داروين عن الانتقاء الطبيعي تلعب ادوارا خطيرة في هذه الميادين . ظهر مثلا علم الوراثه ، او علم « الصحة العرقية » كما سماه الدكتور الفريد بلويتز ،وادى الى انتشار جمعيات الصحة العرقية في اواسط اوربا . ومن الجدير باولئك الذين يستشهدون بكلمات غولدا مئير عن ارتفاع نسبة الولادة بين العرب وخطرها على يهوديه اسرائيل ان يتذكروا كلمات الكاتب الانجليزي العنصري و . ر . غريك في تلك الحقبة عن « السلتيين المنحلين » (الارلنديين والويلزيين .. الخ) الذين كانوا يتزايدون بسرعة اكثر من تزايد السكسون العظماء وبالتالي اعطوا الفرصة للعرق الرديء بالغلبة نتيجة صفاته السيئة (٢) .

لقد كان العلم الحديث في مراحله الاولى وكانت معظم الاكتشافات تقوم على الملاحظات الشخصية وليس على المعلومات الاحصائية المحسوبة . وحتى شخصيه مثل هربرت سبنسر اعتقد بأن التقدم رهن بنشاط الرجل الابيض فقط . وبينما نعرف الان ان خيروسيله لتحسين الانواع هي التهجين بينها ، اشار سبنسر بالنصح ضد خلط الاصناف المختلفة.وقد استهوى علم الاجناس ، الحديث الولادة، موسى هس مؤلف « روما والقدس » واحد رواد الصهيونيةالبارزين. وبعد مزاوجه هذا العلم باليهودية ، توصل هس الى نظرياته العرقيه الصهيونيه ، فرأى ان الاختلافات بين الشعوب فطرية وموروثه وليست مكتسبه ، ابدية وليست زائلة .

وفي الحقل السياسي الاجتماعي ، لعبت مدرسة المؤرخين البروسيين بزعامة هنريخ فون تريتشكة دورا حاسما في قولبة الفكر الرجعي في اوروبا وتركت اثرا عميقا على الصهيونية من جانب وعلى الاشتراكية الوطنية الالمانية من جانب آخر . وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر، طبعت موسوعة « كولتورغشختة» (تاريخ الثقافة) للكاتب الالماني فان هلفالد وضمت ابحاثا لعشرين مفكرا عنصريا شهيرا ، بمن فيهم بكنز وكارل فوغت .

ان الاراء التي وردت في هذه الموسوعة قد ركزت على الصيغ المعهودة : العرق هو الاساس ، العرق الابيض هو المسيطر ، نقاءالعرق ضروري ، النساء والزنوج مخلوقات منحطة ، المساواة سخف ،الهوة بين الاجناس المتفوقة والاجناس الملونة ستتسع ، اليهود غرباء وسيبقون كذلك .

واكثر من ذلك شهرة كتاب « اسس القرن التاسع عشر » للكاتب هـ . أ س .تشامبرلين الذي جعل من العلم فلسفة عرقية ، وذلك قبل ان يشرع بالتهجم على اليهود والسود . وقد تميز بدحضه للامنطقية العنصريين الذين يقرون بنقاء الدم اليهودي ، وفي الوقت نفسه يتهمون اليهود بالرداءة او مركب النقص .

ويعتقد تشامبرلين ان اليهود نتاج ذرية هي خليط من البدو الساميين ومن الحثيين والسوريين والاموريين .

اما التطبيق العملي للفلسفة العنصرية فقد نادى به القومي الالماني فون تريتشكه الذي اصبحت كتاباته ، كتب سياسية ارشادية للنازيين ، وقد حظيت بشعبية كبيرة قبل ذلك في الجامعاتالالمانية، حيث كان الصهاينة الشبان يتلقون تعليمهم .

ومن التأثيرات التي نادرا ما ذكرت ، تأثير مدرسة « الاصلاح الاستعماري » فقد دعا زعماء هذه المدرسة ، اثناء اشتداد البطالة والفقر ، الى تحويل السكان الفائضين الى المستعمرات . وقد استلهمت الصهيونية معظم شعاراتها العملية من تلك المدرسة ، بما في ذلك التغلب على التضخم السكاني بواسطة التهجير واستخدام المهاجرين في الزراعة والتأكيد على اهمية الشبابيه وتحقيق هذا المشروع الاستعماري تحت ظل دستور من سلطة استعمارية وبالتالي ممارسة الحكم الذاتي في حماية تلك السلطة . ومن الاهمية بمكان ملاحظة ان المصلح الاستعماري الرائد اللورد اشلي ، كان ايضا رائدا في الحركة الصهيونية. ولم يكن للمصلحين الاستعماريين خيار آخر سوى ان يعلنوا ان شعوب المستعمرات الخاملة والمنحطة هي في ادنى مرتبات الشعوب وان يعلنوا ايمانهم بقدرة الجنس الابيض ، والا فلن يكون بامكانهم اغتصاب الارض من ابناء البلد ولن يستطيعوا أن يجذبوا مهاجرين بيضا ان هم ساووهم بأبناء البلد . وقد واجهت الوكالة اليهودية هذه المشكلة على الدوام . فهي لم تستطع رفع مستوى العرب الى مستوى اليهود بسبب مواردها المحدودة ، كما انها لم تستطع أن تجعل اليهود يعيشون بمستوى متدن كالمستوى الذي يعيش فيه العرب ، مخافة أن يرحل اليهود . وليس لديهم من خيار سوى ان يطبقوا قانون التمييز العنصري .

وعلى اية حال ، لم يكن ذلك هو الجو السياسي الكامل ، فقد كان هناك في الطرف المقابل كارل ماركس ووراءه جيش من المفكرين الاشتراكيين الذين كانوا قد اجتذبوا اتباعا كثيرين من بين المثقفين اليهود . ولكن الصهاينة لم يردعهم رادع . فتنديدهم بماركس من جهة ، وبالانصهار الحر من جهة ثانية لم يترك لهم مجالا سوى الانخراط في الجناح اليميني المتطرف للعنصرية القومية .

العنصرية القومية :

ان الصهاينة ككل العنصريين ، عثروا على ضالتهم المنشودة في نيتشه الذي عبر في مناسبات عديدة عن اعجابه الشديد بالدين اليهودي ، كدين اكثر رجولة من الدين المسيحي الذي يتميز بانثويته وعاطفيته ونفاقه .(٣) والواقع ان بالامكان اعتبار نيتشه من الصهاينة غير اليهود الذين تبنوا فكرة العودة الى فلسطين كوسيلة لابعاد اليهود البولنديين (٤) . لقد كان هيرتزل واحاد حاعام من تلاميذه الصهاينة ، ولكن منافسة هيرتزل لمعلمه الالماني ، تركزت على تمجيد القوة بشكل واضح . اما احاد حاعام فقد فتش في كتابات نيتشه عما يرضي ميله واستعداده للقبول بصوفية التفوق . ومن ناحية ثانية فقد استحوذت فلسفة نيتشه على عقول بعض المثقفين والطلاب اليهود . وكما ثار نيتشه ضد المسيحية ، فقد سخر المثقفون اليهود من ضعف وميوعات المظاهر الدينية والمعنوية للدين اليهودي . وقد تعرض الى هؤلاء اليهود « احاد حاعام » في تعليقه الشهير على كتاب نيتشه « اعادة تقييم القيم ».

(Umwertung aller werte)

ويقول في بحثه هذا ان اليهودية احتضنت « النيتشوية » ولكن نيتشه لكونه المانيا رأى التفوق من خلال الصفات الارية ، وهكذا ولدت اسطورة « الوحش الابيض العادل » ، ذلك الوحش القوي الجميل من النوع الالماني الذي يجب ان يسود العالم . ولو كان نيتشه يهوديا لاختار رجله المتفوق من بين اليهود بعد ان يكون قد اضفى عليه المسحة الاخلاقية . وليس هناك من حاجة لخلق نيتشوية يهودية لانها موجودة منذ قرون . « فاتباع نيتشه يجب ان يعرفوا ان اليهودية لم توطد نفسها على الرحمة وحدها، ولم تجعل رجلها المتفوق خاضعا للرجال العاديين ، وذلك بالرغم من ان كل الهدف من وجوده هو ببساطة زيادة سعادة عامة الناس » .

ويذهب « احاد حاعام » الى ابعد من ذلك فيؤكد ان اليهودية سبقت النيتشوية بعدة قرون بفكرة الرجل اليهودي المتفوق ، الرجل التقي ، « الصديق » ، الذي هو غاية في حد ذاته ، والذي خلق العالم من اجله .

وكما ان نيتشه حاول ان يبرهن على ان ظهور الانسان المتفوق يؤدي الى ايجاد الشروط الضرورية لظهور الامة المتفوقة ، فان « احاد حاعام » استنتج « ان هذه الفكرة تفتح آفاقا واسعة تظهر اليهودية من خلالها بثوب جديد وساحر » . ويقول : ان كثيرا من عيوب اليهودية التي يعيرنا بها الغرباء والتي يحاول علماؤنا ان يدحضوها او يبرروها تصبح صفات ايجابية ، اذا ما نظر اليها على ضوء تلك الفكرة .

ثم يمضي فيستشهد بنيتشه لتقوية حجته القائلة : « ان بامكان جميع افراد القبائل والعائلات ان يصلوا الى مستوى الرجل المتفوق». وهذا هو سبب عدم محاولة اليهود زيادة عددهم « لان من خصائص النوع المتفوق ، ان لا يرضى بالتقليل من قيمته عن طريق جعل الواجبات المنوطة به وحده ، واجبات تخص جميع الرجال » . ولكن المشكلة مع اليهود ، هي انهم لم يقدروا تماما نوعية التفوق اليهودي (٥) ، فلكي ينبعث هذا العرق المتفوق لا بد له من مكان ثابت مستقر « حتى تتاح له الفرصة ثانية لتطوير عبقريته وابلاغ رسالته كاملة متفوقة (٦) .

ان الذين سنحت لهم الفرصة لاقامة علاقات مع اسرائيليين او شاهدوا تصرف اسرائيل قد صدموا بتجاوزات ذلك الشعور بالتفوق، وبثقتهم الزائدة بالنفس وبالتالي بعجرفتهم .

ان معظم الناس يعرفون سيزار لامبروسو لمساهماته العنصرية في علم الجريمة (٧) ، ولكن قليلا منهم يعرفون موقفه الصهيوني.

وقد اثرت افكاره بشكل خاص في ماكس نوردو ـ المساعد الايمن لهيرتزل الذي وصف لامبروسو بقوله : « انه اضخم ظاهرة عقلية في هذا القرن » . وحاول نوردو في كتاب « الانحلال » ان يثبت ان الانحلال « ليس الا انحرافا مرضيا عن النموذج الاصلي ». وفي هجوم عنيف له ضد الفن المعاصر في ذلك الوقت ، وبالاحرى ضد الواقعية على وجه التحديد ، قارن الفنانين المعاصرين بمجرمي لامبروسو ولصوصه وقتلته . وقال : « ان التطور الذهني للمنحرفين يشتمل على نفس التشويهات التي تبدو في نموهم الجسدي . فعدم التناسق في الوجه والجمجمة له ما يقابله في مستوى الطاقات الذهنية . ففي حين ان بعض هذه الطاقات تتوقف تماما عن النمو يجد ان بعضها يشكو من افراط شديد في النمو» (٨). وهو يتحدث هنا عن تولستوي واميل زولا وابسن وبلزاك وهويتمان ومونيه ومانيه ودوميه ، الذين وصفهم بنعوت مثل : مهزوزون ، مرتجفون ، مهووسون ، فوضويون مثيرون للاشمئزاز ، بذيئون ، مهرجون .. الخ . وقد لفت الانظار الى التشويه اللاحق بشبكات ومقل عيون هؤلاء الفنانين بسبب اصابتهم بالاختلال والهيستيريا . وهذا نموذج على بطلان الادعاءات العلمية للفكر العنصري .

ويقول ايضا : « ان الواقعية كلمة فارغة تنبع من نظريات جمالية غامضة تتميز بالتشاؤم والميل الذي لا يقاوم للافكار الفاسقة ولاساليب التعبير الاكثر سوقية وقذارة »(٩) .

وفي مقطع آخر تنبأ فيه بالتعاليم النازية بشأن اخطار الفن المعاصر وبشأن الحاجة الى جعل المجانين والمرضى عاقرين ، هاجم نوردو الواقعيين والانطباعيين وقال : « يجب على المنحطين ان يسقطوا، فهم لا يتمكنون من تكييف انفسهم مع شروط الطبيعة والحضارة ،ولا يتمكنون من الحفاظ على انفسهم في الكفاح من اجل البقاء ضد الاصحاء . انهم يصبحون منهكي الاعصاب ، هستيريين ، يتسببون في ولادة المنحطين وبهذه الطريقة يقضون على جنسهم » (١٠) . لقد كانت تلك كلمات مخيفة اتخذها النازيون اساسا لسياستهم الوحشية في المجالات المشار اليها . ومهما يكن من امر، فقد كانت تلك الكلمات مجهولة تماما في اسرائيل . ففي الوقت الذي قامت فيه الدولة اليهودية كان انتصار الفن المعاصر قد اصبح حقيقة لا مراء فيها . فمعظم الفنانين واساتذة الفن الذين هاجروا الى فلسطين كانوا ملتزمين بالاساليب الحديثة . ان تحريم الفن لا يكون الا في نظام كلي قائم على الغاء الفردية ، وهذا وضع لاينطبق على اسرائيل الان .

لقد كان الصهاينة يميلون دائما الى بريطانيا والولايات المتحدة، وقد عبر ماكس نوردو عن هذه الميول المماثلة بمقابلة مواطني هذين البلدين بمواطني بلدان القارة الاوروبية المنحطين ، وقال ان «العرق» « الانكلوسكسوني » هو بطبيعته موفور الصحة وسليم الفكر ». والواقع انه ليس هناك شيء اسمه « العرق » الانكلوسكسوني ،ولم يشرح لنا نوردو من اين انحدر تشارلز ديكنز ولماذا وجدت الواقعية الهستيرية مكانا دائما لها في انكلترا . وهذا بالضبط مجرد تناقض آخر في التفكير العنصري .

ان « ف . جابونسكي » ، احد زعماء التحريفيين الفاشيين، قد اخذ وحيه الثقافي من المدرسة العنصرية الفرنسية ، ودرس رينان بشكل خاص .

اما اسلوبه السياسي فقد استعاره كاملا من النازيين . وليس من الضروري ان نتوقف طويلا عند تنديد كبار الصهاينة انفسهم بعنصريته . ولكن يكفينا ان نشير هنا الى ان حزبه قد حصل على ثلث اصوات الناخبين الصهاينة . كما رشح هو نفسه في احدى المرات لرئاسة المنظمة اليهودية .

التيار العنصري :

حتى ندرك تمام الادراك حدود التقارب بين الايديولوجية الصهيونية وتعاليم العنصريين يجب ان نعود الى الفكرة الرئيسية في كلتا الحركتين .

ان الفكرة الجوهرية التي بدونها لا يكون ثمة هدف من وراء الحركة الصهيونية واسرائيل هي : ان العالم يشتمل على امم مختلفة في نزاع دائم ، وقد بلغ هذا الصراع مستويات لا تطاق حين وصل الى اليهود الذين اصبحوا عناصر غير مرغوب فيها واهدافا سهلة ، بسبب عدم وجود وطن لهم . ان اضطهاد اليهود لا نهاية له ، والخلاص الوحيد منه يكمن في ايجاد وطن لهم . وغني عن القول ان هذا هو بالضبط ما كان يشير به العنصريون الاوروبيون.

ان رفض انتظام الدولي والاخوة الانسانيه ، والحكومه العالميه . والانصهار التدريجي للقوميات والمناطق ، كل هذه افكار مشتركة في كلتا الحركتين ، وهي توضح الموقف الساحر الذي تقفه اسرائيل من الامم المتحدة ، كما توضح موقف دول المحور حيال جامعه الامم .

ان تطابق الاراء بين الصهيونية والعنصرية قد وصل الى اقصى مداه في الموضوع المتعلق باليهود ، وبالمسأله اليهوديه . فالعنصريون هم الذين قالوا بان العنصر اليهودي عنصر متميز غريب عن اوروبا بسبب أصله السامي . ان افكارا مثل فكرة نقاء الدم ، وخلود اليهود ، و « الخصوصية » اليهودية قد شبع بها الادب العنصري . وينطبق الامر نفسه كذلك على فكرة حتمية اضطهاد اليهود وقد صاغتها الموسوعه الثقافيه على النحو التالي : ان التحامل ضد اليهود هو نوع من المشاعر الفيزيقية والطبيعية ، التي تظهر في اي وقت يحتك فيه رجال من سلالات مختلفة بعضهم بالبعض الاخر (١١) . ومثل هذه الفكرة تجد ما يماثلها في كتابات بنسكر وموسس هيس ، وعمليا في كتابات المفكرين الصهاينة كافة .

ان للعنصريين وجهه نظر مزدوجه فيما يختص بنقاء السلالة. ان نيتشه مثلا جعلها في المرتبه الاولى على صعيد التطور ، واعتبر ان وجودها قد يساعد على تحسين العنصر الالماني ، في حين ان ترتشكه هو صاحب التعبير الشهير « ان اليهود هم سوء طالعنا » الذي اصبح شعار النازيين ، وحدث ان بعض العنصريين المنطقيين مع انفسهم جعلوا من الذكاء اليهودي والابداع والقدرة على البقاء ، ظواهر تابعة من نقاء الدم اليهودي ، في حين نظر آخرون كهتلر الى اليهود وكأنهم طفيليات ، غير قادرة على انتاج اي شيء خاص بها .

ويمكن استبيان ازدواجية اخرى في الادب الصهيوني . فقد راى موسس هيس الجمال الكامل في الوجوه اليهوديه ، وكان نوايزمان ملء الثقة بالذكاء والابتكار اليهوديين ، على عكس ذلك فقد شعر هيرتزل بالاشمئزاز من بشاعة القسمات اليهودية وعبر عن شكوكه بشأن قابلية اليهود واستحقاقهم للعيش في ظل حكم ديمقراطي وجمهوري . فهم ابعد ما يكونون عن الخلق والابتكار ، ولم ير هيرتزل انهم قادرون على تطوير اي شيء خاص بهم . وهذه النقطة الاخيرة هاجمها بشراسة « احاد حاعام » في تقييمه لمؤسس الصهيونية السياسية . (١٢)

ان التشابه بين الصهيونية واعداء السامية من حيث الاراء والاهداف هو موضوع تطرق اليه كثيرون في تعليقات عديدة . والصهاينة انفسهم يقرون بذلك عندما لا ينساقون وراء الاسلوب الدعائي . ان موضوع الخلاف الوحيد بينهم وبين هتلر قد أثاره هذا الاخير في كتابه « كفاحي » ، معتبرا انهم اناس غير شرفاء، ينادون بالذهاب الى فلسطين ولا يقومون بذلك فعلا . ومن النقد الخطير الذي وجه الى هيرتزل كونه شديد الحرص على كسب رضا المعادين للسامية ، ومستفيدا من دعمهم.

وتصادف هذه الازدواجية نفسها في كتاب لامبروسو « الرجل المجرم » ، فاليهودي في هذا الكتاب هو عموما افضل من البقية، وهو اقل ميلا الى الجريمة ، ولكنه اكثر انتهاكا لبعض قواعد الشرف ، فهو مثلا يميل للخداع والتزوير والفجور . وهذا ما يعتبره المؤلف متوارثا لدى اليهود (١٣) .

النقاء وتفوق النقاء :

ان اضعف نقطة في النظرية العنصرية تكمن في الدعوى القائلة بان اليهود هم انقى سلالة. ان ملاحظة بسيطة بالعين المجرده ، كافية لابطال هذا الاعتقاد ، ولكن هذا الوهم ما زال قائما ومستمرا .

لقد قال الزعيم الصهيوني الامريكي لويس براندي : « ان الزواج المختلط كان محدودا جدا . لذلك فان نسبه الدم الاجنبي لدى اليهود اليوم منخفضة جدا »(١٤) . وكان هتلر قد اورد كلاما مشابها لذلك حين قال : « اين نعثر على شعب كالشعب اليهودي لم تطرأ عليه الا تغيرات قليلة جدا في الذهنيه والشخصية على مدى الفي سنة . » (١٥)

وقد حافظ اليهود من بنسكر الى بن غوريون على مفهوم النقاء العنصري . وكرروا الاشارات المتعلقة بمعاداة السامية للانف اليهودي والشعر اليهودي .. الخ . والفرق الوحيد هو ان المعادين للسامية ، وكذلك هيرتزل نسبوا الى الجسم اليهودي ملاحظات استهجانية في حين عبر عنه الصهاينه بمصطلحات جمالية . فقد زعم هيس في كتابه « روما والقدس » ان العنصر اليهودي بقي غير مشوش، فالانوف اليهودية لا يمكن ان يطرأ عليها اي تغيير ، كما ان الشعر اليهودي الاسود المموج لا يمكن ان يتغير بمجرد التزاوج في ذلك . واضاف قوله : ان تلك الملامح اليهودية تنم عن تعابير « روحيه جميلة » .

قد لا يكون الصهاينة واثقين تمام الثقة من قصة النقاء، ولكنهم مضطرون للقبول بها لاسباب سياسية . فبدون صحة الانحدار المباشر من الاسرائيليين القدامى تتقوض دعاواهم في فلسطين . وهذا بعد كل شيء ، ما اشار اليه هرتزل في كتابه « الدولة اليهودية »: ان اليهود بقوا شعبا واحدا وعرقا متميزا .. ان قوميتهم المتميزة لا يمكن ، ولن ، ويجب ان لا تتقوض . لذلك ، لا يوجد غير حل واحد فقط للمسألة اليهودية هو « الدولة اليهودية ».

ان موضوع النقاء العرقي ، والاصل المختلط ، اصبح مشكلة محرجة بالنسبة لاسرائيل ، كما كان الامر بالنسبة للرايخ الثالث في المانيا ، وكما هو الامر حاليا بالنسبة لجنوب افريقيا . ان سؤال « من هو اليهودي » ؟ حيوي جدا لحل مشاكل مختلفة تتراوح بين استيطان اليهود في اسرائيل ..وبين التعيينات الخاصة بفريق « ماكابي » لكرة السلة . مما ينتج عنه تمثيليات هزلية حقيقية .

ليس هناك سوء كبير في الاعتقاد بالنقاء العنصري ، ولكن المسالة تتخذ ابعادا خطرة عندما يتحول النقاء الى علامه تفوق كما كان الامر بالنسبة لعنصرية القرن التاسع عشر . وقد عبر ن . سوكولو رئيس المنظمة الصهيونية عن وجهة النظر العنصرية بقوله : « تشتمل الطبيعة على أجناس مختلفة ، فالصقر لا يجهد نفسه من أجل السمك ، ولا الاسد من اجل القطة . انظروا الى الاشجار ، والى سنابل القمح المنتصبة،هل كانت تنمو بهذا الشكل الرائع ، وهل كانت لتكبر بمثل هذا الغنى وهذه النضارة ، لو تم خلطها بالقوة ، وامتصت الواحدة منها رحيق الاخرى » (١٦) .

وقد صاغ تريتشكه نفس هذه الافكار بكلمات مختلفة « ان الطبيعة تثار لنفسها من اي اختلاط في الانواع وذلك بجعل الانواع العالية تستسلم للانواع المتدنية . وحتى تزاوج الحصان والحمار ينتج عنه مخلوق يمتلك صفات الحيوان الاقل شانا ، وكذلك الامر بالنسبة الى البشر » (١٧). اما بالنسبة الى موسس هيس الانثروبولوجي، فان النوع اليهودي ليس فقط موهوبا بذكاء وثقافة مسيطرين ، ولكنه ايضا متفوق في الزواج : « اليهود وحدهم لديهم الشعور الحقيقي بتغليب الحب الأمومي على الحب الجنسي » « ان القلب اليهودي وحده ، يستطيع ان يفسح مجالا للحب الحميم تجاه العائلة » « اليهود

وحدهم قادرون على الارتقاء روحيا (١٨) » . ان مثل هذه الادعاءات الشوفينية المتطرفة تأخذ حجم ظاهرة طاغية في الادب الصهيوني. ان كل شيء في اعتقادهم من عمل اليهود منذ اكتشاف الكتابة حتى رحلات الفضاء .

والتأكيد على الذكاء اليهودي وعلى الاوصاف الموروثة ، انما يخدم غرضا سياسيا لانه بفضل تلك القابليات الخارقة قد تبعث فلسطين .

ان الخطوة التالية في الانتقال نحو التمييز العنصري ، تتمثل في الايمان بالتفوق القومي ، مما يستتبع الاعتقاد بدونية الاخرين، وبصورة خاصة العرب من وجهة النظر الصهيونية . والتهمة الرئيسية الموجهة ضد العرب هي انهم شعب رجعي مسؤول عن انحطاط فلسطين والشرق الاوسط برمته . والكتابات الاكثر معاداة للعرب تنفي عنهم كل اسهاماتهم في الحضارة . فمجد الاندلس الرائع لم يكن من عمل العرب بل من عمل اليهود. واسبانيا نفسها لم يفتحها العرب وانما افتتحها البربر الذين هم من اصل يهودي (١٩) .

ويحلل و.ب. زف : الشخصية العربية بمصطلحات عنصرية نموذجية . « في الواقع ليس هناك عرب في اي مكان . وليس هناك حتى سلالة مختلطة متجانسة الى حد ما . ففي الجزيرة العربية انقطع العربي عن الوجود ، والذين اخذوا مكانه هم شعب خليط متنافر من مستوى متدن في ميزان التطور الانساني ، يتكلم اللسان العربي » وفي مكان اخر يضيف : « بما ان نقاء الدم في امة « محمد هو شرط نقاء النسل ، فاين هم احفاد قريش الان ؟ وحتى في قلب الصحراء العربية فان السلالة قد تدنست دنسا كبيرا خلال القرون الماضية بفعل تدفق الجواري القادمات من السودان، ومن بعض الاماكن الاخرى من افريقيا » . وعلى هذا فان الدم الافريقي مسؤول عن تردي السلالة العربية في ميزان التطور الانساني . وسوريا نموذج على ذلك حيث ان الشعب فيها اخلاط من حيث الدم والعقليات . ويمضي « زف » فيمتحن العيون وشكل الوجه.. الخ ليدلل على أن العرب الحاليين ليسوا عربا على الاطلاق »(٢٠) .

وقد عالج سوكولو ايضا في كتابه « تاريخ الصهيونية » مسألة التخلف الموروث لدى العرب ، والشرقيين بصورة عامة ، بينما تكهن بن غوريون بان العرب لن يتخلصوا ابدا من الاقطاع ومن التخلف . وهناك عدة وجهات نظر مختلفة تجاه العرب ، ولكن معظم الصهاينة يتفقون على أن الطريقة الوحيدة للتعامل مع العرب هي القوة ، وان العرب لا يستطيعون الانتقال الى القرن العشرين بمفردهم .

ان الاستشهادات السابقة قد تكون مختارة بشكل انتقائي، ويستطيع اساطين الصهيونية دحضها باستشهادات مختلفة .وبالفعل فان الادب الصهيوني يتضمن بعض الثناء على انجازات العرب التاريخية ، وقد يتفننون في مناسبات مختلفة بحب العرب في اطار عنصري . فان العرب واليهود ابناء عمومة . بيد ان الموقف الحقيقي تجاه العرب يمكن التوصل اليه في التحليل الاخير من خلال الاراء السائدة في المجتمع الاسرائيلي . فقد اظهرت الاستفتاءات التي اجريت في اسرائيل بان الاكثرية الساحقة تؤمن بدونية العرب ، وهذا الاعتقاد ينعكس في كثير من الاقاويل الشعبية . فمن الشتائم الشائعة قولهم « عربي قذر » .كما ان الزواج من عربي لم يسمع به قط في اسرائيل ، لذلك يمكننا ان نستنتج بسهولة ، ان المديح الطنان الموجه للعرب في بعض المناسبات ، يعود الى اعتبارات دعائية ليس الا .

ان الخطوة التالية ، الخطوة الاخيرة ، هي خطوة قاسية ناجمة عن الاعتقاد بدونية الاخرين ، وبالتالي الموافقة على اتخاذ الحق او حتى الواجب للتقرير مكانهم ، والسيطرة عليهم ، وفي النهاية، ان اقتضت الضرورة ، مسحهم من الوجود .

ان دستور هتلر الجديد ، قد بنى ايديولوجية على اساس نظرية ترتيشكه التي تعتقد بان الالمان ، لكونهم عرقا متفوقا ، يحملون رسالة توجيه الناس الاخرين والسيطرة على مصائرهم . وقد اضاف في تعليق له في مسألة الالزاس :« نحن الالمان الذين نعرف كلا من المانيا وفرنسا نعرف ما هو الافضل لهم احسن منهم » (٢١) . وهذا الزعم نفسه قالته المانيا بعد ذلك بصدد بولندا . وهذا هو شعار العنصريين في كل مكان وفي كل زمان ، كلما اقدموا على اضطهاد شعوب اخرى سواء كانت في جنوب افريقيا او في روديسيا او في الامبراطورية الاستعمارية السابقة .

وهذه كانت ايضا طريقة معالجة الصهيونية لمشكلة فلسطين . فقد اعترضوا ــ طيلة الانتداب البريطاني ــ على كل المحاولات المبذولة لاعطاء فلسطين شكلا من اشكال السلطة المنتخبة . وعلى الرغم من ذلك ، فان سبب اعتراضهم الرئيسي كان بسبب تخوفهم من انتخاب اكثرية عربية ، غير انهم لجأوا الى حجة ان العرب غير قادرين على تسيير امورهم ، ليس في فلسطين وحدها ، ولكن ايضا في الشرق الاوسط برمته .

وظل الادعاء القائل بان العرب لا يعرفون ما هو اصلح لهم جزءا من الدعاية الاسرائيلية . وقد استخلص كثير من المسؤولين الاسرائيليين المعروفين بصراحتهم النتائج الخطيرة والمأساوية المترتبة على هذه النظرية . فقالوا ان العرب ليسوا في حقيقة الامر سوى قدامى الكنعانيين الذين استبقاهم الاسرائيليون في غفلة من الزمن. ويرى الحاخام العسكري ان ما كان ينطبق على هؤلاء في السابق يجب ان يطبق في وقتنا الراهن . ان العيش المشترك مع العرب غير ممكن على مدى طويل فيجب اما طردهم واما ان يكفوا عن التوجه بعبادتهم نحو مكة .

وادعى الحاخام الاسرائيلي « شاوول » وهو بصدد الدفاع عن الجنود الذين قاموا بمذبحة قبية ، ان الجنود انما كانوا يقتلون اطفالا وثنيين فقط ، دعا الى موتهم النبي موسى نفسه حينما امر بقتل الاطفال المدينيين بحد السيف .

وعلى هذا فالمذبحة الاسرائيلية ليست اكثر من انتهاك ضئيل . ومن جهة اخرى فقد وصف الحاخام عبيدة هداما غزو اسرائيل للاراضي العربية عام ١٩٦٧ على انه تحرير للارض المقدسة من سطوة الشيطان (٢٢) .

نظرة الى الوراء :

ان الايمان بنقاء السلالة يقود الى الايمان بالنموذج الاصلي على اعتبار انه بالتأكيد انقى النماذج . ويؤدي هذا الى نوع من الحنين الى ذلك اليوم الذي ولدت فيه الامة لاول مرة والى الايام الاولى لنشوئها . ان اهتمام الموسيقار الالماني فاغنر بالاساطير الالمانية « مثال شديد الدلالة بهذا الصدد » . وكذلك الاهتمام النازي الشامل ببعث الثقافة ، والتقاليد ، والفولكلور ، والفنون والاعمال اليدوية القديمة . ان العنصريين يكرهون هجوم الصناعة المعاصر وظهور الطبقة العاملة . ولم يستطع نيتشه رغم تطلعه الى المستقبل والى انسانه المتفوق ، الا ان يعبر في كتابه « هكذا تكلم زرادشت» عن كرهه للصناعة ورغبته في الهروب منها .

ان التطلع الى النقاء ادى ايضا الى تمجيد الطبيعة ، التي وصفها بكنر « بالارستقراطية » . ومن التقاليد العنصرية الاخرى الاشمئزاز من الماكياج ومساحيق التجميل ، وحب القيم الريفية والفروسية ، والاهتمام بكل ما هو قديم .

وكتب ترتيشكه « ان كرامة الدولة تكمن في تواصل الامة بفضل الاجيال المتعاقبة » واضاف قوله « ان الوطنية الحقة مبنية على

اساس الوعي .. بجذور متاصلة في عملية وراثية »(٢٣) .

ومن هنا نجم الاهتمام البالغ بالزراعة وحب الغابات . فالعنصرية قسمت البشر الى فئتين : سكان الغابات الذين يبنون الحضارات ، وسكان الصحاري الذين يودون بتلك الحضارات . وهكذا نشأ الاتهام المعادي للسامية الذي يعتبر ان اليهود ينتمون للفئة الثانية ، على اعتبار انهم دون الامم الزراعية الاخرى ، لا يمتلكون آلهة انثوية او آلهة ـ ام » ، رمزا للخصب والتواصل. وقد عكست الصهيونية ذلك التقليد بكل مظاهره . فقد نادى بينسكر وبيبر ، وسوكولو ، « بالعودة الى الطبيعة »، واصبحت العودة الى الارض « شعارا اساسيا من شعارات الحركة الصهيونية .

لقد كانت الزراعة هي الفرع الاساسي من فروع العمل التي توجه اليها اليهود قبل اي شيء آخر . ذلك ان زراعة الارض كان ينظر اليها منذ البداية على اساس انها قاعدة اساسية من « قواعد الوطن القومي » (٢٤) .

طبعا يمكن القول ان هذا لا علاقة له بالعنصرية ، بل انه واقعة من وقائع الحياة في بلد كفلسطين . ولكن فلسطين لم تكن في الحقيقة مركزاً زراعيا معتبرا .

فالحماس تجاه الزراعة والغابات كان غير طبيعي حقا ويكتسب ابعادا شعرية ، كما كان الحال مع مارتن بيبر الذي اكد ان العالم لا يمكن ان يصلح الا باسرائيل ، وان لا يمكن ان تصلح الا بعودتها الى الارض (٢٥) .

وكما اشرنا الى ذلك آنفا ، فقد كانت العنصرية تعتبر الهجرة الى مستوطنات زراعية كحل للبطالة ،حيث ان المهاجرين ياخذون اماكن « السلالات الدنيا » التي لم تعد قادرة على الاستمرار في الصراع من اجل التطور ، كما اوضح ذلك نوردو . ومن الامور الفريدة في نوعها ان الوكالة اليهودية والحكومة الاسرائيلية كانتا على الدوام بين ايدي فئة من السياسيين ـ المزارعين .

وحتى يومنا هذا ، فان الحياة في المستوطنات الزراعية تعتبر الحياة المثالية بالنسبة للصهيوني الحقيقي . ولا احد يجرؤ ان يتساءل عن سبب تبديد الاموال في الكيبوتزات غير الاقتصادية . ان عودة بن غوريون بعد تقاعده الى صحراء النقب الجرداء ،ليرعى الماعز ، ويزرع الخضار ، ويتأمل في التوراة هو نموذج لكل ما هو تقليدي وبدائي وقومي وزراعي في المدرسة العنصرية .

وقد ادعى « أحاد حاعام » الماخوذ بفكرة القوة المعنوية لليهود ، ان هذه القوة موجودة في أصولهم حتى قبل التوراة بزمان بعيد . ولقد كانت جزءا من قوتهم « الفطرية » . وقد افرد وايزمان مكانا فسيحا في مذكراته الضبابية ليروي كيف انه اهتز لمنظر الحياة الطبيعية للحيوانات في افريقيا وهي تعيش حتى بدون القلق من مشكلة العرب. واضاف قوله : « كم هو امر رائع حقا ، ان تكون حيوانا في ملاعب جنوب افريقيا » (٢٦).

ان نظرية تريتشكه المتعلقة بجذور العملية الوراثية قد جعلت من علم الآثار تمضية للوقت وهواية لمعظم الاسرائيليين وعلى راسهم « موشي ديان » فكل واحد هناك ينقب من اجل العثور على بعض العظام او الاواني المكسورة . كما ان احياء اللغة العبرية والاسماء القديمة للناس والاماكن يبقى ضمن اطار هذه الدائرة . ان هذه الصورة تفسر التعايش العجيب بين الطقوس القديمة ، والممارسات الدينية ، والسلطة المطلقة لرجال الدين جنبا الى جنب مع التنظيم والتقنية الاكثر حداثة وعصرية .

اللاعقلانية :

ان التقليدية وسط هذا العصر العلمي لا يمكن الا ان تقود الى الرومانتيكية والمثالية واللاعقلانية . فالعنصرية مشحونة بالتناقضات والطريقة الوحيدة لتجاوزها تكمن في اغراقها بالبلاغة الادبية. والشعار الصهيوني القائل : « الشعب الذي بدون وطن الى الوطن الذي بدون شعب » ، خير مثال على ذلك . ان رفض المواجهة الواقعية لحقيقة المستقبل مع العرب هو دليل آخر وان الطريقة التي تعالج بها الصهيونية مثل هذه الحقائق المرة تؤدي حتما الى اتهامها بالازدواجية والاحتيال والتهرب . وفي الواقع فان الهوس بفلسطين لدى الصهاينة لا يمكن تفسيره على اساس منطقي كما اشار الى ذلك « ارثر كسلر » . ان اللاعقلانية من مظاهر العنصرية . فالعالم والمعرفة والعقل كلها امور نسبية ،فهي مرتبطة بعرقك وتتوقف عند حدودك القومية .

اما القوانين الاخلاقية فما هي الا مخترعات استنبطتها جماعة لمصلحتها اثناء نضالها من اجل السلطة .

يقول نيتشه « ان هناك مستويين للاخلاق : مستوى للجماهير مبني على اساس الاوهام والدين ، والمستوى الاخر للزعماء ،وهو مبني على اساس الوعي والقوة . ان العوامل الاقتصادية لا اثر لها على الناس الذين تحركهم العواطف والمثاليات والميول والشعارات والدعايات.والى ذلك يجب ان نضيف التشاؤم والمساواة والديمقراطية والاخوة الانسانية فما هي الا مجرد اوهام والقانون الدولي هراء ، لانه « يتعارض مع طبيعة الدولة » . لقد عقدت المعاهدات للتحايل على الظروف فقط . « فالدولة لا يمكنها ان تخضع مشيئتها فيما يخص المستقبل لمشيئة دولة اخرى » (٢٧) . وبالفعل فان القانون الدولي لا يعطي افضل ما عنده الا عندما يتعلق الامر بالحرب « وبدون حرب لن تكون هناك دولة على الاطلاق » . انها المهمة الرئيسية الثانية للدولة (٢٨) . ان واجب الدولة الصغيرة هو ان تتوسع وتصبح اكبر . « فاذا لم تستطع الدولة ان تكوّن جسما صلبا ومتجانسا ، فمن واجبها على الاقل ان تعدّل حدودها بشكل مناسب (٢٩) » .

هيرتزل واللاعقلانية :

هنالك دلائل كثيرة تؤكد وجود شذوذ عقلي لدى هيرتزل ، وهو ملمح نجده لدى الزعماء العنصريين . على اية حال فان يومياته تبين التأثير الهائل الذي تركته عليه العنصرية الالمانية . لقد تصور الدولة اليهودية على شكل ملكية يحكمها دكتاتور مستنير ، يعين نصف النواب . اما الشغب السياسي فيعاقب عليه بالموت لان الديمقراطية السياسية هراء . وتلك نماذج من بعض آرائه التي اوردها في الدولة اليهودية .« ان الاخوة الانسانية لا تمثل حتى حلما جميلا » .

« فالتناقض ضروري لبلورة اقصى ما لدى الانسان من طاقات »
« كل ما هو عاجز عن البقاء يمكن ان يدمر ، وسوف يدمر ، ويجب أن يدمر ».
« القوة تتقدم على الحق »
« كل ما يخص العلاقات بين الامم هو مسالة قوة » .

« انني مؤيد شديد للمؤسسات الملكية لانها تسمح بانتهاج سياسة متماسكة وتمثل مصالح عائلة تاريخية شهيرة ولدت وتعلمت لتحكم » .
« انني ارى انه من الجنون حل المشاكل بواسطة الاستفتاء الجماهيري » .

وهذا كله يظهر الاثر الخاص الذي تركته عليه تعاليم نيتشه.

وقد استعار من عبادة نيتشه للارادة ، شعاره القائل :« اذا اردته فليس ذلك باسطورة » .

وقد عاش هيرتزل منذ مطلع شبابه حياة طالب الماني عنصري . فقد انضم الى جمعية « البيا » المغرقة في رجعيتها وحمل شعاراتها واعجب بميولها العسكرية واشترك في مبارزاتها :« ان هذه مبارزات ستكون ذات شأن كبير في تحسين اوضاع اليهود ». انه من الضروري ان تتمتع الدولة اليهودية بقوة عسكرية كبيرة ،وان تحقق انتصارات عسكرية . وفي احد احلامه العجيبة تصور نفسه محاطا بالبنادق والجنود الذين وصف بزاتهم بدقة (٣٠) .

وقد نصح في مجال آخر الدولة اليهودية برشوة جيرانها بالاعانات ، الى ان يحين الوقت الذي يرى فيه القائد العسكري ان « بامكان القوة اليهودية ان تقف ندا في وجه هذه الجمهوريات مجتمعة » .

وفي كتابه عن سيرة حياة هيرتزل ، لفت ديزموند ستيوارت الانظار الى تكرار استشهاد هيرتزل بالعنصر واشار الى ان استعماله المصطلحات العنصرية لم يكن مدهشا بالنسبة لشخص عاش زمانه وتشرب ثقافته . ولكن بعد ذلك ، حينما التقى بيهودي غير وسيم، تغلب عليه الملامح الافريقية ، استبدل العنصر بالقومية (٣١) .

سلطة الدولة :

ان فيلسوف الفاشية جانتايل كان يستعمل تعبيرا آخر للتدليل على سلطة الدولة . فالتعاونية بالنسبة اليه تعني « ان الانسان ليس فردا منفصلا ولكنه حيوان تواق لتشكيل جماعة وكل هذه الجماعات يجب ان تكون خاضعة للمجموعة الاعلى . الا وهي الدولة » . وهذا هو ملمح آخر ، لا مهرب منه ، من ملامح العنصرية، ولكن نسبته الى اسرائيل لا تبدو امرأ سهلا من النظرة الاولى على الاقل . ان معظم الدول العنصرية كانت دكتاتورية ولكن لا يمكن اعتبار اسرائيل واحدة من تلك الدول ، بقدر ما يتعلق الامر بالمواطنين اليهود . وهذا هو سلاح الصهيونية ضد تهمة العنصرية. ان مطامح هيرتزل الاوتوقراطية قد نحيت جانبا . ان الديمقراطية الاسرائيلية على الطريقة الغربية هي العنصر الوحيد الشاذ في بنية عنصرية متكاملة . ولكن هذا العنصر من الممكن ايجاد تفسير له.

فقد اسست اسرائيل على صورة الحركة الصهيونية التي تمتد في اربعة انحاء العالم وتضم اناسا من اجناس ولغات مختلفة . فالحركة كانت تحتاج الى المال من اليهود الامريكان ، والى المهاجرين من روسيا ، والى الحماية الاستعمارية من اوربا والى التعاون من جانب اليهود العثمانيين .

وعلى الرغم من الهالة التي كانت تحيط به ، فقد انحدر هيرتزل من بيئة يهودية مندمجة في مجتمعها ، وكان يعتبر دخيلا تحوم الشكوك حول اصله . لذلك كان من الضروري منذ البداية ايجاد قيادة جماعية وهيئة تمثيلية . ومنذ عام ١٨٩٧ تحول المؤتمر الصهيوني الى برلمان صهيوني . وتحت الانتداب البريطاني ، اصبح وجود الوكالة اليهودية شرطا لا بد منه لخلق الوطن القومي . وبعد عام ١٩٤٨ احتاجت اسرائيل الى مهاجرين من الغرب ، وبدا انه من غير السهل اقناع هؤلاء بالهجرة حتى مع وجود حكم ديمقراطي في تل ابيب. وقد يقبل الناس بالدكتاتورية ،حتى انهم قد يدعمونها اذا كانوا يعيشون في ظلها ، ولكن لا احد يرغب في الذهاب ووضع نفسه في قبضتها . فعمر اسرائيل اليوم اقل من ثلاثين سنة ، وهو عمر لا معنى له اذا اخذنا بعين الاعتبار طول عمر الدول . فماذا سيجلب المستقبل لمؤسساتها ؟ وكيف ستستمر في العيش اذا ما تغيرت الظروف ؟

وعلى الرغم من الحياة الحرة التي يحياها الاسرائيليون ، فان بذور الديكتاتورية بادية بشكل واضح في تسلط الدولة . فمنذ البداية كانت المهمات الصعبة للحركة الصهيونية تقتضي باخضاع الفرد للقضية المشتركة فمدرسة « الصهيونية القاسية » نادت حتى باضطهاد اليهود لدفعهم للهجرة الى اسرائيل .وقد تعرض يهود العراق الى هذا الاسلوب في عام ١٩٥١ ، حين تم القاء القبض على عملاء صهاينة بجريمة القاء القنابل على يهود بغداد لتحريضهم على الهجرة (٣٢) . اما اتهامات اليهود المعادين للصهيونية ، القائلة بمسؤولية الصهيونية عن التضحية بحياة عدد كبير من اليهود في اوروبا النازية ، وفي اماكن اخرى لمصلحة الوطن القومي اليهودي ، فانها تثير سخط الاسرائيليين .

ولقد اصبحت التضحية اعظم الفضائل ، وبين الحين والاخر تقدم لنا الحكومة الاسرائيلية دلائل على سياسة حافة الهاوية التي تتبعها ، وعلى المخاطر والتضحيات التي تطلبها في خدمة تكتيكات واستراتيجية الدولة . وما حادثتا ميونيخ ومطار عينتيبة الا مثالان حديثان على ذلك .

وقد قدمت لنا اسرائيل مثالا من نوع آخر في آذار من عام ١٩٧٦ . ففي ذلك التاريخ اعترض الحاخامون والجراحون على مطالب النساء بتسهيل الاجهاض ، واعتبروا ان هذه المطالب ستؤدي الى انتحار قومي لانها ستسبب انخفاض نسبة الولادات في اسرائيل . وكانت قد صدرت عن النازيين آراء مشابهة تتعلق بزيادة نسبة الولادات فيما يخص العرق الاري .

الجذور التاريخية :

ان اغلب الحركات القومية التي وقعت تحت تاثير العنصرية في القرن التاسع عشر لم تمارس سياسات تمييزية فعالة . وهي على كل حال لم تواظب في هذا الخط حتى ايامنا . ولكن الصهيونية ظلت حالة فريدة لاسباب تمتد الى ابعد من القرن التاسع عشر ، وتضرب جذورها عميقا في التاريخ اليهودي . وهذا ما كان يجول في خاطر « أحاد حاعام » حين قال ان اليهود لم يكونوا بحاجة الى نيتشه لان اليهودية تشتمل على النيتشوية وعلى تصورها للتفوق القومي .

ان هذا موضوع حساس وكثير من الناس يتحاشونه خشية ان يتهموا بالعداء للسامية . وهذا موضوع معرض ايضا لتشويش كبير. وبالفعل ، فاليهودية كالديانات الاخرى ، فيها مستويات واتجاهات متعددة . ومن البداية ظهر فيها اتجاهان : الاول عالمي ،والثاني قبلي . ومع الاسف ، فان الضغوط على اليهود قد ساعدت دائما على ترجيح كفة الاتجاه القبلي . ذلك ان سياسة « ارميا » الداعية الى الانصهار سرعان ما انهارت امام عنصرية « عزرا » الجامدة وهو قد يكون على الارجح اول عنصري حقيقي في التاريخ . فقد حرم الزواج من غير اليهود . اما الذين تزوجوا من غير اليهود فيجب عليهم ان طلقوا . ففير اليهود نجسون ، وقد فرض الطهور كدلالة على التمييز . فحتى على الصعيد التجاري ، يجب على اليهود ان يفضلوا التعامل مع اليهود وان يمارسوا التمييز تجاه الاغراب. فالاختلاط يولد انواعا ردئة ، ويجب عدم مزج الانواع المختلفة من الحبوب والماشية . كما يجب عدم خلط القطن بالصوف لان الانسجة تعالج كلها بنفس الطريقة دون الاخذ بعين الاعتبار نوعيتها .

وتحت الحكم العربي السمح في اسبانيا تبنى موسى بن ميمون قضية الاخوة الانسانية مرة اخرى . وقد نصح بن ميمون ، كما فعل « ارميا » من قبله ، اليهودي بان يكون احد ابناء البلد الذي يعيش

فيه . فليس هناك من اذى في العيش تحت سلطة حكام مسلمين او مسيحيين يعبدون نفس الآله الذي يعبده اليهود . « ان المؤمنين الى ابة امة انتموا لهم حصة في العالم الذي سيأتي ما داموا يعترفون بالله بقدر ما وهبهم . ولكن اليهود لم يقروا بذلك ، ونددوا بابن ميمون عند الحكام المسيحيين واتهموه بالهرطقة واحرقوا كتاباته . وعلى العكس من ذلك فقد قبل شعر جهودا هيلفي على انه يمثل الوجدان اليهودي الحقيقي . وقد استشهد الدعائيون الصهاينة بقصائده التي يحن فيها الى فلسطين مرات ومرات . وما يعنينا بشكل خاص هو كتابه « الخزارى » الذي اعتبره بعض المتحدثين بلسان اسرائيل كمصدر الميول العنصرية في الحركة الصهيونية . فالكتاب يتحدث عن اليهود « كصفوة » الجنس البشري وعن عرقهم كالعرق المختار بين الامم . فالافضلية معطاة لهم لا بسبب تقواهم او طاعتهم ولكن لاسباب فيزيولوجية وعلى اساس اختيار الهي :

« ان الرجل العاصي تنزل عليه النعمة الالهية اذا اختلط بامرأة طاهرة الدماء . فيستفيد ابناؤه وحفاده من نقاء نسبهم»(٣١).

فليس مدعاة للعجب ان تظهر السلطات الدينية في اسرائيل نفسها بمظهر العنصريين الاكثر تحجرا ، مما يسبب حرجا لرجال السياسة والصحافة . ولكن ما ان يتعلق الامر بالزواج المختلط ، وهو موضوع حساس يمكن على اساسه التمييز بين من هو انساني ومن هو عنصري ، حتى تتساوى مواقف الحاخامين بمواقف رجال السياسة الصهاينة . ومن المفيد ان نشير بهذا الصدد الى « احاد حاعام »: فرغم ميوله الروحانية اعتبر ان اخته قد ماتت في نظره ، لمجرد انها تزوجت من شخص غير يهودي .

الخلاصة :

ان من اخطار سوء الفهم ، الاعتقاد بان شعبا من الشعوب لمجرد انه كان ضحية من ضحايا عقيدة ما فانه يكتسب مناعة ازاء انتقالها اليه . فالعكس هو الصحيح ، ذلك ان الشعوب تلبس بزات فاتحيها ومعذبيها .

فمن السذاجة بمكان الاعتقاد انه بسبب ما فعله العداء للسامية باليهود ، فان الصهيونية ستكون محصنة ضد العنصرية . وقد لفت موريس ر . كوهين انظار اخوانه في الدين الى هذه النقطة منذ عام ١٩١٩ حين صرح :« ان هذا الميل المستمر لتأكيد الوعي والانتماء الى اجناس مميزة والذي نصاعد بسبب ما اصاب اليهود من اضطهاد منماظم في السنوات الاخيرة قد دفع اليهود المتحررين حديثا الى اعتناق الفلسفة العنصرية للتاريخ وهي فلسفة جد شعبية متمثلة في الجانب الالماني بكتاب « اسس القرن التاسع عشر» لتشامبرلين ، وفي الجانب الروسي باصحاب الميول السلافية كـ « كاتكوف » . والصهاينة يدينون اساسا بالايديولوجية العنصرية لدى هؤلاء المنظرين المعادين للسامية ، ولكنهم يخرجون باستنتاجات مختلفة فيصبح اليهودي ، لا الالماني ، هو العنصر النقي او المتفوق » (٣٤) .

وعلى كل حال فان للعنصرية الصهيونية جذورا اعمق بكثير مما للعداء الاوروبي للسامية ومجال تحركها اوسع بكثير ايضا بسبب برنامجها الاستعماري . فالسكان العرب يشكلون بالنسبة لها هدفا عنصريا ممتازا ، بسبب اختلاف لون بشرتهم ودينهم وثقافتهم ومعارضتهم العنيدة . ان كثيرا من الاجراءات والمواقف التمييزية التي اتخذتها الوكالة اليهودية والحكومة الاسرائيلية كانت تتجاوز حدود متطلبات الامن ، وحاجات وضرورات الظروف .

ان الحجم الذي اتخذته مثل هذه السياسة التمييزية ، لم يكن من السهل تصوره دون اساس ايديولوجي .

فمعاملة اسرائيل لغير اليهود وعزمها بشكل خاص على مقاومة كل انصهار لا يمكن ان يفهما بصورة كاملة الا بمفهوم عنصري مما يفسر بدوره عنف الاحتجاجات الصهيونية ضد اتهامها بالعنصرية .

الحواشي :

١ ــ بولياكوف ».« الاسطورية الآرية »،لندن ، ١٩٧١ ص٢٨١.
٢ ــ ذكرت في نفس المصدر السابق ص ٢٨٤ .
٣ ــ نيتشه ،ف. « ارادة القوة »،لندن،١٩٦٨ ، ص ٩٣ .
٤ ــ بولياكوف، ص ٣٠٠ .
٥ ــ بحث وارد في كتاب « اعادة النظر في الصهيونية » ، م. سلزر ، لندن ،١٩٧٠ .
٦ ــ بنتويش ،ن .« احاد حاعام وفلسفته » جبر . ١٩٢٩ ص ١١٣ .
٧ ــ يعتبر لامبروسو على سبيل المثال ان سبب كثرة الجرائم في كالابريا وصقلية وسردينيا يعود اساسا الى وجود « عناصر افريقية وشرقية » .
(لامبروسو ،س ،« المجرم » ، لندن ، ص ١٤٠ .
٨ ــ نوردو ، م « الانحلال » ، لندن ،١٨٩٦ ، ص ١٨ .
٩ ــ نفس المصدر السابق ، ص ٥٣٦ .
١٠ ــ نفس المصدر السابق ، ص ٥٤١ .
١١ ــ ذكرت عند « بولياكوف »،ص ٢٧٤ .
١٢ ــ باين ، آ. « تيودور هيرتزل »لندن ،١٩٥٦ ص ٤٠٦ .
١٣ ــ المجرم ، تلخيص جلامبروسو ، نيويورك ، ١٩١١ ص.١٤٠.
١٤ ــ خطاب القي في حزيران ١٩١٥ ،
« Brandeis on zionism »
واشنطن ١٩٤٢ .
١٥ ــ « كفاحي » جامس مواري ،لندن ١٩٣٩ ،ص ٢٥١ .
١٦ ــ سوكولو ،ن . «تاريخ الصهيونية » ،لندن ،المجلد الثاني ص ٦ .
١٧ ــ تريتشكه ،هـ « السياسة » ،لندن ١٩١٦ ، ص ٢٧٦ .
١٨ ــ « روما والقدس » .
١٩ ــ زيف ، و.ب. « اغتصاب فلسطين »،لندن ١٩٤٠ .
٢٠ ــ نفس المصدر السابق .
٢١ ــ ماك غفرن ، و.ب. « من لوثر الى هتلر ،١٩٤٦،ص٣٦٧.
٢٢ ــ « اسرائيل ، واساءة استخدام الدين اليهودي » بقلم ب. شافي ، ميد ايست انترناشيونال .
٢٣ ــ ماك غفرن .
٢٤ ــ كوهين ،ي . « الحركة الصهيونية »،لندن١٩٤٩،ص١٥٩.
٢٥ ــ بوبر ، م« اسرائيل وفلسطين »،لندن ،١٩٥٠ .
٢٦ ــ وايزمان ،س .« التجربة والخطأ » ،لندن ،١٩٥٠ ص.٤٣.
٢٧ ــ تريتشكه ، « السياسة » ص . ص ، ١ ١٦ . ٥
٢٨ ــ نفس المصدرالسابق، ص ،ص ١٢٤،٢١ .
٢٩ ــ تريتشكة ،ذكره ماك غفرن .
٣٠ ــ « اليوميات الكاملة »، ص ٤٠ .
٣١ ــ ستيوارت،(تيودورهيرتزل) لندن،١٩٧٤،ص.ص١٧٨،١٧٩.
٣٢ ــ موجز المحاضر ،فهمي آ ،« سموم الافعى » بغداد ١٩٥٢ .
٣٣ ــ كتاب« كزارى »اوكسفورد. MCMXLVTT ص.ص.٢٢ ،٢٤٧.
٣٤ ــ كوهين ، م.ر « الصهيونية ، القبلية او الليبرالية » ، فريج .ف. سميث ، « الصهيونية ، الحلم والواقع » ، لندن ، ١٩٧٤ ص ٥٠ .

اليزابيت ماتيو

الصهيونية والعنصرية
ملاحظات عن التطورات الجديدة

كانت الطريقة التي استقبل بها الغرب قرار الامم المتحدة بادانة الصهيونية كشكل للعنصرية والتمييز العنصري ـ وهو قرار لا يعدو ان يكون مجرد اثبات للواقع ـ شاهدا على الحصار الذي ما زال يحول بين الرأي العام في بلادنا واجراء تحليل صحيح لوضع لا يمس الهدوء والتطور في منطقة واحدة فحسب وانما يمس سلام العالم كلــه .

فلقد كان رد فعل معظم الناس في هذه المناسبة ـ وحتى بعض مؤيدي القضية العربية ـ يتسم بالانفعال .. وبدلا من ان يفكروا في الامر ، ويتاملوا ملف المسالة بامعان ، اكتفوا بابداء سخطهم متسائلين :« كيف يمكن لليهود ان يكونوا عنصريين وهم انفسهم من ضحايا العنصرية ؟» .

وتتيح لنا ردود الفعل السطحية هذه أن نقيس مدى نقص المعلومات لدى الغالبية العظمى ، ومدى تاثير ومهارة الدعاية الصهيونية التي تنشرها وسائل الاعلام على كل المستويات ، بل كذلك وجود نوع من المحظور (التابو) ما زال متشبثا بعقول مواطنينا ـ وبشكل اوسع عقول ابناء اوروبا الغربية والولايات المتحدة ـ يمنعهم من ان يدرسوا بموضوعية كل ما يمس الدولة اليهودية .

ان عددا كبيرا من المتحدثين قد قدموا ـ وسيقدمون ـ لهذه الندوة عناصر قيمة تسهم في الاجابة على الاسئلة المطروحة علينا جميعا ، وستتناول كلمتي اساسا بعض الوقائع التي يبدو انها قد ساعدت على تطور الرأي العام تطوراً مواتيا في الفترة الاخيرة ، في اتجاه تفهم افضل لطبيعة الصهيونية وما تمثله من اخطار .

وسأثير هذه الوقائع من زاويتنا نحن في فرنسا ، وبالعبارات التي ينبغي ان نستخدمها كي يفهمنا مواطنونا ، حتى نلقي الضوء على الواقع الذي يجمعنا اليوم في بغداد .

ولما كنت ـ في الوقت نفسه ـ عضوا مسئولا بجمعية التضامن الفرنسي العربي ـ التي تهتم بشكل خاص بالمشكلة الفلسطينية ـ وامينة اللجنة الفرنسية المناهضة للابارتهيد فقد استرعت اهتمامي منذ وقت طويل تلك الصلات المتعددة بين النظامين العنصريين في هاتين المستعمرتين الاستيطانيتين » اللتين غرست احداهما في جنوب افريقيا والاخرى في قلب الشرق الاوسط العربي . ومنذ صدور الكتيب الذي وضعته عن هذا الموضوع ظهرت كثير من العناصر الجديدة التي اضيفت الى ملف المسالة ، وتؤكد القضايا التي عرضها الكتاب ، وهي ان التطور المثير في التعاون ـ الاقتصادي والعسكري (الذي يشمل المجال النووي) والاستراتيجي ـ بين بريتوريا وتل ابيب يقوم ـ في هذه الحالة ـ على تقارب عميق على مستوى تاريخ النظامين وبنيتيهما ، وكذلك تقارب بين التناقضات والطرق المسدودة التي يواجهانها ، والوسائل التي يزمعان بها الخروج منها :زيادة قهر السكان الخاضعين لهما ، وكبت المعارضين، ومحاولات تقسيم حركات التحرير والقوى التي تؤيدها ، واللجوء المتزايد الى مساعدة الدول الامبريالية، واللجوء الى الحرب الوقائية (عن طريق « حق الملاحقة ») والابتزاز باستخدام الاسلحة النووية التي توحد الحكومتان جهودهما في صنعها .

وقد اصدرت الامم المتحدة مؤخرا وثيقة ضخمة عن قضية هذا التعاون متعدد الاشكال ، تفيدنا في ان نلقي الضوء على النصوص التي سبق اصدارها .. وابرزت ندوة هافانا في ايار ـ حزيران الماضي ، ومؤتمر دول عدم الانحياز في كولومبو الخطر الذي يمثله هذا التعاون ، الذي يزيد من اهميته زيارة فورستر رئيس وزراء جنوب افريقيا لاسرائيل في نيسان الماضي ، والاتفاق الذي عقد بهذه المناسبة . واذا كانت الصحف الغربية الكبرى قد اكتفت بابداء بضع ملاحظات على استحياء في هذا الشان فان البرافدا والمؤتمر الوطني الافريقي قد نددا بوضوح :

« .. بهذا التواطؤ الموجه ضد حركات التحرير العربية والافريقية » واكدا ان « الدولة الصهيونية تهتم بوجه خاص بشحنات المواد الاولية من بريتوريا بما في ذلك اليورانيوم ، الامر الذي يعني بوضوح بذل جهود مشتركة حقا بين الصهاينة والعنصريين في جنوب افريقيا لصنع الاسلحة النووية »

ولنذكر دون ان ندخل في عرض واسع للارقام ـ ان قيمة صادرات اسرائيل الى جنوب افريقيا ـ وفقا للارقام التي اصدرتها الامم المتحدة ـ قد تضاعفت الى ثلاثة امثالها فيما بين عام ١٩٦٧ وعام ١٩٧٣ ، في حين ان قيمة الواردات الاسرائيلية من جنوب افريقيا قد ارتفعت في الفترة نفسها من ٣،٤ مليون دولار الى ٣٢مليون دولار . وقد ارتفع معدل الزيادة هذا فيما بعد ، واقترن بدعم

هياكل نظام التبادل : عن طريق اقامة الغرف التجارية والشركات المختلطة والاتفاقيات المصرفية لزيادة حجم الاستثمارات في كلا الاتجاهين .. الخ وهو اجراء ينبغي ان نبرز انه قد اتخذ في عام ١٩٧٣ اثناء مؤتمر المليونيرات الذي يوصي بأن تستخدم شركات جنوب افريقيا اسرائيل للالتفاف حول العقوبات التي تفرضها الدول الافريقية على منتجاتها .

وقالت صحيفة الجارديان في ٢ حزيران ١٩٧٣ :

« تمثل اسرائيل قاعدة مفيدة جدا لشركات جنوب جنوب افريقيا التي لا تستطيع ان تبيع منتجاتها مباشرة الى افريقيا » .

وفي عام ١٩٧٢ قامت اول بعثة دبلوماسية لجنوب افريقيا في تل ابيب ، وفي اذار ١٩٧٤ رفع وزير الخارجية الاسرائيلية مستوى التمثيل الاسرائيلي في جنوب افريقيا الى درجة السفارة. وعلى اثر هذا القرار نستطيع ان نقرأ في صحيفة معاريف (١٤ اذار ١٩٧٤) اقوالا ذات نغمة عنصرية لا لبس فيها :

« اود ان انتهز هذا الظرف السعيد لاتحدث صراحة عن بعض حقائق .. فاليوم وقد ادارت لنا الدول الافريقية السوداء ظهرها .. فاننا في حل من ذلك الكتمان الذي راعيناه حتى الان .. واني لاشعر بالارتياح اذا ما قلت ما سكتنا عنه لاسباب دبلوماسية : ان مشهد غالبية الدول الافريقية يثير التقزز » .

وبعد حديثه عن « الفوارق الاساسية والوراثية » التي تفصل بين الشعوب يختتم الكاتب حديثه قائلا :

« صدقوني ، لو ان لي الخيار بين الصداقة مع افريقيا السوداء ... والصداقة مع امة بيضاء تعرف النظام والرخاء وتعيش فيها طائفة يهودية مزدهرة لاخترت جنوب افريقيا » .

ولما كان النظام والازدهار في بلاد الابارتهيد يتعرض حاليا للخطر امام تصاعد نضال الجماهير الافريقية المقهورة فان الارتياح المعلن لتضامن يعترف الطرفان بانه يستند الى موقف موضوعي متشابه قد اخلى المكان لقلق لدى المعلقين الاسرائيليين ، وهو قلق يعكس قلق يهود جنوب افريقيا الساقين الى مواجهة الهجرة ـ والذين لا يبدو انهم على استعداد كبير للهجرة الى اسرائيل ـ.. ولكنه على وجه الخصوص قلق امام « صلة القرابة » التي يراها الرأي العام العالمي بشكل متزايد بين النظم الثلاثة في بريتوريا وساليسبودي وتل ابيب . وهناك مقال اخير بعنوان « الحل الروديسي : خطر على اسرائيل » يفصح بجلاء عن هذا الامر . فخوفا من تشبيه اسرائيل ـ كدولة المستوطنين الروديسيين ـ بجسم غريب في المنطقة يوصي الكاتب رجال الدعاية الاسرائيلية بالتشديد على ان :

« من المناسب ان نجري تمييزا واضحا بين وضع الدولة اليهودية ووضع دولتي البيض في افريقيا الجنوبية » وان يثبتوا دون كلل « انه لا يمكن المقارنة بأية طريقة بين تاريخ اليهود في بلد ينتمي لهم،وتاريخ المستوطنين في جنوب افريقيا وروديسيا .. »

وهو ينصحهم بان يبينوا استمرارية العلاقات التي تربط يهود العالم كله بارض اسرائيل محاولين ان يسدوا فراغ الفي عام لا يراها المرء في سلسلة هذه العلاقات ويبني عليها الرب حججهم ضدنا ».

وينبغي اكثر من ذي قبل الا نتراخى بشأن هذه المسالة نظرا للوضع الذي يتطور بشكل خاص بين زيمبابوي وموزامبيق . فقد عرفنا منذ بضعة ايام ان الغارات الجوية على اراضي موزامبيق قد ادت الى مصرع مئات من المناضلين الافريقيين .. وفي اب الماضي كانت صحيفة « يديعوت احرونوت » الاسرائيلية قد اعلنت انه :

« منذ عملية عنتيبة تضغط المنظمات الخاصة التي تعمل في جنوب افريقيا وروديسيا على وكالات تجنيد المرتزقة في بريطانيا لتجنيد جنود اسرائيليين .. ويمكن لمن يتولوا مهام القيادة والتدريب ان يحصلوا على عشرة الاف ليرة اسرائيلية شهريا . وتعتزم الادارات المختصة نشر اعلانات في الصحف الاسرائيلية تقترح فيها اعمالا جذابة على اولئك الذين يشغفون بالقتال .. »

ولا بد ان يكون اسهام اسرائيل في اعمال المرتزقة الذين يساعدون القوات الاستيطانية والعنصرية في افريقيا الجنوبية قد اتضح هنا .

وكان العامل الثاني الذي دفع الرأي العام الغربي الى التطور منذ العام الماضي هو بالتأكيد تصاعد المقاومة الفلسطينية في الاراضي الخاضعة للاحتلال العسكري في الضفة الغربية من الاردن وغزة والقدس ـ وموجة المظاهرات التي اثارتها الاجراءات الاخيرة لنزع ملكية الاراضي العربية في اسرائيل في اطار « تهويد الجليل ». ولقد اثار القمع الوحشي ضد المتظاهرين الذين كانوا يريدون الحفاظ على احد الحقوق الاولية من التعليقات وسيول الانباء ما دفع الناس الى التساؤل :« لماذا مثل هذا الاصرار على احتلال ارض الاخرين ؟.. ولماذا يستمر نزع الملكية ؟» . ويكون من المنطقي ان يطرح السؤال الذي يمثل جوهر المشكلة : ما هي الطبيعة الحقيقية وما هي الاطماع الاقليمية لدولة اسرائيل .. ان اللبرة القائم منذ « بيان الاستقلال » في ١٤ ايار لا زال كما هو .. ويبين لنا نص حديث الايديولوجية التي يروج لها في اوساط الرأي العام الاسرائيلي اساتذة الفكر الصهيوني .. فقد كتب الحاخام كور ـ وهو من اكثر الحاخامات نفوذا في اسرائيل ـ يقول في صحيفة يديعوت احرونوت في ٢٣ ايار الماضي :

« ان ارض اسرائيل بكل امتداد اقليمها وحدودها ملك لمجموع شعب اسرائيل ، للايين اليهود في العالم اجمع . ولهذا فان اليهودية والسامرة والجولان وبيسان الموجودة في قلب ارض اسرائيل تنتمي لشعب اسرائيل (...) والحكومة الحالية .. ليست حكومة مجموع هذا الشعب ، وانما فحسب حكومة اولئك الذين يعيشون هنا « كرواد » للاخرين جميعا .. وليس من حق اولئك الذين يقطنون البلاد في هذه اللحظة ان يحدوا او يقيدوا وضع بمنا على هذه الارض .. والحديث عن « تنازلات اقليمية » لغو لا معنى له يرفضه العقلاء الواعون بازدراء وسخط » .

ولقد توصل الرأي العام العالمي شيئا فشيئا الى اكتشاف على من تقع مسئولية اعمال التمييز ضد العرب الذين يعيشون في اسرائيل ، وهي اعمال كثيرا ما كان يجهل حتى وجودها .وحتى اولئك الذين لا يعترمون ، لواقعيتهم السياسية ، التشكيك في الوجود القانوني لهذه الدولة ينبغي لهم على الاقل ان يتبينوا الدوافع التي تفسر امتناعها عن الاعتراف بالحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني ، ورفض الجلاء عن الاراضي العربية المحتلة . ولقد ساعدنا كثيرا في عملنا الايضاحي عدد من الشخصيات التي تندد ـ في اسرائيل ذاتها ـ بايديولوجية عنصرية تقوم على « حق سلفي » مزعوم يتساءل المرء اي هيئة قانونية دولية يمكن ان تاخذه في اعتبارها ... ان هذا الاستغلال السيء لعقيدة دينية عن « الاختيار » كتبرير لكل عمليات الاغتصاب ، وسند لعبارة « خلاص ارض اسرائيل » الشهيرة ، يمضي الى حد التنديد بمجرد الاعتراف بالمساواة بين الناس ـ اليهود وغير اليهود ـ امام القانون الوطني والدولي، باعتباره من اختلاق فلسفة الاغيار .

وتصف السيدة الوني عضو الكنيست ومؤسسة حركة الحقوق المدنية في صحيفة « يديعوت احرنوت » العمليات التي جرت في آب ١٩٧٤ قائلة :

« واليوم يوضح لي عدد من الاساتذة والشخصيات الدينية في بلادنا ان حماسي من اجل المساواة في الحقوق بين كل الناس هو ثمرة فلسفة « انسانية » للاغيار ، فلسفة مفلسة تتعارض مع اليهودية .

وباسم هذه اليهوديه تمارس منذ ٥٠ عاماقهرا جماعيا ضد من لا ينتمون الى اصل يهودي . ويعبر اسباب المعصب التي يدين بالصهيونية الدينية سكان اليهودية والسمرا « كلابا » ،ويعتبرون حقوقهم في الاراضي والدور التي يقطنونها منذ مئات السنين باطله متناقضة مع العهد الذي تلقاه آباؤنا .. وهذا ما تمثله اليهوديه اليوم بالنسبة لكثير من الحاخامات وبعض الساسه وماسيهم ، ونحن نشهد عملية اثاره منظمه للشعب كي يتجاهل مجرد وجود الشعب الفلسطيني وامانيه في ان يعبر عن نفسه بحريه . ان احباطه وحقوقه ووجوده كمجموعة عرقيه عاشت في هذه المنطقه منذ قرون وعزمه على تحقيق هويته — بما يتضمن السيادة السياسيه .. ان هذا كله يعامل بازدراء ..»

وهكذا نصل الى النقطة الثالثة التي أود اثارتها . لقد قدم مسيحيو الغرب — بوعي او بغيروعي — سندا للايديولوجية والسياسه الصهيونيتين بقراءتهم Fundamentalist للعهد القديم وميلهم الى « تحقيق » العهد الابوي الذي يفهم ويفسر دون اي سير تاريخي . وتتضح هذه الظاهرة بجلاء اكبر في الدوائر البروتستانتيه الاكثر تعلقا بالكتاب المقدس (ويمكن ان تخامرنا في هذا الصدد بعض المخاوف بالنسبة لشخصية الرئيس الامريكي الجديد) .

وينبغي ان نبدي ارتياحنا لان بعض علماء اللاهوت المحدثين يسعون الى « تبديد الاسطورة » عن هذه القراءة للنصوص ، ويسمون بالزيف استغلالها في أغراض سياسية . وفي هذا الصدد يقول عالم اللاهوت السويسري البير دي يوري في العدد الاخير من المجلة ربع السنوية « دراسات لاهوتية ودينية » التي تصدربالتعاون مع المركز الوطني للبحث العلمي :

« وحتى لو شاطرنا اللاتاويليين معتقداتهم حول حرفية الوحي، وحول الصحة التاريخية لكل قصص الكتاب المقدس ، حتى لو تقبلنا فرضيه السرمديه المطلقة لكل وعد الهي ، فلن نصل الى ان نستخلص من النصوص معنى يدفعنا الى ان نحدد بشكل ملموس موقفنا السياسي في عالم اليوم .. ولا يمكن ان نلتف باية طريقة حول اولئك المسيحيين الذين يعتبرون وعد العهد القديم اساسا قانونيا للمطالب الاقليمية الحاليه لدولة اسرائيل » .

وقد يبدو هذا الموقف مجرد حد ادنى ، الا ان علينا ان نضعه في اطار مسيحية غربية تجد نفسها شريكة في احياء فكرة لاله العدالة يخدم تميزا عنصريا .

ويمكن لجانب اخر من الوضع الراهن ان يوضح طبيعة النظام الصهيوني : واود هنا ان اتحدث عن التناقضات التي تتطور داخل المجتمع الاسرائيلي ، بحكم « سياسته ذاتها » .

وينبع احد هذه التناقضات من استغلال الاراضي العربية المحتلة، وتمثل هذه الاراضي من ناحيه مصدرا لارباح كبيرة بالنسبةللدولة الصهيونية في شكل محاصيل زراعيه وفيرة باسعار زهيدة ،واسواقا للمنتجات الاسرائيلية ، ومصدرا للايدي العاملة المهاجرة — اذ تحول الفلاحون العرب الذين نزعت ملكيتهم الى عمال منخفضي الاجور، محرومين من اية امكانيه للتنظيم ومن الحقوق النقابية ، عمال بالاجر يمكن فصلهم اذا شاء صاحب العمل (وتلك ميزة لها وزنها بالنسبة لاقتصاد يعاني الكساد) ، ويعانون الى حد دفع احد الصحفيين الى ان يتحدث مؤخرا عن « اكواخ العم توم » التي رآها في اسرائيل .

غير ان هذا الاستغلال كان من ناحية اخرى عاملا مساعدا على التدهور التدريجي لمجتمع كان يفخر بانه يقوم على « العمل اليهودي » والعمل المنزه عن الغرض للرواد .. لقد ادى هذا الاستغلال ذو الطابع الاستيطاني الى ظهور طبقة من الكولاك تحقق ارباحا هائله دون ان تترك اصبعا بفضل الاراضي المنزوعه التي اعطيت لها ، والعمال العرب الذين لم تتبق لهم سوى ايديهم لزراعة الارض التي أعطيت للاخرين . ويعبر المعلقون الاسرائيليون الذين لا يذهلون برؤية المزايا العاجلة للوضع عن قلقهم بهذا الصدد. وهكذا يقول بوعاز ايفرون في صحيفة « يديعوت احرونوت » فيعددها الصادر في ٢٤ ايار ١٩٧٥ :

« .. لقد ادى استمرار الاحتلال الى ظهور نظام شبه استعماري، وطبقه من صغار الطغاة القادرين تقهر السكان الخاضعين .. ولا يمكن لمثل هذا الوضع الا ان يولد الفساد . لقد قال لينكولن انه لا يمكن لامة ان يتألف نصفها من العبيد ونصفها من الاحرار. ان الحرية لا تنقسم . وهكذا تحول الاحتلال الى سرطان ينخر في جسمنا .. »

ويرى ايفرون آثار هذا السرطان في الطريقة التي يعامل بها أولا السكان الفلسطينيون في الاراضي المحتلة ، ثم العرب فياسرائيل، ثم اليهود الشرقيون والتي بدأ يعامل بها ذوو الاراء الساخطه ..

وليس هذا بالتناقض ضئيل الشان بين الاتجاه الى صبغ النظام بالصبغه الفاشيه — وهو امر يتمشى مع طبيعة الامور والضرورة التي يواجهها للابقاء على صورة ذات طابع « ديمقراطي » في اعين الرأي العام العالمي ويهود الشتات ، وبوجه خاص اليهود الامريكيين وهم عموما من الليبراليين .

وثمة تناقض اخر يمكن ان تكون اثاره قاتلة بالنسبة للدولة الصهيونيه هو تطور النسبه بين المهاجرين الى اسرائيل والمهاجرين من اسرائيل . فالابقاء على الاحتلال والابقاء على حالة الحرب التي يتضمنها ، وميزانية الحرب الباهظة ، كل هذا ينعكس بشكل قاس على مستوى المعيشة وحجم الواردات ، كما ينعكس في شكل خدمة عسكرية الزاميه تشل الحياة العائلية والمهنية لسكان البلاد اليهود . ومن شأن كل هذه العوامل عدم تشجيع الهجرة الى اسرائيل وتشجيع الهجرة منها ، وهي هجرة تضاعفت في السنوات الاخيرة الى حد استطاع معه بيجين زعيم المعارضة اليمينية المتطرفة الحديث عن « النزيف الرهيب » في حين تصف افتتاحيات الصحف هذا الاتجاه بانه « دراما سياسيه وعار قومي » (يديعوت احرونوت في ٢٢ حزيران ١٩٧٦) .

ويشعر قادة اسرائيل بهذه الظاهرة بمزيد من المرارة لانها تمس نسبة كبيرة من الشباب ومن اليهود الذين ينتمي اصلهم الى الدول العربية ممن يبدون عزمهم على العودة الى اوطانهم، وقد وجهت مبادرة بعض الحكومات العربية — ومن بينها العراق — الى عرض العودة على يهود السفارديم الى البلاد التي شاطروها طويلا مصيرها وثقافتها لطمة قاسية الى صورة الدولة الصهيونية — الملجا التي لا يمكن لليهود خارجها الا ان يكونوا ضحية للعداء للسامية .

واخيرا اعتقد ان ثمة عنصرا جديدا كان له دور كبير فيفتح اعين المخلصين على طبيعة الدولة الصهيونية وممارساتها العنصرية. ولقد كانت مذكرة كونيج الشهيرة التي نشرنا ترجمتها الفرنسية في نشرة « فرنسا — فلسطين » نوعا من النقد الذاتي للاساليب التي استخدمت في اسرائيل حتى الان ازاء الاقلية العربية ، وقد رأت في هذه الاساليب احد اسباب تصاعد النزعة القومية العربية التي تخشى آثارها ، مقرونة بهذا التزايد السكاني السريع للسكان العرب . وتعد الاقتراحات التي تقدم بها واضع الوثيقة — والمعروضة حاليا على رئيس وزراء اسرائيل — شهادة بالغة على الوان التمييز التي ادانها قرار الامم المتحدة .

الفهرس العام لسنة «الاداب» الرابعة والعشرين ١٩٧٦

لما كانت الاعداد التي صدرت هذا العام اربعة فقط ، بسبب احداث لبنان ، فسنعتمد الرقم ١ للاعداد الثلاثةالاولى ورقم ٤ للاعداد الثلاثة الثانية ورقم ٧ للاعداد الثلاثة الثالثة والرقم ١٠ للاعداد الثلاثة الاخيرة . راجع القصائد تحت مادة شعر ، والقصص تحت مادة قصة .

١ ـ فهرست الموضوعات

الموضوع	العدد	الصفحة
أ		
الادب المصري في عام ١٩٧٥ : هل هي بداية حقبة جديدة ؟	١	٢٦
اوراق للحرب والضجر	٧	٥٠
ب		
بطاقة تعريف لشاعر مغربي شاب	٤	٢٤
بعض جوانب من التزوير في الانتاج الفكري	٤	٦٦
بيان شخصي عن مذبحة التل	٧	٧٢
ت		
تأثير العوامل الهيكلية والمؤسسية على التكيف المهني لعناصر الطاقة البشرية	١	٣٥
تجربة البحث عن التفرد والخصوصية في « من قتل حكمت الشامي »	٤	٦٠
التربية وتنمية الموارد البشرية في البلاد العربية	١	٨٦
تل الزعتر .. ايها الوطن المصلوب	٧	٢٧
تل الزعتر ومؤتمر المسرح العربي في دمشق	٧	٢١
تعليم المرأة وعلاقته باحتياجات العالم العربي من القوى العاملة	١	٨٩
توصيات مؤتمر قضايا تنمية الموارد البشرية في الوطن العربي	١	١٠٢
ث		
الثورة اللبنانية	٤	٢
ثلاث رسائل حول الاستعمار	١٠	٤٤
ج		
الجذور الايديولوجية للعنصرية اليهودية	١٠	٥٧
عجز الجامعة	٧	٣٦
ح		
الحركة الانعزالية وخطر تفاقم « القضية اللبنانية »	١	٨
حق الحصول على الجنسية في اسرائيل	١٠	٤٧
د		
دفاعا عن لبنان والمقاومةالفلسطينية كيف يكون التضامن ؟	٧	٤١
دور النشر العربية وميول الشباب	٤	٧٢
الحزن في « تنهدات الأمير العربي »	١٠	١٦
ر		
رسالة مفتوحة الى رفاق بعيدين	٧	٤١
س		
السـعقلية افكار في خدمة الجريمة	٧	٧٥
ش		
« الشعر والمعركة »	٧	٤٥
شهريات رئيس التحرير	١	٢
	١٠	٢
شواهد على عنصرية اسرائيل	١٠	٢٣
« شعر »		
انولد بيروت وجها جديدا	١٠	١٢
الاجراس	١	٦
احمد الزعتر	٧	٣
اختلافات	٤	٢٧
ادمشق التي..لا دمشق التي	٧	٢٩
الارتحال الى الوطن	١٠	١٤
الزلزال	١٠	٤
اغنية	٧	٧٣
اقطع كفي .. ارسلها لك يا « تل الزعتر » برقية	٧	٩
ابي صيدا .. الآن خذي جسدي كيسا من رمل	٧	٨
الى بيروت	٧	٦٩
اهازيج موت شتائي	٤	١٧
ايا عجبا	٧	٢٢
براق الموت ..براق التل	٧	٨٠
بريد بيروت	٧	٢٨
بطاقة انتماء الى الوطن العربي	٧	٤٩
البوابة	٤	٥٨
بير العصافير	٧	٥٢
بيروت تولد في العاصفة	١	١٨
بيروت المحترقة	٧	٣٢
تل الزعتر	٧	٢٦
خطاب غير تاريخي	١	٢٣
دبكة الموت	٧	٦
دمشق	٧	٦٤
الرغبة والفعل	٤	٣١
رؤيا الظلام والشمس	٤	٤٦
الساعة الاخيرة	٧	١٢
سقطت اوراق التوت	٧	٥١
سور لطائر الليل	٤	٣١
شظايا من الحقيقة	٤	٥٥
الشمس بوابتي	٤	٤٧
شهادة لتل الزعتر	٧	٦٧
شهادة من المنفى الثاني	٧	٨٢

الموضوع	العدد	الصفحة
الصـوت	٤	٤١
صد البديل عن القتال	٧	٦٣
عشتار في بقعة ضوء	٤	٤٥
عشرون قصيدة حب واغنية يأس	٤	١٨
عناوين سريعة لوطن مقتول	٧	٣٨
قبيلة القمر	٤	٣٣
قراءات على طريق الشام	٧	٧٤
قصائـد	٤	٤٨
قصيدتسان	١٠	١١
لبيروت عذاب ولنا عذاب	٧	٣١
لك المجد ولا أعطيك اسمي	٤	١٤
المتاريس	٧	٦٠
متوسطيات	١	١٧
محمد الثاني يزف الى سارا	٤	٨
مرثيـة	٤	٥٣
مزامير للاله الجديد	١	٦
ملصقات اتهـام	٧	٦٢
نشيد للفقر المسلح	٧	٦٨
نقطة من دمي المحارب الحزين	٧	٣٤
هذا زمن للموت	٧	٤٤
هل تدخلين تحت رعشتي منارة ؟	٧	٧٠
هموم من الشارع المنسي	٤	٥٤
وردة الصمت	١٠	١٩
وطن اسمه بيروت	٧	٢٠
وطن كبير للحزن	٤	٧
وقوف فيمداخل انطاكية	٧	٨٥
وكان قرص الشمس قنبلة	٧	١٠
ويا بطولات تل الزعتر احتشدي	٧	١٧
يوميات في بيروت الغربية	٧	١٤
ص		
الصهيونيةايديولوجية عنصرية	١٠	٣٥
الصهيونية والعنصرية	١٠	٦٥
ط		
ظلال رحمة ودمعة من بردى	٧	٣٧

الموضوع	العدد	الصفحة
ع		
عن النزائع الدينية والتاريخية للصهيونيـة	١٠	٣٠
عن السينما الفلسطينية المقاتلة	٧	٨٢
العوامل المساعده في استرجاع الكفاءات العربية المهاجرة	١	٧٧
العوامل المساعدة لاستعادة واستبقاء الاختصاصيين العرب في العلوم والتكنولوجيا	١	٩٦
عودة العرب واليهـود : المسألـة والحـل	١٠	٥٢
ق		
« قصـه »		
البقـاع	٧	٧٦
التل والنورس	٧	٩٠
ثلاث قصص قصيرة	٤	٥٩
ثلاث قصص قصيرة جدا	١	٢٤
الحيـة	١	٣١
رسالة الى انشتاين	١٠	١٥
سيمفونية الحب	٤	٢٩
التبغ والغليون	٤	٤٢
الصـدأ	٤	٦٢
قنبرة يصم نافته بالخيانة	٧	٦٥
كي تنام ايها الامير	٤	١٥
الليـل الدبـق	١	٢٠
مقبرة الصور	٤	١١
ك		
الكتاب والثقافة القومية	٤	٦٩
الكتابة الدائمة بالدم	٧	٣٣
« كوابيس بيروت » وغاده السمان	٧	٤٧
كيف نواجه الصهيونيـة كحركة عنصريـة	١٠	٢٥
ل		

الموضوع	العدد	الصفحة
لبنان الطائفي ولبناننا الآخر	٧	٥٥
« لبنان في الدوامة »	٧	٣٠
م		
ما سقط ولكن شبه لهم	٧	١١
مجالات التعاون فـي نشر كتاب الطفل	٤	٧٧
المسيحيون والمسلمون	٧	١٨
مناقشات ندوة الكتاب العربـي وتوصيـاتهـا	٤	٧٩
« معالم جديدة في ادبنا المعاصر »	٤	٤٩
معضلة القوى العاملة في العالم العربي : تجربة الماضي وتطلعات المستقبل	١	٤٨
مقدمه لدراسة العوامل التي تمنع الاستفادة من الكفاءات العربية	١	٥٦
المهمة الوحيدة الشريفة	٧	٢٤
المؤتمر الفكري حول الصهيـونيـة	١٠	٢١
مؤتمر قضايا تنمية الموارد البشرية في الوطن العربي	١	٣٤
ن		
نحن في زمن الاشتباك	٧	٧٨
الندوة الثالثة للكتاب العربي	٤	٦٥
النزيف الكفائي العربي	١	٨٠
هـ		
هجرة الكفايات العربية	١	٦١
هذا العـدد	٧	٢
و		
وجهة نظر في قبـول سارتر للدكتوراة الاسرائيلية	١٠	٧
وثائق	٧	٨٦
وجه الشرق	٧	٨١

٢ ـ فهرست الكتـــاب

الكاتب	العدد	الصفحة
أ		
ابراهيم ـ د . سعدالدين	١	٣٥
ابو صبيح ـ جميل	٤	٤٦
احمد بلبداوي	٧	٨٥
ادريس ـ الدكتور سهيل	١	٢
	٧	٢
	٧	٩٠
	١٠	٢
اسماعيل ـ د . طارق	١	٨٠
امين ـ د . مروان	٧	٥٥
ب		
ابحش ـ مؤيد	٧	٦٤
بزيع ـ شوقي	٧	٢٨
البرغوتي ـ مريد	٧	٦٨
بركات ـ مصطفى	٤	٥٥
بسيسو ـ معين	٧	٨
	٧	٩
	٧	١٠
بن عيسى ـ د . حنفي	٤	٦٦
البيطار ـ صلاح الدين	٧	١٨
ج		
الجابري ـ مسلم	٤	٣٣
جاسم ـ عزيز السيد	٧	٤١
الجبوري ـ منذر	٧	٦٧
جعفر ـ حسب الشيخ	٧	٢٠
جعفر ـ محمد راضي	٧	٦٩
جابل ـ حسين	٤	٧
	١٠	١٩
حجازي ـ أ . عبدالمطي	١٠	٧
حيدري ـ بلند	١٠	١١
ح		
حافظ ـ السيد	٤	٢٨
الحسيني ـ د . حاتم	١	٥٦
خ		
خالدي ـ محمد	٤	٥٤
خشبة ـ سامي	١	٢٦
الخشن ـ فؤاد	١	١٦
خليل ـ د . خليل احمد	٧	٥٢
الخليلي ـ علي	٤	١٤
	٧	٧٠
خوري ـ الياس	٧	٨١
د		
دانيال ـ هادي	٧	٥٠
الدباغ ـ غانم	١	٢٠
درويش ـ محمود	٧	٣
دنقل ـ أمل	١	٢٣
دكسن ـ زهور	٤	٣١
	٧	٢٩
ر		
رباح ـ وليد	٧	٦٥
رباح ـ يحى	٧	٧٨
ربيع ـ د . محمد	١	٦١
الربيعي ـ شريف	٧	٧٥
الركابي ـ عبدالخالق	١	١٧
الركابي ـ هشام توفيق	٤	٦٢
ز		
الزبيدي ـ ابراهيم	٧	٦٠
س		
سمارة ـ محمد	٤	٥٩
سمعان ـ نزار	٧	٣٧
السند ـ سعدي علي	٧	٣١
السنباري ـ د . نجاة المرسي	١	٨٩
ش		
شاوي ـ برهان	٤	٤٨
الشريف ـ د . حسن	١	٦٨
الشرقاوي ـ عبدالرحمن	٧	٣٦
شمس الدين ـ عبدالكريم	٧	٤٤
شمس الدين ـ محمد علي	٧	٣٤
	١٠	٤
شميط ـ وليد	٧	٣٠
الشوباشي ـ فريدة	٧	٢٦
	١٠	١٥
الشيباني ـ د . عمر التومي	٤	٧٢
الشيخلي ـ د . صلاح الدين	١	٧٧
ص		
صافي ـ احمد	٧	٤٩
صكر ـ حاتم	٤	٥٨
ع		
العامل ـ رشدي	٤	٥٣
العاني ـ يوسف	٧	٢١
العبادي ـ علي حسين	٤	٦٩
عباس ـ عبدالجبار	٤	٤٩
عبدالكريم ـ طاهر	٧	٢٤
العبدالله ـ محمد	٧	٧٣
عبدالله ـ يحي الطاهر	٤	١٥
عبدالملك ـ د . انور	١٠	٤٤
عثمان ـ د . علي عيسى	١	٨٦
عطية ـ المثنى الشيخ	٤	٤٥
عوش ـ ناجي	١	١٨
عيان ـ حافظ	٧	٦٣
العلاق ـ علي جعفر	٤	٢٧
علي ـ د . مهدي محمد	١	٤٨
العلي ـ ابراهيم	٧	٤٠
غ		
غارودي ـ روجيه	١٠	٣٠
ف		
فخرالدين ـ جودت	٤	١٧
	٧	٧٤
	١٠	١٤
فرح ـ د . الياس	١٠	٢٥
الفيتوري ـ محمد	٧	١٧
ق		
القابسي ـ محمد احمد	٧	٨٠
القاسم ـ د . انيس	١٠	٤٧

الكاتب	العدد	الصفحة
القشطيني ـ خالد	١٠	٥٧
القاسم ـ سميح	٧	٦
القيسي ـ محمد	٤	٨
ك		
كحل ـ فؤاد	١٠	١٢
كريدي ـ موسى	١	٢١
الكمالي ـ شفيق	٧	٢٢
ل		
ليدن ـ فلاديمير	٤	٤٢
م		
ماتيو ـ اليزابيت	١٠	٦٥
المراني ـ هشام	٧	٣٢
مراد ـ طلال م .	٤	٣١
مروة ـ نزار	٧	٤٧
مستغانمي ـ احلام	٧	٥١
مفدى ـ احمد	٧	٦٢
مطلة ـ عبدالامير	٧	٧٢
مقبل ـ حنا	٧	٣٣
ملص ـ فايز	٧	٨٢
ممدوح ـ عاليه	٤	١١
منصور ـ خيري	٤	٤٧
منيف ـ د . عبدالرحمن	١	٢٤
مونتاي ـ فنسان	١٠	٢٣
ن		
ناصيف ـ جورج	٧	١١
النساج ـ دكتور سيد حامد	٤	٢٤
النقاش ـ محمد	٤	٢
نيرودا ـ بابلو	٤	١٨
هـ		
الهاشمي ـ بشير	٤	٧٧
هواري ـ زهير	٧	٢٧
لا		
الاسعد ـ محمد	٧	١٤
الاطرقجي ـ ذوالنون	٧	٢٨
الاعرجي ـ محمد حسين	١٠	١٦
ي		
الياسري ـ عيسى .	٤	٤١
ياسين ـ نجمان	٤	٦٠
ياسين ـ السيد	١٠	٣٥
يخلف ـ يحي	٧	٧٦
يوسف ـ سعدي	٧	١٢